

ترجم إلى 26 لغة

الإلمام بالحقيقة

عشرة أسباب تجعلنا مخطئين بشأن العالم
وعلّة كون الأمور أفضل ممّا تظنّ

FACTFULNESS

هانس روسلينغ
مع أُولا روسلينغ
وآنا روسلينغ رونلوند

HANS ROSLING with OLA ROSLING and ANNA ROSLING RÖNNLUND





أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الإلمام
بالحقيقة
FACTFULNESS



الإلمام
بالحقيقة
FACTFULNESS

عشرة أسباب تجعلنا مخطئين بشأن العالم
وعلة كون الأمور أفضل مما تظن

هانس روسلينغ

مع أولا روسلينغ
وآنا روسلينغ رونلوند

HANS ROSLING with OLA ROSLING and ANNA ROSLING RONNLUND

ترجمة
رفيف غدار

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

FACTFULNESS

The Reasons We're Wrong About The World

And Why Things Are Better Than You Think





عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجـد غرافيكس**، بيروت – هـاتف 785107 (1-961+)

الطباعـة: **مطـابع الـدار العـربية للعـلـوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)



المحتويات


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ملاحظة المؤلّف

خُطّ كتاب الإلمام بالحقيقة بصوتي، كما لو كان مؤلَّفًا من قِبَلي وحدي، ويحكي قصصًا كثيرة من حياتي. ولكن رجاءً لا تنخدع. فتمامًا مثل أحاديث ومحاضرات تيد التي دأبتُ على إلقائها في مختلف أنحاء العالم على مدى العشر سنوات الفائتة، فإنّ هذا الكتاب هو نتاج عمل ثلاثة أشخاص، وليس شخصًا واحدًا.

أنا عادةً رجل الواجهة. أقف على خشبة المسرح وأُلقي المحاضرات، وأتلقّى التصفيق. ولكن كلّ شيء تسمعه في محاضراتي، وكلّ شيء تقرأه في هذا الكتاب، هو نتاج ثمانية عشر عامًا من التعاون المكثّف بيني، وبين إبني أُولا روسلينغ، وزوجة ابني آنا روسلينغ رونلوند.

في العام 2005، أنشأنا مؤسّسة غاب مايندر (Gapminder)، التي تلخّصت مهمّتها في محاربة الجهل المدمِّر من خلال نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة. قدّمتُ الطاقة، والفضول، وعمرًا من الخبرة كطبيب، وباحث، ومحاضِر في الصحة العالمية. كان أُولا وآنا مسؤولَين عن تحليل البيانات، والشروحات البصرية الإبداعية، وقصص البيانات، وتصميم العروض التقديمية البسيطة. لقد كانت فكرتهما أن نقيس الجهل بطريقة منهجية، وقد صمّما وبرمجا مخطّطاتنا الفقّاعية المتحركة الجميلة. شارع الدولارات، وهو طريقة لاستخدام الصور الفوتوغرافية كبيانات لشرح العالم، هو من بنات أفكار آنا. بينما كنت أزداد غضبًا بسبب جهل الناس بالعالم، قام أُولا وآنا، بدلًا من ذلك، بأخذ التحليل ما وراء الغضب وبلوَرا فكرة الإلمام بالحقيقة المتواضعة والباعثة على الاسترخاء. عرّفنا معًا أدوات التفكير العمليّة التي نعرضها في هذا الكتاب.

ما أنت بصدد قراءته لم يُبتكَر وِفقًا لصورة «العبقري الوحيد» الثابتة في

الأذهان، بل هو نتيجة للنقاش، والجدال، والتعاون الثابت بين ثلاثة أشخاص ذوي مواهب، ومعارف، ووجهات نظر مختلفة. طربقة العمل هذه غير التقليدية، والمثيرة للحنق غالبًا، ولكن المثمرة بعمق أدّت إلى إيجاد طريقة لإظهار العالم وفهمه، ما كنت لأتمكّن أبدًا من ابتداعها بمفردي.





مقدمة

سبب حبّي للسيرك

أنا أحبّ السيرك. أحبّ أن أشاهد المشعوذ وهو يقذف في الهواء المناشير السلسلية الباعثة على الهتاف، أو البهلوان وهو يمشي على الحبل المشدود مؤديًّا عشر شقلبات متتابعة في الهواء. أحبّ العرض وإحساس الانشداه والبهجة لدى مشاهدة ما يبدو مستحيلًا.

كان حلمي في طفولتي أن أصبح فنّان سيرك، ولكنّ والديّ أراداني أن أحصل على التعليم العالي الذي لم ينالاه أبدًا. وهكذا آل بي الأمر إلى دراسة الطبّ.

في عصر أحد الأيام، في كليّة الطبّ، خلال محاضرة مملّة حول طريقة عمل الحلق، كسر أستاذنا الملل قائلًا، «إذا علق شيء، يمكن تسوية الممرّ بدفع عظم الذقن إلى الأمام». ولتوضيح المعنى، عرض صورة بالأشعّة السينية لمحترِف أثناء ابتلاعه سيفًا.



لمعت في ذهني فكرة نيّرة مفاجئة. لم يكن حلمي قد انتهى! فقبل بضعة أسابيع، أثناء دراستي للارتكاسات، اكتشفت أنني، من بين كلّ زملائي في الدراسة، استطعت أن أدفع أصابعي لأبعد مسافة أسفل حلقي دون أن أتقيّأ. في ذلك

الوقت، لم أكن فخورًا

جدًّا، لأني لم أعتقد أنها مهارة هامّة. ولكني الآن فهمت قيمتها، وعادت الحياة على الفور إلى حلم طفولتي.

لم تكن محاولاتي الأولى مشجِّعة. لم يكن لديّ سيف، ولهذا استخدمت قصبة لصيد السمك بدلًا منه، ولكن بغضّ النظر عن عدد المرّات التي وقفت فيها أمام مرآة الحمّام وحاولت، لم أستطع أن أصل لأكثر من بوصة واحدة وكانت القصبة تعلق. في النهاية، وللمرّة الثانية، تخلّيت عن حلمي.

بعد ذلك بثلاث سنوات، عملت كطبيب متدرّب في جناح طبّي حقيقي. كان أحد مرضاي الأوائل رجلًا عجوزًا يعاني من سعال متواصل. كانت عادتي أن أسأل مرضاي عن عملهم في الحياة، في حال كان لذلك صلة بمرضهم، وتبيّن أنّ عمل هذا المريض كان ابتلاع السيوف. تخيّل دهشتي عندما تبيّن أنّ هذا المريض كان هو نفسه مبتلِع السيف في صورة الأشعّة السينية تلك! وتخيّل هذا، عندما أخبرته عن كلّ محاولاتي بقصبة الصيد، قال لي: «أيها الطبيب الشاب، ألا تعلم أنّ الحلق مسطّح؟ لا يمكنك أن تزلق خلاله إلّا أشياء مسطّحة. لهذا السبب نستخدم سيفًا».

في تلك الليلة بعد عودتي من العمل، وجدت مغرفة حساء ذات مقبض مسطّح مستقيم، واستأنفت تدرّبي على الفور. تمكّنت سريعًا من أن أزلق المقبض على طول الطريق إلى أسفل حلقي. كنت متحمِّسًا، ولكنّ ابتلاع مقبض مغرفة الحساء لم يكن حلمي. في اليوم التالي، وضعت إعلانًا في الجريدة المحليّة وسرعان ما حصلت على ما كنت بحاجة إليه: حربة للجيش السويدي يعود تاريخها إلى العام 1809. عندما زلقتها بنجاح إلى أسفل حلقي، شعرت بالفخر والاعتداد على حدّ سواء لما أنجزته ولإيجادي مثل هذه الطريقة الرائعة لإعادة تدوير الأسلحة.

أظهر ابتلاع السيف دومًا أنّ ما يبدو مستحيلًا قد يكون ممكنًا، وألهم البشر ليفكّروا ما وراء الواضحات. أستعرضُ بين الفينة والفينة هذا الفنّ الهندي القديم في نهاية واحدة من محاضراتي حول التنمية العالمية. أقف على طاولة وأنزع عني قميصي المهني ذا الترابيع لأكشف عن صُدرة سوداء مزخرَفة بصاعقة برق مترترة ذهبية. أدعو إلى الصمت التامّ، وأزلق ببطء حربة الجيش إلى أسفل حلقي. أمدّ

ذراعَيّ، وتزداد حماسة الجمهور.

اختبر نفسك

هذا الكتاب يتناول العالَم، وكيفية فهمه. لماذا إذن بدأت بالسيرك؟ وما الذي يجعلني أنهي محاضرةً باستعراض لافت للأنظار بصُدرة متلألئة؟ سأشرح السبب قريبًا. ولكن أوّلًا، أريدك أن تختبر معرفتك بشأن العالم. جِد رجاءً ورقةً وقلمًا وأجب على أسئلة الحقائق الثلاثة عشر أدناه.

في جميع البلدان ذات الدخل المنخفض في أنحاء العالم اليوم، ما نسبة الفتيات اللاتي يُنهين الدراسة الابتدائية؟

أ: 20 بالمائة

ب: 40 بالمائة

ج: 60 بالمائة

أين تعيش غالبية سكّان العالم؟

أ: في البلدان ذات الدخل المنخفض

ب: في البلدان ذات الدخل المتوسط

ج: في البلدان ذات الدخل المرتفع

3. في الـ 20 سنة الأخيرة، فإنّ نسبة سكّان العالم الذين يعيشون في فقر مدقع قد...

أ: تضاعفت تقريبًا

ب: بقيت كما هي تقريبًا

ج: قلّت إلى النصف تقريبًا

ما هو متوسط العمر المتوقّع في العالم اليوم؟

أ: 50 سنة

ب: 60 سنة

ج: 70 سنة

5. هناك 2 مليار طفل في العالم اليوم، تتراوح أعمارهم بين 0 و15 سنة. كم سيكون عدد الأطفال في العام 2100، وِفقًا للأمم المتحدة؟

أ: 4 مليارات

ب: 3 مليارات

ج: 2 مليار

6. تتوقّع الأمم المتحدة أنه في العام 2100 سيزداد عدد سكّان العالم بمقدار 4 مليارات شخص. ما السبب الرئيسي؟

أ: سيكون هناك عدد أكبر من الأطفال (أعمارهم أقلّ عن 15 سنة)

ب: سيكون هناك عدد أكبر من الراشدين (أعمارهم بين 15 و74 سنة)

ج: سيكون هناك عدد أكبر من الطاعنين في السنّ (بعمر 75 سنة فما فوق)

7. كيف تغيّر العدد السنوي للوفيّات الناجمة عن الكوارث الطبيعية على مدى الـ100 سنة الأخيرة؟

أ: تضاعف أكثر من مرّتَين

ب: بقي كما هو تقريبًا

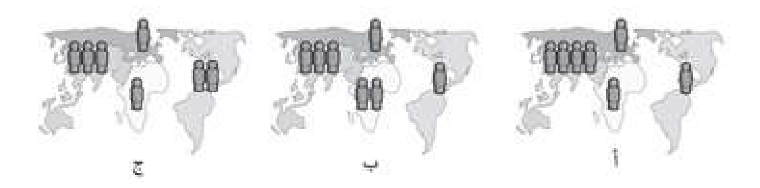
ج: انخفض إلى أقلّ من النصف

8. هناك 7 مليارات نسمة تقريبًا في العالم اليوم. أي خريطة تُظهِر بشكلٍ أدقّ أين يعيشون؟ (كلّ شكل بشري على الخريطة يمثّل مليار شخص)

الخريطة أ (تُنقَل من الكتاب)

الخريطة ب (تُنقَل من الكتاب)

الخريطة ج



ما نسبة الأطفال البالغ عمرهم سنة واحدة الذين تمّ تلقيحهم ضدّ أمراض معيّنة في العالم اليوم؟

أ: 20 بالمائة

ب: 50 بالمائة

ج: 80 بالمائة

. على مستوى العالم، أمضى الرجال البالغ عمرهم 30 سنة ما معدّله 10 سنوات في المدرسة. ما عدد السنوات التي أمضتها النساء من نفس العمر في المدرسة؟

أ: 9 سنوات

ب: 6 سنوات

ج: 3 سنوات

11. في العام 1996، أُدرِجت النمور، والباندات العملاقة، والخراتيت السوداء في قائمة الحيوانات المهدّدة بالانقراض. كم من هذه الأنواع الثلاثة اليوم مهدّد بشدّة بالانقراض؟

أ: اثنان منها

ب: واحد منها

ج: ولا واحد منها

1. ما نسبة الناس في العالم اليوم الذين لديهم وصول ما إلى الكهرباء؟

أ: 20 بالمائة

ب: 50 بالمائة

ج: 80 بالمائة

. يعتقد خبراء المناخ العالمي أنّ متوسّط درجة الحرارة، على مدى الـ100 سنة القادمة، سوف...

أ: يرتفع

ب: يبقى كما هو

ج: ينخفض

إليك الإجابات الصحيحة:

1:ج، 2:ب، 3:ج، 4:ج، 5:ج، 6:ب، 7:ج، 8:أ، 9:ج، 10:أ، 11:ج، 12:ج، 13:أ

سجِّل نقطة واحدة لكلّ إجابة صحيحة، واكتب نتيجتك الإجمالية على ورقة.

العلماء، وقرود الشمبانزي، وأنت

كيف كان أداؤك؟ هل كانت إجاباتك الخاطئة كثيرة؟ هل شعرت أنك قمت بكثير من التخمين؟ إذا كان الأمر كذلك، دعني أقول شيئَين لإراحتك.

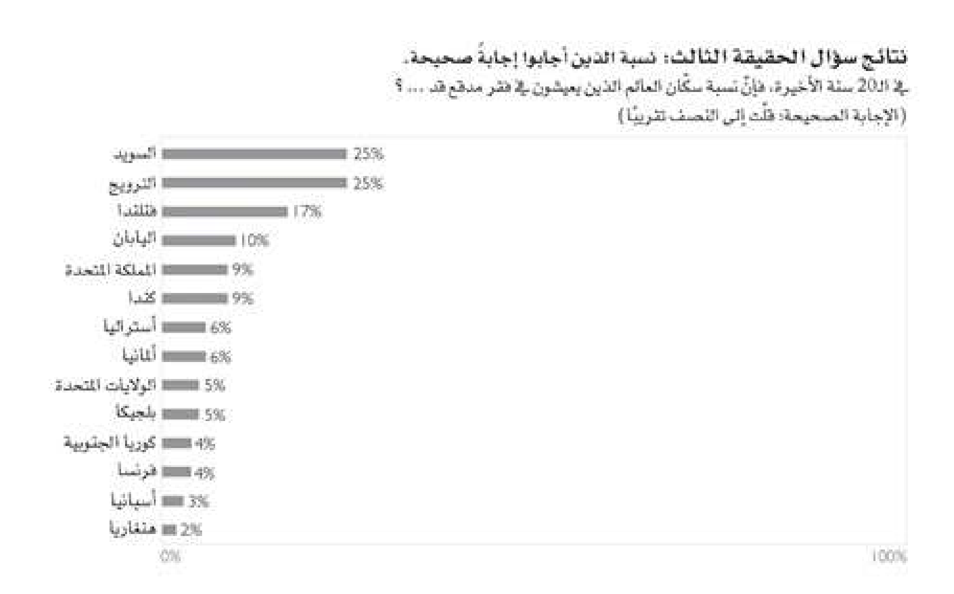
أوّلًا، عندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب، سيكون أداؤك أفضل بكثير. ليس هذا لأني سأكون قد جعلتك تجلس وتحفظ عن ظهر قلب سلسلة من الإحصاءات العالمية (أنا أستاذ صحة عالمية، ولكني لست مجنونًا). سيكون أداؤك أفضل لأني سأكون قد عرّفتك على مجموعة من أدوات التفكير البسيطة، التي ستساعدك

على رؤية الصورة الكبيرة بشكلٍ صحيح، وستزيد من حُسن فهمك للكيفية التي تجري بها الأمور في هذا العالم، دون أن تضطر إلى معرفة كلّ التفاصيل.

وثانيًا: إذا كان أداؤك سيّئًا في هذا الاختبار، فأنت في صحبة جيدة جدًّا.

طرحت على مدى العقود الماضية مئات من أسئلة الحقائق مثل تلك أعلاه، حول الفقر والغنى، والنموّ السكّاني، والولادات، والوفيّات، والتعليم، والصحة، والجنس (الذكور والإناث)، والعنف، والطاقة، والبيئة – الاتجاهات والأنماط العالمية الأساسية – على آلاف الناس عبر العالم. الاختبارات ليست معقّدة وليست هناك أسئلة خادعة. أنا حريص على أن أستخدم فقط الحقائق الموثّقة جيدًا والتي لا خلاف بشأنها. ومع ذلك، فإنّ أداء معظم الناس يكون سيّئًا للغاية.

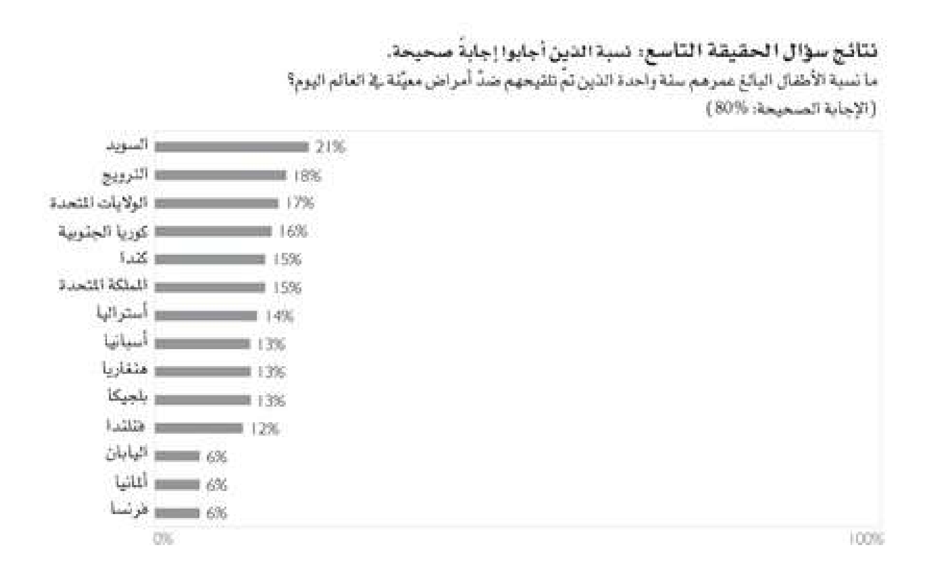
السؤال الثالث، على سبيل المثال، يتناول المنحى في مجال الفقر المدقع. خلال العشرين سنة الماضية، انخفضت نسبة سكّان العالم الذين يعيشون في فقر مدقع إلى النصف. هذا تغيُّر ثوري حتمًا، وأنا أعتبره التغيّر الأهمّ الذي حدث في العالم خلال حياتي، وهو أيضًا حقيقة أساسية جدًّا يجدر بنا معرفتها بشأن الحياة على الأرض. ولكنّ الناس لا يعرفونها. يُوفَّق ما معدّله 7 بالمائة فقط – أقلّ من واحد من عشرة! – إلى الإجابة الصحيحة.



(نعم، لقد تحدّثت كثيرًا في وسائل الإعلام السويدية عن انخفاض نسبة الفقر العالمي).

غالبًا ما يدّعي الديمقراطيون والجمهوريون في الولايات المتحدة بأنّ خصومهم لا يعرفون الحقائق. إذا قاسوا معرفتهم الخاصة بدلًا من توجيه الاتّهام إلى بعضهم البعض، فربّما يمكن للجميع أن يصبح أكثر تواضعًا. عندما أجرينا استطلاعًا في الولايات المتحدة، اختار 5 بالمائة فقط من الذين تمّ استفتاؤهم الإجابة الصحيحة. أمّا الـ95 بالمائة الآخرون، بغضّ النظر عن تفضيلهم الانتخابي، فقد اعتقدوا بأنّ معدّل الفقر المدقع لم يتغيّر على مدى الـ20 سنة الماضية، أو، الأسوأ من ذلك، أنه قد تضاعف فعليًّا؛ وهو بالحرف الواحد عكس ما حدث في الواقع.

دعنا نأخذ مثالًا آخر: السؤال التاسع المتعلّق بالتلقيح. جميع الأطفال تقريبًا ملقّحون في العالم اليوم. هذا مذهل. يعني هذا أنّ كلّ البشر تقريبًا الذين هم على قيد الحياة اليوم لديهم وصول ما إلى العناية الصحية الحديثة الأساسية. ولكنّ معظم الناس لا يعرفون ذلك. يُوفَّق ما معدّله 13 بالمائة فقط من الناس إلى الإجابة الصحيحة.



يجيب ستّة وثمانون بالمائة من الناس على السؤال الأخير المتعلّق بتغيّر المناخ إجابةً صحيحة. في جميع البلدان الغنيّة التي اختبرنا فيها المعرفة العامّة من

خلال استطلاعات الرأي على الإنترنت، يعرف معظم الناس أنّ خبراء المناخ يتنبّأون بطقس أكثر دفئًا. في بضعة عقود فقط، انتقلت نتائج الأبحاث العلمية من المختبر إلى عامّة الناس. تلك قصة نجاح كبيرة للوعي العام.

ولكن بمعزل عن تغيّر المناخ، إنها القصة نفسها للجهل الهائل (ولا أعني به الغباء، أو أي شيء متعمّد، وإنّما ببساطة الافتقار إلى المعرفة الصحيحة) في ما يتعلّق بكلّ الأسئلة الاثني عشر الأخرى. في العام 2017، طلبنا من نحو 12,000 شخص في 14 بلدًا أن يجيبوا على أسئلتنا. وقد أحرزوا ما معدّله إجابتان صحيحتان فقط من الأسئلة الـ12 الأولى. لم ينل أي أحد علامةً كاملة، وأحرز شخصٌ واحد فقط (من السويد) 11 إجابة صحيحة من أصل 12، بينما بلغت نسبة الذين لم يحرزوا أي إجابة صحيحة 15 بالمائة!

قد يتبادر إلى ذهنك أنّ الناس الأفضل تعليمًا أو الأكثر اهتمامًا بالقضايا سيكونون أفضل أداءً؟ كان هذا ظنّي بالتأكيد في ما مضى، ولكني كنت مخطئًا. لقد اختبرت جماهير من جميع أنحاء العالم ومن مختلف المهن والتخصّصات: طلاب طبّ، ومعلّمين، ومحاضرين جامعيّين، وعلماء بارزين، ومصرفيّين استثماريّين، ومديرين تنفيذيّين في شركات متعدّدة الجنسيات، وصحفيّين، وناشطين، وحتى صانعي قرارات سياسية. هؤلاء أناس على قدرٍ عالٍ من التعليم يهتمّون بقضايا العالم. ولكنّ معظمهم – بل على الأحرى غالبيّتهم – كانت أكثر إجاباته خاطئة. كما أنّ بعضًا من هذه المجموعات كانت نتيجته أسوأ حتى من عامّة الناس. بعض أكثر النتائج إرعابًا كانت في مجموعة من الحائزين على جائزة نوبل والباحثين الطبيّين. لا علاقة للمسألة بالذكاء. يبدو أنّ الجميع مخطئ بصورة مدمّرة في فهم العالم.

ليسوا مخطئين بصورة مدمّرة فحسب، بل أيضًا بصورة منهجية، وأعني بذلك أنّ نتائج الاختبار هذه ليست عشوائية. إنها أسوأ من عشوائية: إنها أسوأ من النتائج التي سأحصل عليها لو كان الناس الذين يجيبون على أسئلتي لا يمتلكون أي قدر من المعرفة.

تخيّل أني قرّرت أن أقصد حديقة الحيوان لأجرّب أسئلتي على قرود الشمبانزي. تخيّل أني أخذت معي ملء الذراعَين موزًا، وعلّمت كلًّا منها بحرف أ، أو ب، أو ج، ورميتها في حظيرة قرود الشمبانزي المسيّجة. ثمّ وقفت خارج الحظيرة، وقرأت كلّ سؤال بصوت عال وواضح، ودوّنت «إجابة» كلّ شمبانزي بملاحظة

الحرف على الموزة التي يختار كلّ شمبانزي أن يأكلها.

إذا قمت بهذا (وأنا لن أفعل ذلك أبدًا، ولكن تخيّل فقط)، فإنّ قرود الشمبانزي، باختيارها العشوائي، ستكون باستمرار أفضل أداءً من البشر ذوي التعليم الجيد ولكن المضلَّلين الذين يخضعون لاختباراتي. من خلال الحظّ وحده، سيحرز قطيع الشمبانزي ما نسبته 33 بالمائة في كلّ سؤال ذي ثلاث إجابات، أي أربع إجابات صحيحة من الأسئلة الـ12 الأولى في كامل الاختبار. تذكّر أنّ البشر الذين اختبرتهم أحرزوا ما معدّله إجابتان صحيحتان فقط من أصل 12 في الاختبار نفسه.

إضافةً إلى ذلك، فإنّ أخطاء قرود الشمبانزي ستُقسَم بالتساوي بين الإجابتَين الخاطئتَين، بينما من شأن أخطاء البشر أن تكون كلّها في اتجاه واحد. كلّ الناس الذين أطرح عليهم أسئلتي يظنّون أنّ العالم أكثر إرعابًا، وعنفًا، ويأسًا – باختصار، أكثر دراماتيكيةً – ممّا هو عليه واقعًا.

لماذا لا نتغلّب على قرود الشمبانزي؟

كيف يمكن للكثير جدًّا من الناس أن يكونوا مخطئين جدًّا بشأن الكثير جدًّا من الأمور؟ كيف يمكن حتى لغالبيّة الناس أن يحرزوا نتيجةً أسوأ من قرود الشمبانزي؟ أسوأ من الأداء العشوائي!

عندما لمحت لأوّل مرّة هذا الجهل الهائل، في أواسط تسعينيّات القرن الماضي، شعرت بالسرور. كنت قد بدأت لتوّي في تدريس مقرّر حول الصحة العالمية في معهد كارولنسكا في السويد وكنت متوتّرًا بعض الشيء. كان هؤلاء الطلّاب أذكياء جدًّا، ويُحتمَل أنهم يعرفون بالفعل كلّ ما أريد تدريسهم إياه! يا له من شعور مريح عندما اكتشفت أنّ ما يعرفه طلّابي عن العالم أقلّ ممّا تعرفه الشمبانزيّات.

ولكنّ اختباري لمزيد من الناس اقترن باكتشافي لمزيد من الجهل، ليس فقط بين طلّابي، بل في كلّ مكان. وجدت الناس مخطئين جدًّا بشأن العالم، وشعرت بالإحباط والقلق. عندما تستخدم نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) في سيارتك، من المهمّ أن تكون المعلومات التي يستخدمها صحيحة. لن تثق به إذا بدا أنه يجول بك عبر مدينة مختلفة عن تلك التي أنت فيها، لأنك ستعرف أنك لن تصل

في النهاية إلى المكان المطلوب. كيف يمكن إذن لصانعي السياسات والسياسيين أن يحلّوا المشاكل العالمية إذا كانوا يستندون في عملهم إلى حقائق خاطئة؟ كيف يمكن لرجال الأعمال أن يتّخذوا قرارات حكيمة بشأن منظّماتهم إذا كانت رؤيتهم للعالم مقلوبة؟ وكيف يمكن لأي شخص يدير أمور حياته أن يعرف القضايا التي يجدر به الاهتمام والقلق بشأنها؟

قرّرت أن أبدأ بالقيام بما هو أكثر من مجرّد اختبار المعرفة والكشف عن الجهل. قرّرت أن أحاول فهم السبب. لماذا كان هذا الجهل بالعالم منتشرًا إلى هذا الحدّ وثابتًا بهذا القدر؟ نحن جميعًا نخطئ أحيانًا؛ حتى أنا. سأعترف بذلك بسهولة؛ ولكن كيف يمكن للكثير جدًّا من الناس أن يكونوا مخطئين بشأن الكثير جدًّا من الأمور؟ لماذا يحرز الكثير جدًّا من الناس نتيجةً أسوأ من قرود الشمبانزي؟

أثناء عملي في وقتٍ متأخّر في إحدى الليالي في الجامعة، حظيت بلحظة يوريكا (وجدتها!). أدركت أنّ المشكلة لا يمكن أن تكون ببساطة أنّ الناس يفتقرون إلى المعرفة، لأنّ هذا سيؤدّي إلى إجابات خاطئة عشوائيًّا – إجابات قرود الشمبانزي – بدلًا من الإجابات الخاطئة منهجيًّا، التي هي أسوأ من الإجابات العشوائية، وأسوأ من إجابات الشمبانزي. وحدها «المعرفة» الخاطئة على نحوٍ فعّال يمكنها أن تجعلنا نحرز نتيجة سيئة للغاية.

آها! وجدتها! ما كنت أتعامل معه هنا – أو هذا ما ظننته لسنوات عديدة – كان مشكلة تحديث: فطلّابي الذين يدرسون الصحة العالمية، وكلّ الناس الآخرين الذين خضعوا لاختباراتي على مدى السنوات، قد امتلكوا المعرفة بالفعل، ولكنها كانت معرفة قديمة، بعمر عدّة عقود غالبًا. امتلك الناس نظرة للعالم ترجع للزمن الذي ترك فيه معلّموهم المدرسة.

وهكذا، من أجل استئصال الجهل، أو هذا ما خلصت إليه، احتجت إلى تحديث معرفة الناس. وللقيام بهذا، احتجت إلى تطوير موادّ تدريس أفضل تُظهر البيانات بطريقة أوضح. بعد أن أخبرت أُولا وآنا عن كفاحي أثناء عشاء عائلي، اهتمّ كلاهما بالأمر وشرعا في تطوير رسوم بيانية متحرّكة. سافرت عبر العالم بصحبة أدوات التدريس الرائعة هذه. ذهبت إلى أحاديث تيد في مونتيري، وبرلين، وكانْ، وإلى قاعات اجتماعات مجلس الإدارة في شركات متعددة الجنسيات مثل كوكا كولا وإيكيا، وإلى المصارف العالمية وصناديق التحوّط، وإلى وزارة الخارجية الأمريكية.

كنت متحمّسًا لاستخدام مخطّطاتنا المتحرّكة لأبيّن للجميع كيف تغيّر العالم. وجدت متعة هائلة في إخبار الجميع أنهم كانوا أباطرة بلا ملابس، وأنهم لا يعرفون شيئًا عن العالم. أردنا أن نثبّت النسخة المحدّثة للنظرة العالمية في كلّ شخص.

ولكننا أدركنا بالتدريج أنّ ثمّة شيئًا آخر يجري. فالجهل الذي استمررنا في إيجاده لم يكن مجرّد مشكلة تحديث. لم يكن بالإمكان إصلاحه ببساطة من خلال التزويد بمخطّطات بيانية أوضح أو أدوات تدريس أفضل. ما أدركته بحزن هو أنه حتى الناس الذين أحبّوا محاضراتي لم يكونوا فعليًّا يسمعونها. ربما ألهمتهم بالفعل، بشكلٍ مؤقّت، ولكنهم، بعد المحاضرة، بقوا عالقين في رؤيتهم العالمية السلبية القديمة. لم يكن للأفكار الجديدة تأثيرٌ عليهم. وحتى بعد محاضراتي مباشرةً، كنت أسمع الناس يعبّرون عن اعتقاداتهم حول الفقر أو النموّ السكّاني التي أثبتّ لتوّي خطأها بالحقائق. كدت أيأس.

لماذا كانت النظرة العالمية الدراماتيكية ثابتة إلى هذا الحدّ؟ هل يمكن إلقاء اللوم على وسائل الإعلام؟ لقد فكّرت بهذا طبعًا. ولكنه ليس الجواب. تلعب وسائل الإعلام دورًا بكلّ تأكيد، وسأناقش الموضوع لاحقًا، ولكن لا ينبغي أن نجعلها بمثابة الممثّل الشرير في مسرحية إيمائية. لا يمكننا فقط أن نصرخ مستنكرين ومستهجنين في وجه وسائل الإعلام.

اختبرت لحظة حاسمة في يناير من العام 2015، في المنتدى الاقتصادي العالمي في مدينة دافوس السويسرية الصغيرة والحديثة الطراز. اصطفّ ألفٌ من أكثر الناس نفوذًا وقوةً في العالم من القادة السياسيين، ورجال الأعمال، والمقاولين، والباحثين، والناشطين، والصحفيين، وحتى موظّفي الأمم المتحدة رفيعي المستوى ليأخذوا مقاعدهم في الدورة الرئيسية للمنتدى حول التنمية الاجتماعية والاقتصادية المستدامة، التي كنت أنا نجمها مع بيل غيتس وزوجته مليندا. مُلقِيًا نظرة فاحصة على القاعة أثناء صعودي إلى خشبة المسرح، لاحظت عدّة رؤساء دول وسكرتيرًا عامًّا سابقًا للأمم المتحدة. رأيت رؤساء لمنظّمات تابعة للأمم المتحدة، وقادة لشركات كبرى متعدّدة الجنسيّات، وصحفيين تلفزيونيين معروفين.

كنت على وشك أن أطرح على الجمهور ثلاثة أسئلة حقائق – عن الفقر، والنموّ السكّاني، ومعدّلات التلقيح – وكنت متوتّرًا إلى حدٍّ ما. إذا عرف جمهوري

بالفعل أجوبة أسئلتي، فلن يكون هناك مغزى لأيٍّ من شرائحي المتبقيّة، التي تكشف بتباهٍ عن مدى خطئهم، وعن الأجوبة التي كان ينبغي عليهم اختيارها.

ما كان ينبغي عليّ أن أقلق. فهذا الجمهور الدُّولي الرفيع المستوى الذي سيمضي أفراده الأيام القليلة القادمة وهم يشرحون العالم بعضهم لبعض قد عرف بالفعل أكثر من عامّة الناس في ما يتعلّق بالفقر. استطاع 61 بالمائة منهم أن يجيبوا إجابة صحيحة، وهي نسبة مدهشة. ولكن في ما يتعلّق بالسؤالَين الآخرَين، حول النموّ السكّاني وتوفّر الرعاية الصحية الأوّلية الأساسية في المستقبل، كان أداؤهم لا يزال أسوأ من قرود الشمبانزي. تواجد هنا أشخاصٌ امتلكوا وصولًا إلى أحدث البيانات والمستشارين الذين يمكنهم تزويدهم بآخر المعلومات باستمرار. لا يمكن أن يكون جهلهم ناشئًا عن نظرة عالمية قديمة. ومع ذلك، كانت معرفتهم بالحقائق الأساسية للعالم خاطئة.

بعد دافوس، تبلورت الأمور.

غرائزنا الدراماتيكية والنظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط

وهكذا ظهر هذا الكتاب، الذي يخبرك بالاستنتاجات التي توصّلتُ إليها أخيرًا، استنادًا إلى سنوات من محاولة الوصول إلى نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة، والاستماع إلى الناس وهم يسيئون تفسير الحقائق حتى عندما تكون مباشرة أمام أعينهم. ترتبط استنتاجاتي بالسؤال التالي: لماذا يحرز العديد جدًّا من الناس، سواء أكانوا أفرادًا عاديين أو خبراء أذكياء جدًّا على مستوىً عالٍ من التعليم، نتيجةً أسوأ من قرود الشمبانزي في أسئلة الحقائق المتعلّقة بالعالم؟ (وسأخبرك أيضًا ما يمكنك أن تفعل بهذا الشأن). باختصار:

فكّر بشأن العالم. الحرب، والعنف، والكوارث الطبيعية، والكوارث التي يسبّبها الإنسان، والفساد. الأمور سيئة، ويبدو أنها تزداد سوءًا، صحيح؟ الأثرياء يزدادون ثراءً والفقراء يزدادون فقرًا، وعدد الفقراء آخذٌ في الازدياد، وقريبًا ستنضب مواردنا ما لم نقم بفعلٍ حازم. على الأقلّ تلك هي الصورة التي يراها معظم الغربيين في وسائل الإعلام ويحملونها في رؤوسهم. أنا أدعوها النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط. إنها مُجهِدة ومضلِّلة.

في الواقع، تعيش الغالبية العظمى من سكّان العالم بدخلٍ يقع في مكانٍ ما

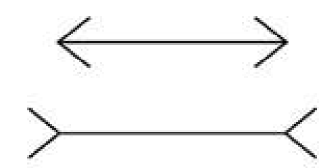
في منتصف مقياس الدخل. ربما هم ليسو من الطبقة الوسطى المتصوَّرة في أذهاننا، ولكنهم لا يعيشون في فقر مدقع. فبناتهم يذهبن إلى المدرسة، وأطفالهم يُلَقّحون، وهم يعيشون في عوائل من طفلَين، وبإمكانهم السفر إلى خارج البلاد في أيام العطلات، ولكن ليس كلاجئين. تدريجيًّا، سنة بعد سنة، العالم يتحسّن. ليس في كلّ شيء ولا في كلّ سنة، ولكن كقاعدة. رغم أنّ العالم يواجه تحدّيات ضخمة، إلّا أننا قد حقّقنا تقدُّمًا هائلًا. هذه هي النظرة العالمية المستندة إلى الحقيقة.

إنها النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط التي تشدّ الناس إلى اختيار الإجابات الأكثر دراماتيكية وسلبية على أسئلتي الحقائقية. يرجع الناس بشكلٍ ثابت وحدسي إلى نظرتهم العالمية عندما يفكّرون، أو يخمّنون، أو يتعلّمون أمورًا ترتبط بالعالم حولهم. ولهذا إذا كانت نظرتك العالمية خاطئة، فستقوم منهجيًّا بتخمينات خاطئة. ولكن هذه النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط ليست ناشئة ببساطة عن معرفتنا القديمة، كما ظننت في ما مضى. فحتى الناس الذين لديهم وصول إلى أحدث المعلومات يخطئون في فهم العالم. وأنا مقتنع أنه ليس خطأ وسائل الإعلام الماكرة، أو الدعايات، أو الأخبار الزائفة، أو الحقائق الخاطئة.

قادتني خبرتي أخيرًا، على مدى عقود من المحاضرات، والاختبارات، والاستماع إلى الطرق التي يسيء بها الناس تفسير الحقائق حتى عندما تكون مباشرةً أمام أعينهم، إلى رؤية صعوبة تغيير النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط لأنها ناتجة عن الطريقة التي تعمل بها أدمغتنا.

أوهام بصرية وأوهام عالمية

أنظر إلى الخطَّين الأفقيَّين أدناه. أيهما أطول؟



يُحتمَل أنك قد رأيت هذا الاختبار من قبل. يبدو الخطّ السفلي أطول من الخطّ العلوي. أنت تعرف أنه ليس أطول، ولكن حتى مع معرفتك بذلك، وحتى إذا

قِست الخطّين بنفسك وتأكّدت أنهما متساويان في الطول، ستستمرّ في رؤيتهما مختلفَين في الطول.

تشتمل نظاراتي على عدسة خاصة لتصحيح مشكلة البصر لديّ. ولكن عندما أنظر إلى هذا الوهم البصري، أجد أني أسيء تفسير ما أراه، تمامًا مثل أي شخص آخر. وهذا لأنّ الأوهام لا تحدث في أعيننا، بل في أدمغتنا. إنها تفسيرات خاطئة منهجية، لا ترتبط بمشكلات بصرية فردية. معرفتك بأنّ معظم الناس مَوهومُون تعني أنه لا داعي لأن تشعر بالإحراج. بدلًا من ذلك، يمكنك أن تكون فضوليًّا: كيف يعمل الوهم؟

وعلى نحوٍ مماثل، يمكنك أن تلقي نظرة على النتائج من استطلاعات الرأي العام وتتغاضى عن كونك محرجًا. كن فضوليًّا. كيف يعمل هذا «الوهم العالمي»؟ لماذا تسيء أدمغة عدد كبير جدًّا من الناس تفسير حالة العالم منهجيًّا؟

الدماغ البشري معقّد جدًّا، ونحن مزوَّدون فطريًّا بغرائز ساعدت أسلافنا على البقاء في مجموعات صغيرة من الصيادين والحاصدين. غالبًا ما تقفز أدمغتنا إلى الاستنتاجات السريعة بدون كثير من التفكير، وهو ما ساعدنا على تجنّب الأخطار الوشيكة. نحن نهتمّ بالقيل والقال والقصص الدراماتيكية، التي كانت دومًا المصدر الوحيد للأخبار والمعلومات المفيدة. نحن نتوق إلى السكّر والدهن، اللّذَين كانا على الدوام مصدرَين للطاقة لا غنى عنهما عند ندرة الطعام. لدينا الكثير من الغرائز التي كانت مفيدة قبل آلاف السنين، ولكننا اليوم نعيش في عالم مختلف جدًّا.

إنّ توقنا للسكّر والدهن يجعل البدانة واحدةً من أكبر المشاكل الصحية في العالم اليوم. علينا أن نعلِّم أطفالنا، وأنفسنا، تجنُّب الحلويات والرقائق. وبالطريقة نفسها، فإنّ أدمغتنا السريعة التفكير وتوقنا إلى الدراما – غرائزنا الدراماتيكية – يتسبّبان في مفاهيم خاطئة ونظرة عالمية دراماتيكية بإفراط.

لا تسيء فهمي. نحن لا نزال بحاجة إلى هذه الغرائز الدراماتيكية لإعطاء معنى إلى عالمنا ومساعدتنا على اجتياز اليوم. إذا محصّنا كلّ مُدخَل وحلّلنا كلّ قرار بشكلٍ عقلاني، ستصبح الحياة الطبيعية مستحيلة. لا ينبغي أن نتوقّف عن تناول كلّ السكّر والدهن، ولا ينبغي أن نطلب من الجرّاح أن يزيل أجزاء دماغنا التي تعالج

الانفعالات. ولكن علينا أن نتعلّم السيطرة على مأخوذنا من الدراما. إذا خرجت عن السيطرة، فإنّ شهيّتنا إلى الدراما ستتجاوز الحدود، وتمنعنا من رؤية العالم كما هو، وتضلّنا إلى حدٍّ بعيد.

الإلمام بالحقيقة والنظرة العالمية المستندة إلى الحقيقة

هذا الكتاب هو معركتي الأخيرة فعلًا في مهمّتي المستمرّة طوال حياتي لمكافحة الجهل العالمي المدمِّر. إنه محاولتي الأخيرة لإحداث تأثير على العالم: تغيير طريقة الناس في التفكير، وتهدئة مخاوفهم اللّاعقلانية، وإعادة توجيه طاقاتهم إلى النشاطات البنّاءة. في معاركي السابقة، سلّحت نفسي بمجموعات ضخمة من البيانات، وبرمجيّات كاشفة للحقائق، وأسلوب حيوي في إلقاء المحاضرات، وبحربة سويدية. لم يكن هذا كافيًا. ولكني آمل أن يكون هذا الكتاب كذلك.

هذه بيانات كما لم تعرفها أبدًا: إنها بيانات كعلاج. إنه الفهم كمصدر للسلام العقلي. فالعالم ليس دراماتيكيًّا إلى هذه الدرجة التي يبدو بها.

يمكن للإلمام بالحقيقة، كحمية صحية وتمرين منتظم، أن يصبح جزءًا من حياتنا اليومية، بل ينبغي أن يكون كذلك. ابدأ في ممارسته، وستتمكّن من استبدال نظرتك العالمية الدراماتيكية بإفراط بأخرى تستند إلى الحقيقة. ستتمكّن من فهم العالم بشكلٍ صحيح بدون أن تحفظه عن ظهر قلب. ستتّخذ قرارات أفضل، وتبقى متيقّظًا للأخطار الحقيقية والإمكانيّات، وتتجنّب كونك مُجهَدًا باستمرار بشأن الأشياء الخاطئة.

سأعلّمك كيف تميّز القصص الدراماتيكية بإفراط وأعطيك بعض أدوات التفكير للتحكّم بغرائزك الدراماتيكية. ستتمكّن حينها من تغيير مفاهيمك الخاطئة، وتطوير نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة، والتغلّب على قرود الشمبانزي في كلّ مرّة.

عودة إلى السيرك

أعمد أحيانًا إلى ابتلاع السيوف في نهاية محاضراتي لأوضِّح بطريقة عملية أن ما يبدو مستحيلًا هو في الحقيقة ممكن. قبل أدائي السيركي هذا، أكون قد اختبرت المعرفة الحقائقية لجمهوري بشأن العالم، وبيّنت لهم أنّ العالم مختلف تمامًا عمّا

في أذهانهم. وأكون قد برهنت لهم أنّ العديد من التغييرات التي يظنّون أنها لن تحدث أبدًا قد حدثت بالفعل. وأكون قد كافحت لإيقاظ فضولهم بشأن ما هو ممكن، الذي هو مختلف تمامًا عمّا يعتقدونه، وعمّا يرونه في الأخبار كلّ يوم.

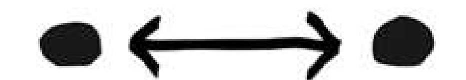
أنا أبتلع السيف لأني أريد من الجمهور أن يدرك كم يمكن أن يكون حدسه خاطئًا. أريدهم أن يدركوا أنّ ما أريتهم إياه – ابتلاع السيف وما سبقه من عرض لحقائق العالم - صحيحٌ بالفعل، مهما كان متناقضًا مع أفكارهم المسبقة، ومهما بدا مستحيلًا.

أريد من الناس، عندما يدركون أنهم كانوا مخطئين بشأن العالم، أن لا يشعروا بالإحراج، بل بحسّ طفولي من الدهش، والإلهام، والفضول لا أزال أذكره من السيرك، ولا يزال يكتنفني في كلّ مرّة أكتشف فيها أني كنت مخطئًا: «جبًا، كيف يمكن حتى أن يكون هذا ممكنًا؟».

هذا كتابٌ عن العالم وكيف هو حقيقةً. إنه أيضًا كتابٌ عنك: لماذا لا ترى (أنت وكلّ من التقيته تقريبًا) العالم كما هو حقيقةً، وماذا يمكنك أن تفعل بهذا الشأن، وكيف سيجعلك هذا تشعر بأنك أكثر إيجابية، وأقلّ إجهادًا، وأكثر أملًا عندما تخرج من خيمة السيرك وتعود إلى العالم.

إن كنت إذن أكثر اهتمامًا بأن تكون مُحقًّا من أن تستمرّ بالعيش في فقّاعتك، وإذا كنت عازمًا على تغيير نظرتك العالمية، وإذا كنت مستعدًّا لأن تستبدل ردّ الفعل الغريزي بالتفكير الانتقادي، وإذا كنت تشعر بالتواضع، والفضول، والاستعداد للانذهال، فتابع القراءة رجاءً.

الفصل الأوّل
غريزة الفجوة



الإمساك بوحش في حجرة درس باستخدام ورقة فقط

أين بدأ كلّ هذا؟

كان ذلك في أكتوبر من العام 1995 ولم أكن أعرف أنه بعد محاضرتي في ذلك المساء سأبدأ معركتي المستمرّة طوال حياتي ضدّ المفاهيم العالمية الخاطئة.

«ما هو معدّل وفيّات الأطفال في المملكة العربية السعودية؟ لا ترفعوا أيديكم. أجيبوا فقط بصوت عال». كنت قد وزّعت نُسخًا للجدولَين 1 و5 من الكتاب السنوي لليونيسف. بدت النشرات رتيبة، ولكني كنت متحمّسًا.

صرخت مجموعة من الطلاب بصوت واحد: «خمسة وثلاثون».

«نعم. خمسة وثلاثون. صحيح. يعني هذا أنّ 35 طفلًا يموتون قبل عيد ميلادهم الخامس من كلّ ألف مولود حيّ. أعطوني الرقم الآن لماليزيا؟»

جاء الجواب بصوت واحد: «أربعة عشر».

بينما كانت الأرقام تُلقَى على مسامعي، كنت أخربش عليها بقلم أخضر على شريحة بلاستيكية رقيقة على جهاز العرض العلوي.

كرّرت قائلًا: «أربعة عشر. أقلّ من ذاك للملكة العربية السعودية».

أربكني عسري في القراءة والكتابة قليلًا وكتبت «Malaisya (بدلًا من Malaysia)»، وضحك الطلاب.

«البرازيل؟»

«خمسة وخمسون».

«تانزانيا؟»

«مئة وواحد وسبعون».

وضعت القلم جانبًا وقلت: «هل تعلمون سبب هوسي بأرقام معدّلات وفيّات الأطفال؟ ليس الأمر فقط أني أهتمّ بالأطفال. هذا المقياس يقيس درجة الحرارة للمجتمع بأكمله، مثل ميزان حرارة ضخم. بسبب هشاشة الأطفال، هناك الكثير من الأشياء التي يمكنها أن تقتلهم. عندما يموت 14 طفلًا فقط من كلّ 1,000 طفل في ماليزيا، فهذا يعني أنّ عدد الباقين على قيد الحياة هو 986 طفلًا. يتدبّر آباؤهم ومجتمعهم أمر حمايتهم من كلّ الأخطار التي يمكنها أن تقتلهم: الجراثيم، والمجاعة، والعنف، وما إلى ذلك. إذن يخبرنا الرقم 14 هذا أنّ معظم العائلات في ماليزيا تملك الغذاء الكافي، وأنّ أنظمة التصريف لا تسمح بتسرُّب مياه المجارير إلى مياه الشرب، وأنهم يحظون بوصول جيد إلى العناية الصحية الأوّلية، والأمهات يستطعن القراءة والكتابة. لا يخبرنا الرقم فقط عن صحة الأطفال. إنه يقيس نوعية المجتمع بأكمله.

تابعت قائلًا: «ما يثير الاهتمام هنا ليس الأرقام، وإنّما ما تخبرنا به عن حياة الناس. انظر إلى مدى اختلاف هذه الأرقام: 14، و35، و55، و171. لا بدّ أنّ الحياة في هذه البلدان مختلفة للغاية».

التقطت القلم. «أخبروني كيف كانت الحياة في المملكة العربية السعودية قبل 35 سنة؟ ما عدد الأطفال الذين ماتوا في العام 1960؟ أنظروا في العمود الثاني».

«مئتان... واثنان وأربعون».

انخفض صوت الطلاب وهم يلفظون العدد الكبير: 242.

«نعم. هذا صحيح. حقّق مجتمع المملكة العربية السعودية تقدّمًا مذهلًا، أليس كذلك؟ انخفض عدد وفيّات الأطفال لكلّ ألف طفل من 242 إلى 35 خلال 33 سنة فقط. هذا أسرع بكثير ممّا في السويد. استغرق الأمر منّا 77 سنة لتحقيق التحسّن نفسه.

«ماذا عن ماليزيا؟ أربعة عشر اليوم. ما كان الرقم في 1960؟»

غمغم الطلاب: «ثلاثة وتسعون». كان الطلاب جميعهم قد بدأوا يبحثون في جداولهم، مُربَكين ومشوَّشين. قبل ذلك بسنة، كنت قد أعطيت طلّابي الأمثلة نفسها، ولكن بدون جداول بيانية تدعمها، وقد رفضوا ببساطة أن يصدّقوا ما أخبرتهم به عن التحسّنات في مختلف أنحاء العالم. والآن، مع كلّ الأدلّة مباشرةً أمام أعينهم، كان طلّاب هذه السنة بدلًا من ذلك يجيلون أبصارهم أعلى وأسفل الأعمدة، ليروا إن كنت قد انتقيت بلدانًا استثنائية وحاولت أن أغشّهم. لم يستطيعوا أن يصدّقوا الصورة التي رأوها في البيانات. لم تشبه بأي شكلٍ من الأشكال صورة العالم المرسومة في أذهانهم.

قلت: «تمامًا كما بتّم تعرفون، لن تجدوا أي بلد ازدادت فيه وفيّات الأطفال. لأنّ العالم يتحسّن بشكلٍ عام. لنأخذ استراحة قصيرة لشرب القهوة».

المفهوم الخاطئ الكبير بأنّ «العالم مُنقسِمٌ إلى قسمَين»

يتناول هذا الفصل أولى غرائزنا الدراماتيكية العشر، ألا وهي غريزة الفجوة. أتكلّم هنا عن ذلك الإغراء الذي لا يُقاوم الذي يدفعنا إلى تقسيم كلّ أنواع الأشياء إلى مجموعتَين متمايزتَين ومتضاربتَين غالبًا، مع فجوة مُتخيَّلة – هوّة ضخمة من الظلم – بينهما. ويشرح كيف تخلق غريزة الفجوة صورةً في عقول الناس لعالم مُنقسِم إلى نوعَين من البلدان أو نوعَين من الناس: الأغنياء مقابل الفقراء.

ليس من السهل العثور على مفهوم خاطئ. كان مساءُ أكتوبر ذاك في العام المرّةَ الأولى التي ظفرت فيها بنظرة صحيحة إلى الوحش. حدث ذلك بعد استراحة شرب القهوة مباشرةً، وكانت التجربة مثيرة جدًّا بحيث أني لم أتوقّف أبدًا عن اصطياد المفاهيم الخاطئة الكبيرة منذ ذلك الحين.

أنا أدعوها المفاهيم الخاطئة الكبيرة لأنها ذات تأثير هائل على الطريقة التي يسيء بها الناس فهم العالم. هذا الأوّل هو الأسوأ. بتقسيم العالم إلى صندوقَين

مُضلِّلَين – الفقير والغني – تتشوّه كلّ النسب العالمية في عقول الناس بشكلٍ كامل.

اصطياد المفهوم الخاطئ الكبير الأوّل

مبتدئًا المحاضرة مرّة أخرى، شرحت أنّ معدّل وفيّات الأطفال يصل إلى ذروته في المجتمعات القبلية في الغابات المطيرة، وبين المزارعين التقليديين في المناطق الريفية النائية في جميع أنحاء العالم. «الناس الذين ترونهم في الوثائقيّات المدهشة على التلفاز. يكافح هؤلاء الآباء جاهدين أكثر من أي أحدٍ آخر من أجل حياة أُسَرهم، ومع ذلك يسلبهم الموت أكثر من نصف أطفالهم. لحسن الحظّ أنّ عدد الناس المضطرين للعيش في مثل هذه الظروف الرهيبة آخذٌ في التناقص».

رفع طالبٌ شابّ في الصفّ الأوّل يده. أومأ برأسه وقال: «لا يمكنهم أبدًا أن يعيشوا مثلنا». أومأ بقية الطلّاب في جميع أنحاء القاعة برؤوسهم دعمًا لقوله.

ربما ظنّ أني سأتفاجأ. ولكني لم أفعل على الإطلاق. كان تصريحه من نفس نوع تصريحات «الفجوة» تلك التي سمعتها من قبل لمرّات عديدة. لم أكن متفاجئًا. كنت مبتهجًا. كان هذا ما رجوته. دار الحوار بيننا كالتالي:

أنا: عفوًا، ماذا تعني عندما تقول «هم»؟

هو: أعني الناس في البلاد الأخرى.

أنا: جميع البلدان غير السويد؟

هو: لا. أعني... البلاد غير الغربية. لا يمكنهم أن يعيشوا مثلنا. لن ينجح الأمر.

أنا: آها! (كما لو أني قد فهمت الآن). تعني مثل اليابان؟

هو: لا، ليس اليابان. لديهم أسلوب حياة غربي.

أنا: ماذا إذن عن ماليزيا؟ ليس لديهم «أسلوب حياة غربي»، صحيح؟

هو: لا. ماليزيا ليست غربية. كلّ البلدان التي لم تتبنّ الأسلوب الغربي بعد. لا يمكنهم. أنت تعرف ماذا أعني.

أنا: لا، لا أعرف ماذا تعني. أرجوك أن تشرح. أنت تتكلّم عن «الغرب»

و«البقية». صحيح؟

هو: نعم. بالضبط.

أنا: هل المكسيك... «غربية»؟

نظر إليّ فقط.

لم أقصد أن أنتقده بهذا الشكل المزعج، ولكني تابعت، متحمّسًا لأرى أين سيقودنا هذا. هل كانت المكسيك «غربية» وهل يمكن للمكسيكيين أن يعيشوا مثلنا؟ أو هل كانت من «البقية» ولا يمكنهم ذلك؟ قلت: «أنا مُشوَّش. لقد بدأتَ بـ ‹هم ونحن› ومن ثمّ غيّرت ذلك إلى ‹الغرب والبقية›. يهمّني جدًّا أن أفهم ماذا تعني. لقد سمعت هذه النعوت تُستخدَم مرّات عديدة، ولكني صدقًا لم أفهمها أبدًا».

والآن سارعت شابة في الصفّ الثالث من الحضور إلى نجدته. قبلتْ التحدّي، ولكن بطريقة فاجأتني تمامًا. أشارت إلى الورقة الكبيرة أمامها وقالت: «ربما يمكننا أن نعرِّف الأمر هكذا: ‹نحن في الغرب› لدينا أطفالٌ أقلّ وقليل من الأطفال يموتون. بينما ‹هم في بقية العالم› لديهم الكثير من الأطفال والكثير من الأطفال يموتون». كانت تحاول أن تحلّ التضارب بين توجّهه العقلي وبين مجموعة بياناتي – بطريقة مبدعة حقًّا – باقتراح تعريف لكيفية تقسيم العالم. أسعدني هذا للغاية، لأنها كانت مخطئة تمامًا – كما كانت ستدرك قريبًا – والأهمّ من ذلك أنها كانت مخطئة بطريقة ملموسة يمكنني اختبارها.

«ظيم. رائع. رائع». أمسكت بقلمي وشرعت في العمل. «لنرى إن كان بإمكاننا أن نضع البلدان في مجموعتَين استنادًا إلى عدد الأطفال فيها وعدد الأطفال الذين يموتون».

أصبحت الوجوه المتشكِّكة فضوليّة الآن، محاولة أن تكتشف ما الذي أسعدني إلى هذا الحدّ.

أحببت التعريف لأنه كان واضحًا جدًّا. يمكننا أن نتحقّق منه بالرجوع إلى البيانات. إذا أردت أن تقنع أحدهم بأنه يعاني من مفهوم خاطئ، فمن المفيد جدًّا أن تكون قادرًا على اختبار رأيه بالرجوع إلى البيانات. وكان هذا ما فعلته بالضبط.

وقد دأبت على فِعل ذلك لبقية حياتي المهنية. كانت آلة التصوير الرمادية الكبيرة، التي استخدمتها لتصوير جداول البيانات الأصلية تلك، شريكي الأوّل في معركتي ضدّ المفاهيم الخاطئة. في العام 1998، أصبح لدي شريك جديد؛ آلة طابعة ملوّنة أتاحت لي أن أعرض على طلّابي رسمًا فقّاعيًّا ملوّنًا للبيانات القطرية. ثمّ اكتسبت أوّل شريكَين بشريَّين، وتحسّنت الأمور حقًّا. أثارت هذه المخطّطات مع فكرتي لاصطياد المفاهيم الخاطئة حماسة آنا وأُولا إلى حدٍّ كبير بحيث أنهما انضمّا إلى قضيّتي، وابتكرا مصادفةً طريقة ثورية لعرض مئات من اتجاهات البيانات كمخطّطات فقّاعية متحرّكة. أصبح المخطّط الفقّاعي سلاحنا المختار في معركتنا لهدم المفهوم الخاطئ بأنّ «العالم مُنقسِم إلى قِسمَين».

ما الخطأ في هذه الصورة؟

تحدّث طلّابي عن «هم» و«نحن». ويتحدّث آخرون عن «العالم النامي» و«العالم المتقدِّم». يُرجَّح أنك أيضًا تستخدم هذه النعوت. ما الخطأ في ذلك؟ الصحفيون، والسياسيون، والناشطون، والمعلّمون، والباحثون يستخدمونها طوال الوقت.

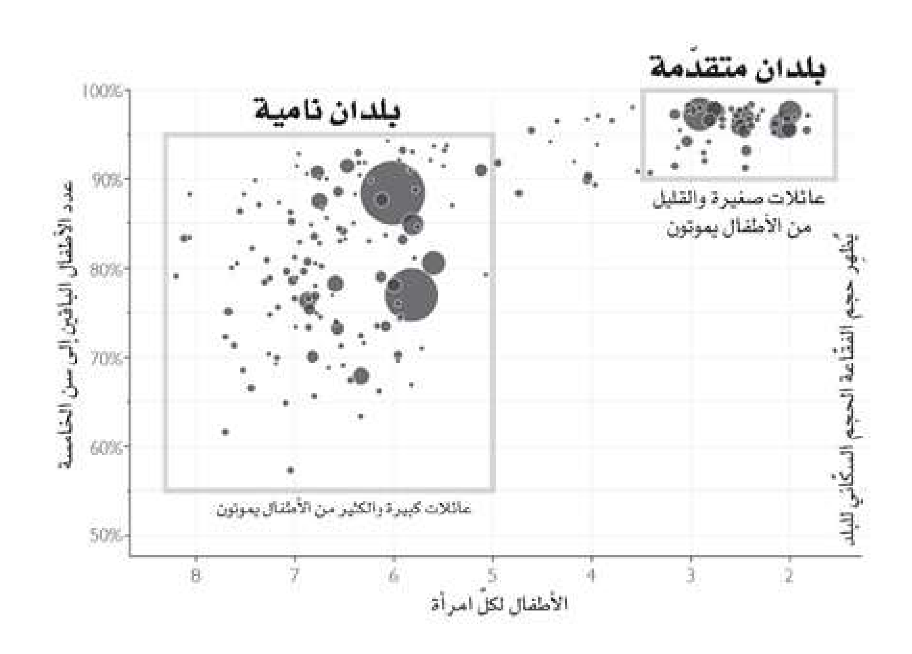
عندما يستخدم الناس نعوتًا مثل «نامٍ» و«متقدِّم»، فإنّ ما يفكّرون به على الأرجح هو «البلدان الفقيرة» و«البلدان الغنيّة». غالبًا ما أسمع أيضًا كلمات مثل «الغرب/البقية»، و«الشمال/الجنوب»، و«الدخل المنخفض/الدخل المرتفع». أيًّا كان، لا يهمّ حقًّا أي مصطلح يستخدمه الناس لوصف العالم، طالما أنّ الكلمات تُحدِث صورًا ملائمة في رؤوسهم وتعني شيئًا له أساس في الواقع. ولكن ما هي الصور التي تكون في رؤوسهم عندما يستخدمون هذَين المصطلحَين البسيطَين؟ وكيف تتشابه أو تختلف هذه الصور مع الواقع؟

دعنا نتحقّق بالرجوع إلى البيانات. يُظهِر المخطّط على الصفحة التالية معدّل عدد الأطفال لكلّ إمرأة ومعدّل بقاء الأطفال لكلّ البلدان.

تمثّل كلّ فقّاعة على المخطّط بلدًا، حيث يُظهِر حجم الفقّاعة الحجم السكّاني للبلد. أكبر فقّاعتَين هما الهند والصين. تقع على يسار المخطّط البلدان التي تنجب فيها النساء عددًا كبيرًا من الأطفال، وعلى اليمين البلدان التي تنجب فيها النساء عددًا قليلًا من الأطفال. كلّما كان البلد في مكان أعلى على المخطّط، كان معدّل بقاء الأطفال في ذلك البلد أفضل. هذا المخطّط هو بالضبط ما اقترحته

طالبتي في الصفّ الثالث من الحضور كطريقة لتعريف المجموعتَين: «نحن وهم» أو «الغرب والبقية». صنّفتُ المجموعتَين هنا تحت عنوان «بلدان نامية» و«بلدان متقدِّمة».

أنظر كيف تقع بلدان العالم بشكلٍ لطيف في الصندوقَين: بلدان نامية وبلدان متقدّمة. هناك فجوة واضحة بين الصندوقَين، تضمّ 15 بلدًا صغيرًا فقط (بما فيها كوبا، وإيرلندا، وسنغافورة) حيث يعيش ما نسبته 2 بالمائة فقط من سكّان العالم. في الصندوق المعنوَن «بلدان نامية»، هناك 125 فقّاعة، من ضمنها الصين والهند. في جميع هذه البلدان تنجب النساء ما معدّله أكثر

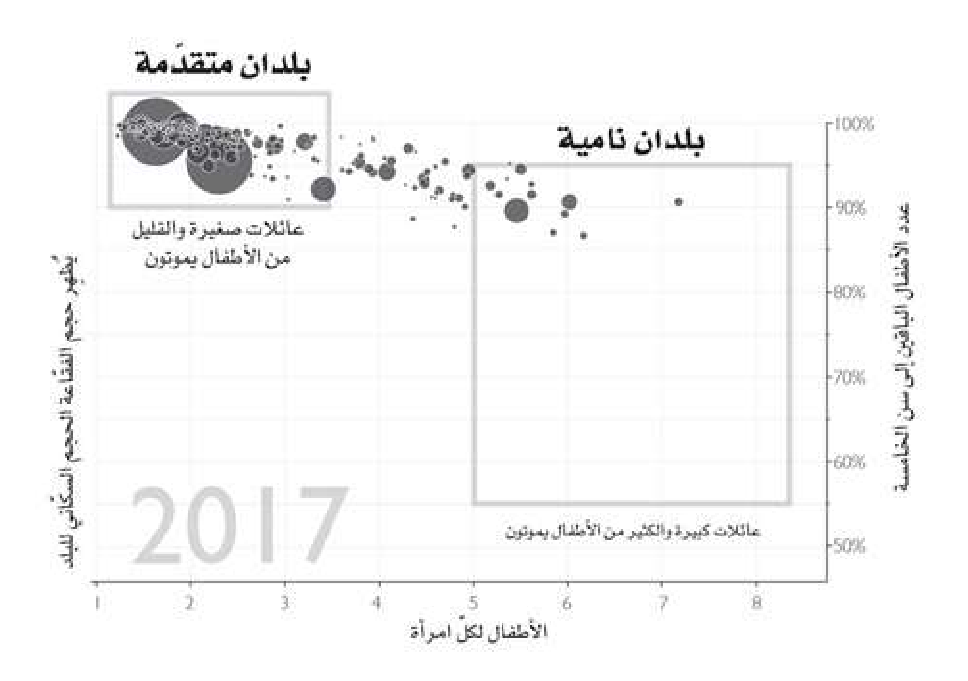


من خمسة أطفال، ووفيّات الأطفال شائعة: أقلّ من 95 بالمائة من الأطفال يبقون على قيد الحياة، ما يعني أنّ أكثر من 5 بالمائة من الأطفال يموتون قبل بلوغهم سنّ الخامسة. في الصندوق الآخر المعنوَن «بلدان متقدّمة»، هناك 44 فقّاعة، من ضمنها الولايات المتحدة ومعظم أوروبا. في جميع هذه البلدان يبلغ متوسط عدد الأطفال لكلّ امرأة أقلّ من 3.5 طفل، ويتجاوز معدّل بقاء الأطفال الـ90 بالمائة.

ينتمي العالم إلى صندوقَين. وهذان هما بالضبط الصندوقان اللذان تخيلتهما

الطالبة في الصفّ الثالث من الحضور. تُظهِر هذه الصورة بوضوح عالماً مُنقسِمًا إلى مجموعتَين، مع فجوة في الوسط. جميل جدًّا. يا له من عالم بسيط يسهل فهمه! ما المشكلة إذن؟ لماذا نكون مخطئين جدًّا عندما نصف البلدان بأنها «نامية» و«متقدِّمة»؟ لماذا انتقدت طالبي الذي أشار إلى «نحن وهم» بهذا الشكل المزعج؟

لأنّ هذه الصورة تُظهِر العالم في العام 1965! عندما كنت شابًّا صغيرًا.



هذه هي المشكلة. هل ستستخدم خريطة من العام 1965 لتجول في أنحاء بلدك؟ هل ستكون سعيدًا إذا استخدم طبيبك بحثًا رائدًا من العام 1965 ليقترح تشخيصك وعلاجك؟ تُظهِر الصورة أدناه ما يبدو عليه العالم اليوم.

لقد تغيّر العالم كليًّا. العائلات اليوم صغيرة ووفيّات الأطفال نادرة في الغالبية العظمى من البلدان، بما فيها أكبر بلدَين سكّانًا: الصين والهند. أنظر إلى الزاوية اليسرى السفلية. الصندوق خالٍ تقريبًا. تتّجه جميع البلدان اليوم إلى الصندوق الصغير المتّسم بقلّة عدد الأطفال وارتفاع نسبة البقاء. معظم البلدان هي هناك بالفعل. ينتمي 85 بالمائة من الناس اليوم إلى الصندوق الذي اعتيد على تسميته بـ»العالم المتقدّم». أمّا نسبة الـ15 بالمائة المتبقيّة فتقع في الأغلب بين

الصندوقَين. هناك 13 بلدًا فقط، تمثّل 6 بالمائة من سكّان العالم، لا تزال داخل صندوق «البلدان النامية». ولكن في حين أنّ العالم قد تغيّر، إلّا أنّ النظرة العالمية لم تفعل، على الأقلّ في رؤوس «الغربيين». معظمنا عالق بفكرة قديمة كليًّا بشأن سائر العالم.

هذا التغيُّر العالمي الكامل الذي بيّنته لتوّي لا يقتصر فقط على معدّل حجم الأسر ومعدّل بقاء الأطفال. يبدو التغيُّر مشابهًا جدًّا في أي وجه من أوجه الحياة البشرية. فالرسوم البيانية التي تُظهِر مستويات الدخل، أو السياحة، أو الديمقراطية، أو الوصول إلى التعليم، أو الرعاية الصحية، أو الكهرباء تخبر كلّها القصة نفسها: أنّ العالم كان بالفعل مُنقسِمًا إلى قسمَين ولكنه لم يعد كذلك. فاليوم، يقع معظم الناس في المنتصف. ليست هناك فجوة بين الغرب وسائر العالم، بين البلدان النامية والمتقدِّمة، بين البلدان الغنية والفقيرة. ويجب أن نتوقّف جميعنا عن استخدام أزواج الفئات البسيطة التي تقترح وجود الفجوة.

كان طلّابي شبابًا مُتفانين وواعين عالميًّا، يريدون أن يجعلوا العالم مكانًا أفضل للعيش. صُدِمت بجهلهم الصريح بأكثر حقائق العالم جوهريةً. صُدِمت بأنهم ظنّوا واقعًا أنّ هناك مجموعتَين «نحن» و«هم». صُدِمت عندما سمعتهم يقولون أنّ «هم» لا يمكنهم أن يعيشوا مثل «نحن». كيف يمكن حتى أن يكونوا في حياتهم اليوم حاملين في رؤوسهم نظرة عالمية عمرها 30 سنة؟

عائدًا إلى البيت على دراجتي تحت المطر في ذلك المساء في أكتوبر من العام 1995، كانت أصابعي مخدّرة، وانتابني شعور بالحماسة. لقد نجحت خطّتي. استطعت من خلال جلب البيانات إلى حجرة الدرس أن أُبرهن لطلّابي أنّ العالم لم يكن مُنقسِمًا إلى قِسمَين. تدبّرت أخيرًا أن أقتنص مفهومهم الخاطئ. شعرت الآن بالحاجة إلى الاستمرار في المعركة. وأدركت أني بحاجة إلى أن أجعل البيانات أكثر وضوحًا. سيساعدني ذلك في أن أبيّن لمزيد من الناس، بصورة أكثر إقناعًا، أنّ آراءهم لم تكن أكثر من مشاعر لا سند لها. سيساعدني ذلك في تحطيم أوهامهم بأنهم يعرفون أمورًا ليست في الحقيقة سوى مشاعر خاصة بهم.

بعد ذلك بعشرين سنة، كنت أجلس في ستوديو تلفزيوني فاخر في كوبنهاغن في الدانمارك. كانت نظرة العالم «المنقسِم» أكبر وأكثر قِدمًا بـ20 سنة. كنّا في بثّ مباشر على الهواء، وقد أمال الصحفي رأسه وقال لي: لا نزال نرى اختلافًا هائلًا

بين العالم الغني الصغير، العالم الغربي القديم في المقام الأوّل، وبين القسم الأكبر».

أجبته: «ولكنك مخطئ تمامًا».

شرحت مرّة أخرى أنّ «البلدان النامية الفقيرة» لم يعد لها وجود على الخريطة كمجموعة منفصلة. وأنه لا توجد فجوة. اليوم، يعيش معظم الناس، 75 بالمائة، في بلدان متوسطة الدخل. ليست فقيرة، وليست غنية، ولكن في مكان ما في الوسط وقد بدأت تعيش نمط حياة معقولًا. عند أحد طرفَي الميزان لا يزال هناك بلدان يعيش أغلب سكّانها في فقر مدقع وغير مقبول. وعلى الطرف الآخر يقع العالم الثريّ (لأمريكا الشمالية وأوروبا وبعض البلدان الأخرى مثل اليابان، وكوريا الجنوبية، وسنغافورة). ولكنّ الغالبيّة العظمى هي في المنتصف بالفعل.

تابع الصحفي: «وإلى أي شيء تسند تلك المعلومة؟»، في محاولة واضحة لاستفزازي. وقد نجح. لم أستطع أن أكظم غيظي وبدا انفعالي واضحًا في صوتي، وفي كلماتي: «أنا أستخدم إحصاءات قياسية جُمِعَت من قِبَل البنك الدولي والأمم المتحدة. هذا لا يقبل الجدل. هذه الحقائق ليست محلّ نقاش. أنا مصيب وأنت مخطئ».

الإمساك بالوحش

الآن وقد مضى 20 سنة على محاربتي للمفهوم الخاطئ بأنّ العالم مُنقسِم إلى قِسمَين، لم أعد أتفاجأ عندما أصادفه. لم يكن طلّابي استثنائيين. لم يكن الصحفي الدانمركي استثنائيًّا. الغالبية العظمى من الناس الذين ألتقيهم يفكّرون بهذه الطريقة. إذا كنت شاكًّا في ادّعائي بأنّ العديد من الناس يحملون هذا المفهوم الخاطئ، فذلك جيد. ينبغي عليك دومًا أن تطالب بدليل لادّعاءات مثل هذه. وها هو، في شكل فخّ مزدوج للمفهوم الخاطئ.

أوّلًا، جعلنا الناس يفصحون عن كيفية تخيّلهم للحياة في ما يُسمّى البلدان ذات الدخل المنخفض، بطرح أسئلة مثل هذا السؤال من الاختبار الذي أجريته في المقدّمة.

سؤال الحقيقة الأوّل

في جميع البلدان ذات الدخل المنخفض في أنحاء العالم اليوم، ما نسبة الفتيات اللاتي يُنهين الدراسة الإبتدائية؟

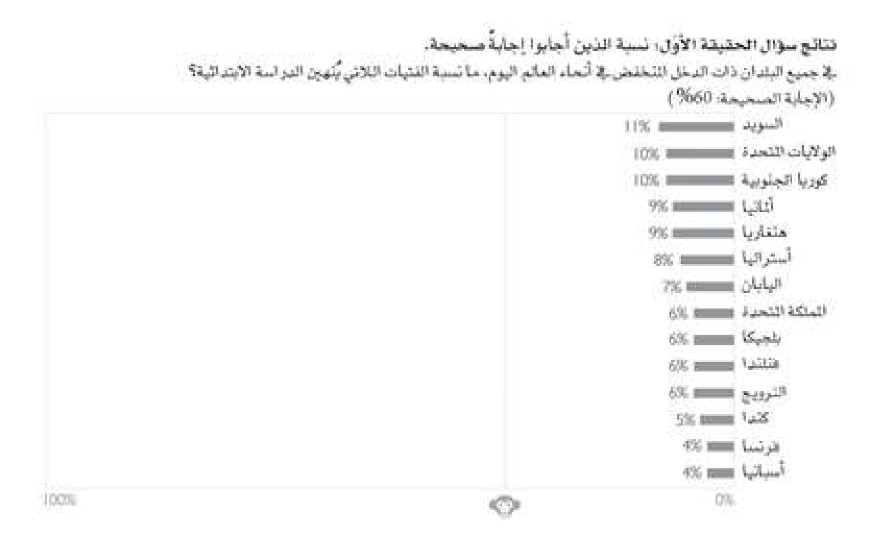
أ: 20 بالمائة

ب: 40 بالمائة

ج: 60 بالمائة

اختار ما معدّله 7 بالمائة فقط الإجابة الصحيحة، ج: 60 بالمائة من الفتيات ينهين الدراسة الابتدائية في البلدان ذات الدخل المنخفض (تذكّر أنّ 33 بالمائة من قرود الشمبانزي في حديقة الحيوان كانت ستجيب إجابةً صحيحة على هذا السؤال). «خمّنت» أغلبيةٌ من الناس أنّ النسبة 20 بالمائة. هناك عددٌ قليلٌ جدًّا فقط من بلدان العالم – أماكن استثنائية مثل أفغانستان وجنوب السودان – تبلغ فيها نسبة الفتيات اللواتي ينهين الدراسة الابتدائية أقلّ من 20 بالمائة، ولا يعيش أكثر من 2 بالمائة من فتيات العالم في مثل هذه الدول.

عندما طرحنا أسئلة مماثلة حول متوسط العمر المتوقّع، وسوء التغذية، وجودة المياه، ومعدّلات التلقيح – سائلين أساسًا عن نسبة الناس في البلدان ذات الدخل المنخفض الذين لديهم وصول إلى الخطوات الأولى الأساسية نحو حياة عصرية – حصلنا على نفس النوع من النتائج. متوسط العمر المتوقّع في البلدان ذات الدخل المنخفض هو 62 سنة. يملك معظم الناس ما يكفي من الطعام، ويملك معظم الناس وصولًا إلى المياه المحسَّنة، ومعظم الأطفال ملقّحون، ومعظم الفتيات ينهين الدراسة الابتدائية. وُفِّقت نِسَبٌ صغيرة جدًّا فقط – أقلّ كثيرًا من نسبة الـ33 لقرود الشمبانزي – إلى اختيار هذه الأجوبة الصحيحة، وانتقت الأغلبية أسوأ الاختيارات المتاحة، حتى عندما مثّلت تلك الأرقام مستويات من البؤس لا يُعانَى منها الآن إلّا خلال الكوارث الرهيبة في أسوأ الأماكن على الأرض.



والآن دعنا نغلق الفخّ، ونأسر المفهوم الخاطئ. نحن نعرف الآن أنّ الناس يعتقدون أنّ الحياة في البلدان ذات الدخل المنخفض أسوأ بكثير ممّا هي عليه واقعًا. ولكن ما عدد الذين يعيشون مثل هذه الحياة الرهيبة وِفقًا لتصوُّر الناس؟ سألنا أناسًا في السويد والولايات المتحدة:

من إجمالي التعداد السكّاني العالمي، ما نسبة عدد السكّان الذين يعيشون في البلدان ذات الدخل المنخفض؟

كان جواب الأغلبية هو 50 بالمائة أو أكثر، وبلغ متوسّط النسبة المخمَّنة 59 بالمائة.

الرقم الفعلي هو 9 بالمائة. 9 بالمائة فقط من سكّان العالم يعيشون في البلدان ذات الدخل المنخفض. وتذكّر أنّنا بيّنا لتوّنا أنّ تلك البلدان ليست رهيبة إلى تلك الدرجة التي يحسبها الناس. هي سيئة فعلًا في نواحٍ عديدة، ولكنها ليست في نفس، أو أقلّ من، مستوى أفغانستان، أو الصومال، أو جمهورية أفريقيا الوسطى، التي هي أسوأ الأماكن عيشًا على كوكب الأرض.

بالاختصار: البلدان ذات الدخل المنخفض متقدِّمة أكثر بكثير ممّا يحسب معظم الناس، وعدد الناس الذين يعيشون فيها أقلّ بشكلٍ كبير. إنّ فكرة العالم المنقسم الذي تعيش فيه أغلبية من الناس في بؤسٍ وحرمان ليست إلّا وهمًا. مفهوم خاطئ تمامًا. خاطئ حقًّا.

النجدة! الأغلبية مفقودة

إذا كانت الأغلبية لا تعيش في البلدان ذات الدخل المنخفض، فأين تعيش إذن؟ بالتأكيد ليس في البلدان ذات الدخل المرتفع؟

كيف تحبّذ أن تكون مياه استحمامك؟ باردة كالثلج أو حارّة كالبخار؟ بالطبع ليست هذه الخيارات الوحيدة. يمكن لمياهك أيضًا أن تكون شديدة البرودة، أو فاترة، أو شديدة السخونة، أو أي شيء في الوسط. خيارات عديدة ضمن نطاق.

سؤال الحقيقة الثاني

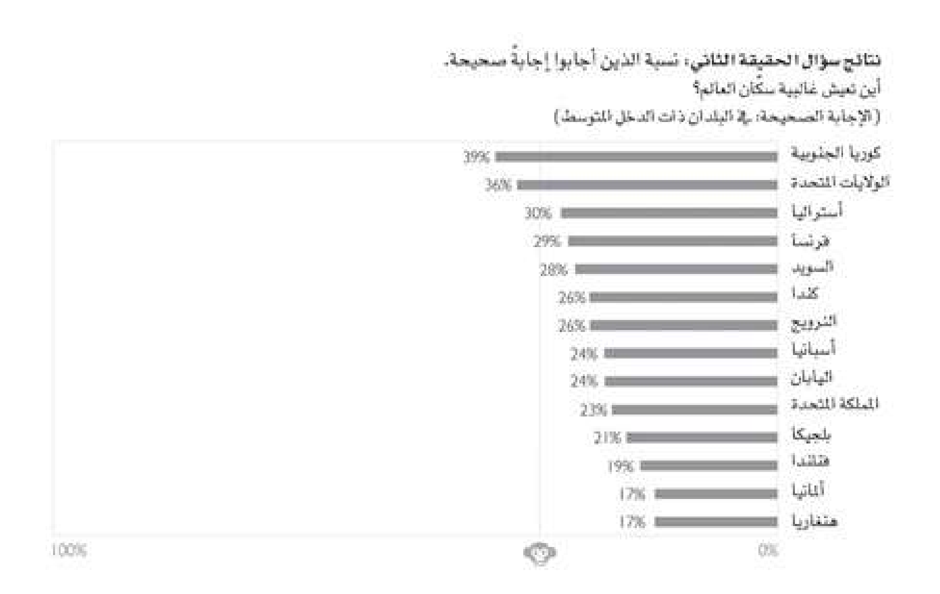
أين تعيش غالبية سكّان العالم؟

أ: في البلدان ذات الدخل المنخفض

ب: في البلدان ذات الدخل المتوسط

ج: في البلدان ذات الدخل المرتفع

لا تعيش غالبية الناس في البلدان ذات الدخل المنخفض ولا في البلدان ذات الدخل المرتفع، وإنّما في البلدان ذات الدخل المتوسط. لا تتواجد هذه الفئة في التوجّه العقلي المنقسم، ولكنها في الواقع موجودة بكلّ تأكيد. إنها



المنطقة التي يعيش فيها 75 بالمائة من الناس، هناك بالضبط حيث يُفترَض أن تكون الفجوة. أو بتعبير آخر، ليست هناك فجوة.

بالجمع بين البلدان ذات الدخل المنخفض والدخل المرتفع، تصل نسبة عدد السكّان إلى 91 بالمائة، حيث يندمج معظمهم في السوق العالمي ويحقّقون تقدّمًا كبيرًا باتجاه الحياة اللائقة. هذا كسبٌ سعيد للعاملين في المجال الإنساني وكسبٌ حاسم للعاملين في مجال الأعمال التجارية العالمية. هناك 5 مليارات مستهلك محتمَل في الوسط، يعملون على تحسين حياتهم، ويريدون أن يستهلكوا الشامبو، والدرّاجات النارية، والهواتف الذكية. يمكنك بسهولة أن تغفل عنهم إذا وضعت في ذهنك أنهم «فقراء».

إذن ماذا ينبغي علينا «نحن» أن ندعو «هُم» بدلًا من ذلك؟

المستويات الأربعة

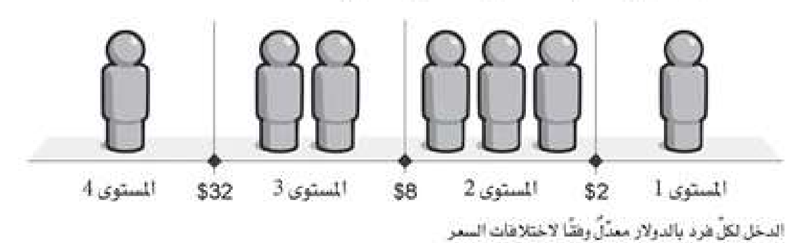
غالبًا ما أكون فظًّا تمامًا بشأن مصطلح «البلدان النامية» في عروضي التقديمية.

يسألني الناس بعد العرض، «ماذا ينبغي علينا إذن أن ندعوهم بدلًا من ذلك؟». ولكن استمع إلى ما يقولونه جيدًا. إنه نفس المفهوم الخاطئ: نحن وهم. ما الذي ينبغي علينا «نحن» أن ندعو «هُم» بدلًا من ذلك؟

ما ينبغي علينا أن نفعله هو أن نتوقّف عن تقسيم هذه البلدان إلى مجموعتَين. لم يعد لهذا أي معنى. ليست هناك فائدة من فهمنا للعالم بطريقة عملية. لن تستفيد الأعمال التجارية في إيجاد الفرص، ولن تستفيد أموال المعونة في إيجاد أفقر الناس.

ولكننا بحاجة فعلًا إلى القيام بنوعٍ ما من الفرز لفهم العالم. لا يمكننا أن نتخلّى عن نعوتنا القديمة ونستبدلها بـ... لا شيء. ماذا يجب أن نفعل؟

أحد أسباب الشيوع الكبير للنعوت القديمة هو أنها بسيطة جدًّا. ولكنها خاطئة! ولهذا، من أجل استبدالها، سأقترح الآن طريقة بسيطة بنفس القدر ولكنها أكثر ملاءمةً وفائدة من تقسيم العالم. بدلًا من تقسيم العالم إلى مجموعتَين، سأقسمه إلى أربعة مستويات دخل، كما هو مبيَّن في الصورة أدناه.



كلّ شكل بشري على المخطّط يمثّل مليار شخص، وتُظهِر الأشكال البشرية السبعة كيف يتوزّع التعداد السكّاني العالمي الحالي على أربعة مستويات دخل، يُعبَّر عنها بالدخل بالدولار لكلّ يوم. يمكنك أن ترى أنّ معظم الناس يعيشون ضمن المستويَين الأوسطَين، حيث يتمّ الإيفاء بمعظم الحاجات البشرية الأساسية للناس.

هل أنت متحمّس؟ يجب أن تكون كذلك، لأنّ مستويات الدخل الأربعة هي الجزء الأوّل والأهمّ لإطارك الجديد المستند إلى الحقيقة. إنها إحدى أدوات التفكير البسيطة التي وعدت أنها ستساعدك في تحسين تخمينك بشأن العالم. خلال كامل أجزاء الكتاب سترى كيف أنّ المستويات تزوِّد بطريقة بسيطة لفهم كلّ أنواع الأمور، من الإرهاب إلى تعليم الجنسَين. ولهذا أريد أن أشرح قدر الإمكان كيف هي الحياة ضمن كلّ واحد من هذه المستويات الأربعة.

فكِّر بمستويات الدخل الأربعة على أنها مستويات للعبة حاسوب. يريد كلّ شخص أن ينتقل من المستوى 1 إلى المستوى 2 فأعلى. ولكنها لعبة حاسوب غريبة جدًّا، لأنّ المستوى 1 هو الأصعب.

المستوى 1. تبدأ في المستوى 1 بدولار واحد لكلّ يوم. يجب على أطفالك الخمسة أن ينفقوا ساعات وهم يمشون حفاة حاملين دَلْوَك البلاستيكي الوحيد، جيئة وذهابًا، لجلب الماء من حفرة موحلة قذرة تبعد مسافة ساعة مشيًا على الأقدام. وفي طريق عودتهم إلى البيت يجمعون الحطب، وتقوم أنت بإعداد نفس العصيدة التي دأبتم على تناولها في كلّ وجبة، في كلّ يوم، في كلّ حياتكم؛ باستثناء الأشهر التي لم تثمر فيها التربة الهزيلة أي محاصيل وذهبتم إلى أسرّتكم جائعين. في أحد الأيام تصاب ابنتك الصغرى بسعال خطير. والدخان المتصاعد من النار داخل البيت يضعف رئتيها. ليس معك مالٌ لشراء مضادّ حيوي، وبعد شهر من ذلك تموت ابنتك. هذا فقر مدقع. ومع ذلك تستمر في كدحك. إذا كنت محظوظًا وغلّة المحاصيل جيدة، فربما يمكنك أن تشتري بعض المحاصيل الإضافية وتتدبّر كسب أكثر من دولارَين في اليوم، وهو ما سينقلك إلى المستوى التالي. حظًّا موفّقًا! (هناك مليار شخص تقريبًا في العالم اليوم يعيشون بهذه الطريقة).


المياه


التنقل


الطهي


طبق الطعام



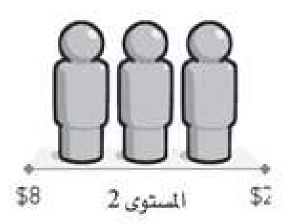
المستوى 2. لقد فعلتها. الواقع أنك قد ضاعفت دخلك أربع مرّات وأنت تكسب الآن 4 دولارات في اليوم. ثلاثة دولارات إضافية في اليوم. ما الذي ستفعله بكلّ هذا المال؟ يمكنك الآن أن تشتري الطعام الذي لم تزرعه بنفسك، ويمكنك أن تشتري دجاجًا، ما يعني بيضًا. ستوفّر بعض المال وتشتري صنادل لأطفالك، ودرّاجة، والمزيد من الدلاء البلاستيكية. يستغرق منك الأمر الآن نصف ساعة فقط في اليوم لجلب الماء. تشتري موقد غاز ليتمكن أطفالك من الذهاب إلى المدرسة بدلًا من جمع الحطب. وعندما تكون الكهرباء متوفّرة، يمكنهم أن يؤدّوا واجباتهم المدرسية على ضوء المصباح. ولكنّ الكهرباء متذبذبة جدًّا لتشغيل ثلّاجة. توفّر مالًا لشراء فرشات كي لا تضطروا إلى النوم على أرضية من الطين. الحياة أفضل بكثير الآن، ولكنها لا تزال غير مستقرّة إلى حدّ كبير. مرضٌ واحد وستضطر إلى بيع معظم ممتلكاتك لشراء الدواء. سيعيدك هذا إلى المستوى 1 مرّةً أخرى.


المياه


النقل


الطهي


طبق الطعام



لا بأس بثلاثة دولارات إضافية في اليوم. ولكن من أجل أن تختبر تحسّنًا ملحوظًا، عليك أن تضاعف دخلك ثانيةً أربع مرّات. إذا استطعت الحصول على عمل في صناعة الألبسة المحليّة،

فستكون أوّل فرد في عائلتك يجلب راتبًا إلى البيت (هناك ثلاثة مليارات شخص يعيشون بهذه الطريقة اليوم).


المياه


التنقل


الطهي


طبق الطعام

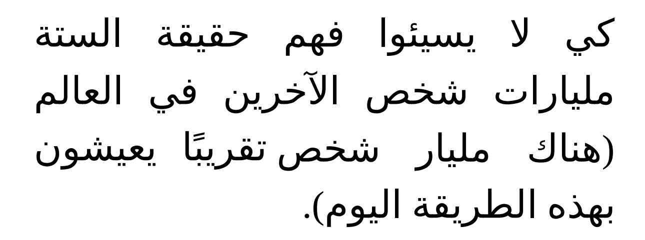


المستوى 3. يا سلام! لقد فعلتها. أنت تعمل في وظائف متعدّدة، 16 ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، وتتدبّر مضاعفة دخلك للمرّة الثانية أربع مرّات، ليصل إلى 16$ في اليوم. مدّخراتك رائعة وبإمكانك تركيب حنفية للماء البارد. لا مزيد من جلب الماء. بوجود خطّ كهربائي ثابت، يتحسّن أداء أطفالك لواجباتهم المدرسية ويمكنك أن تشتري برّادًا يمكّنك من تخزين الطعام وتقديم أطباق مختلفة كلّ يوم. توفّر مالًا لشراء درّاجة ناريّة، ما يعني أنك تستطيع السفر إلى وظائف ذات راتب أعلى في مصنع في المدينة. لسوء الحظّ تتعرّض لحادث في طريق عودتك إلى البيت في أحد الأيام وتضطر إلى استخدام المال الذي وفّرته لتعليم أطفالك كي تدفع الفواتير الطبيّة. تتعافى ممّا أصابك، وبفضل مدّخراتك تبقى في نفس المستوى. يدخل اثنان من أولادك المدرسة الثانوية. إذا تدبّرا النجاح والتخرّج، سيتمكّنان من الحصول على وظيفة أفضل راتبًا من أي

وظيفة حصلت عليها في حياتك. للاحتفال، تأخذ عائلتك بأكملها في أوّل إجازة لكم، في عصر أحد الأيام إلى الشاطئ، لقضاء وقت ممتع (هناك 2 مليار شخص تقريبًا يعيشون بهذه الطريقة اليوم).

لمستوى 4. تكسب أكثر من 64$ في اليوم. أنت مستهلك غني ولن تُحدِث ثلاثة دولارات إضافية في اليوم أي فرق يُذكَر في حياتك اليومية. لهذا السبب ليس للثلاثة دولارات، التي يمكنها أن تغيّر حياة شخص يعيش في فقر مدقع، قيمة في نظرك. حصلت على أكثر من اثنتَي عشرة سنة من التعليم وركبت طائرة في إجازتك. بإمكانك أن تأكل خارج البيت مرّة في الشهر وأن تشتري سيارة. بالطبع لديك ماء ساخن وبارد داخل البيت.

ولكنك تعرف عن هذا المستوى بالفعل. بما أنك تقرأ هذا الكتاب، فأنا متأكّد تمامًا أنك تعيش في المستوى 4. لست بحاجة لأن أصفه لك لتفهم. تكمن الصعوبة، بعد أن تكون قد عرفت هذا المستوى العالي من الدخل، في أن تفهم الاختلافات الهائلة بين المستويات الثلاثة الأخرى. يجب أن يكافح الناس في المستوى 4 بشدّة



كي لا يسيئوا فهم حقيقة الستة مليارات شخص الآخرين في العالم (هناك مليار شخص تقريبًا يعيشون بهذه الطريقة اليوم).


المياه


النقل


الطهي


طبق الطعام



لقد وصفت التقدّم عبر المستويات كما لو كان شخصٌ واحد قد تدبّر الانتقال خلال عدّة مستويات. هذا أمرٌ جدًّا غير مألوف. غالبًا ما يستغرق الأمر أجيالًا عدّة من

العائلة للانتقال من المستوى 1 إلى المستوى 4. ومع ذلك آمل أن تكون لديك الآن صورة واضحة لأنواع الحياة التي يعيشها الناس في المستويات المختلفة: تصوُّر بأنه من الممكن الانتقال خلال المستويات سواء للأفراد أو للدول، والأهمّ من كلّ شيء الفهم بأنّ هناك فقط نوعَين من الحياة.

بدأ التاريخ البشري والجميع في المستوى 1. لأكثر من 100,000 سنة لم ينجح أحد في الانتقال إلى مستوىً أعلى وقليلٌ من الأطفال بقوا على قيد الحياة ليصبحوا آباءً. قبل 200 سنة فقط، كان 85 بالمائة من سكّان العالم لا يزالون في المستوى 1، في فقر مدقع.

اليوم تنتشر الغالبية العظمى من الناس في الوسط، عبر المستويَين 2 و3، في نفس نطاق المستويات المعيشية التي عاشها الناس في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية في خمسينيّات القرن الماضي. استمرّ الوضع على هذا النحو لسنوات عديدة.

غريزة الفجوة

غريزة الفجوة قوية جدًّا. المرّة الأولى التي ألقيت فيها محاضرة إلى هيئة موظّفي البنك الدولي كانت في العام 1999. أخبرتهم أنّ النعتَين «نامية» و«متقدّمة» لم يعودا صالحَين وابتلعت سيفي. تطلّب الأمر من البنك الدولي 17 عامًا و14 محاضرة إضافية من محاضراتي قبل أن يعلن أخيرًا أنه سيتوقّف عن استخدام المصطلحَين «نامية» و«متقدّمة» وأنه سيقسم العالم من الآن فصاعدًا إلى أربع مجموعات دخل. أمّا الأمم المتحدة ومعظم المنظّمات العالمية الأخرى فلم تُحدِث هذا التغيير بعد.

لماذا إذن من الصعب جدًّا تغيير المفهوم الخاطئ بوجود فجوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة؟

أظنّ أنّ هذا يرجع إلى أنّ البشر يملكون غريزة دراماتيكية قوية نحو التفكير الثنائي، رغبة أساسية لتقسيم الأشياء إلى مجموعتَين متمايزتَين، حيث لا شيء بينهما سوى فجوة فارغة. نحن نحب أن نقسم. الخير مقابل الشرّ. الأبطال مقابل الأوغاد. بلدي مقابل بقية البلاد. إنّ تقسيم العالم إلى جهتَين متمايزتَين هو أمرٌ بسيط وبديهي، ودراماتيكي أيضًا لأنه يقتضي التضارب، ونحن نفعل ذلك دون تفكير،

طوال الوقت.

الصحفيون يعرفون ذلك. فهم يُعدّون رواياتهم كتضاربات بين خصمَين من الناس، أو وجهات النظر، أو المجموعات. يفضّلون قصص الفقر المدقع وأصحاب المليارات على قصص الغالبية العظمى من الناس الذين يجرّون أنفسهم ببطء باتجاه حياة أفضل. الصحفيون هم راوون للقصص. وكذلك هم الناس الذين ينتجون الوثائقيات والأفلام. تضع الوثائقيات الفرد الضعيف الهشّ مقابل الشركة الكبيرة الشريرة. وعادةً ما تعرض الأفلام الرائجة الخير يحارب الشرّ.

تجعلنا غريزة الفجوة نتخيّل انقسامًا حيث هناك نطاق انسيابي، واختلافًا حيث هناك تقارب، وتضاربًا حيث هناك اتفاق. إنها الغريزة الأولى في قائمتنا لأنها شائعة جدًّا وتشوّه البيانات بشكلٍ جوهري جدًّا. إذا اطّلعت على الأخبار أو دخلت موقع ويب لمجموعة ضغط هذا المساء، فستلاحظ على الأرجح قصصًا عن التضارب بين مجموعتَين، أو عبارات مثل «الفجوة المتزايدة».

كيفية السيطرة على غريزة الفجوة

هناك ثلاث علامات إنذار شائعة بأنّ أحدهم ربما يخبرك (أو ربما تخبر نفسك) قصة فجوة دراماتيكية بإفراط وتستحثّ غريزة الفجوة لديك. دعنا نطلق عليها مقارنات المتوسّطات، ومقارنات النهايات، والمشهد من أعلى.

مقارنات المتوسّطات

إلى جميع من يحسب المتوسّطات، رجاءً لا تشعروا بالإساءة لما سأقوله الآن. أنا أحبّ المتوسّطات. إنها طريقة سريعة لعرض المعلومات، وغالباً ما تخبرنا شيئًا مفيدًا، ولا يمكن للمجتمعات الحديثة أن تعمل بدونها. ولا يمكن ذلك لهذا الكتاب أيضًا. سيكون هناك الكثير من المتوسّطات في هذا الكتاب. ولكنّ أي تبسيط للمعلومات يمكن أيضًا أن يكون مضلِّلًا، والمتوسّطات ليست استثناء. تضلّلنا المتوسّطات بإخفاء انتشار (نطاق من الأرقام المختلفة) في رقم واحد.

عندما نقارن بين متوسّطَين، نحن نخاطر بتضليل أنفسنا حتى أكثر بالتركيز على الفجوة بين هذين الرقمَين المفردَين، وتفوتنا الانتشارات المتداخلة، والنطاقات المتداخلة للأرقام، التي تؤلّف كلّ متوسّط. يعني، نحن نرى فجوات غير موجودة فعليًّا.

على سبيل المثال، أنظر إلى الرسمَين البيانيَّين (غير المرتبطَين) هنا:

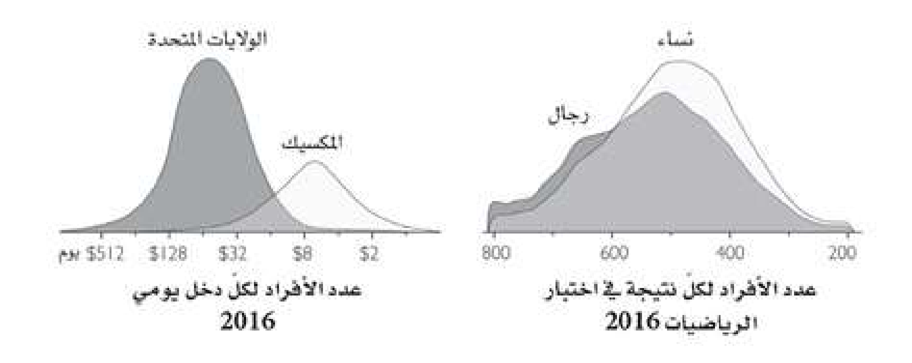


يُظهر الرسم على اليسار الفجوة بين نتائج الرياضيات للرجال والنساء الذين يجرون اختبارات الـSAT في الولايات المتحدة، لكلّ سنة منذ العام 1965. يُظهر الرسم على اليمين الفجوة بين متوسط الدخل للناس الذين يعيشون في المكسيك والولايات المتحدة. أنظر إلى الفرق الضخم بين الخطَّين في كلّ رسم. الرجال مقابل النساء. الولايات المتحدة مقابل المكسيك. يبدو أنّ هذين الرسمَين يُظهران أنّ الرجال أفضل أداءً من النساء في الرياضيات، وأنّ مداخيل الناس الذين يعيشون في الولايات المتحدة أعلى من تلك للمكسيكيين. وهذا صحيح من ناحية معينة. هذا ما تقوله الأرقام. ولكن من أي ناحية؟ وإلى أي مدى؟ هل كلّ الرجال أفضل من كلّ النساء؟ هل كلّ مواطني الولايات المتحدة أغنى من كلّ المكسيكيين؟

دعنا نأخذ صورة أفضل للواقع خلف الأرقام. أوّلًا، دعنا نغيّر المقياس على المحور الرأسي. باستخدام نفس الأرقام، نحصل الآن على انطباع مختلف جدًّا. يبدو الآن أنّ «الفجوة» قد اختفت تقريبًا.



والآن دعنا ننظر إلى البيانات نفسها بطريقة ثالثة. بدلًا من النظر إلى المتوسّطات كلّ سنة، دعنا ننظر إلى نطاق نتائج الرياضيات، أو المداخيل، في سنة بعينها.



لدينا الآن تصوُّر لكلّ الأفراد الذين احتواهم الرقم المتوسط. أنظر! هناك تداخل كامل تقريبًا بين نتائج الرياضيات للرجال والنساء. لدى غالبية النساء توأم رياضيات ذكوري: رجلٌ حصل على نفس نتيجة الرياضيات التي حصلن عليها. عندما يتعلّق الأمر بالمداخيل في المكسيك والولايات المتحدة، فإنّ التداخل موجود ولكنه جزئي فقط. ومع ذلك، يتّضح، عند النظر إلى البيانات بهذه الطريقة، أنّ مجموعتَي الناس – الرجال والنساء، الناس الذين يعيشون في المكسيك وأولئك في الولايات المتحدة – غير منفصلتَين على الإطلاق. إنهما متداخلتان. ليست هناك فجوة.

بالطبع، يمكن لقصص الفجوة أن تعكس الواقع. في جنوب أفريقيا التي تمارس الفصل العنصري، عاش البيض والسود بمستويات دخل مختلفة وكانت هناك فجوة حقيقية بينهما، بدون تداخل تقريبًا. كانت قصة الفجوة بين المجموعات

المنفصلة ملائمة حتمًا.

ولكنّ الفصل العنصري كان أمرًا جدًّا غير مألوف. في أكثر الأحيان تكون قصص الفجوة قصصًا مضلِّلة مفرطة في الدراماتيكية. في معظم الحالات، ليس هناك فصلٌ واضح بين مجموعتَين، حتى لو أظهرت المتوسّطات ذلك. نحن غالبًا ما نحصل على صورة أكثر دقّة بالتنقيب بشكلٍ أعمق والنظر ليس إلى المتوسّطات فحسب، بل أيضًا إلى الانتشار: ليس فقط إلى المجموعة المحزومة معًا، بل إلى الأفراد. ثمّ غالبًا ما نرى أنّ تلك المجموعات المتمايزة ظاهرًا هي في الحقيقة متداخلة إلى حدٍّ بعيد.

مقارنات النهايات

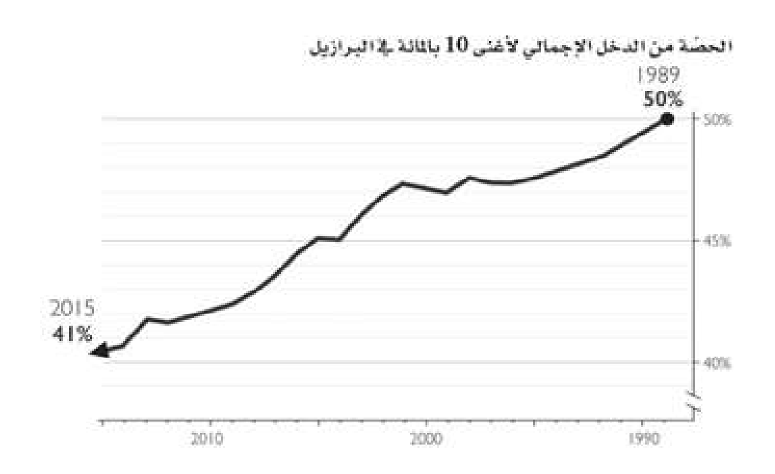
نحن ننجذب تلقائيًّا إلى الأمثلة المتطرّفة، التي يسهل تذكّرها. على سبيل المثال، إذا كنّا نفكّر في اللّامساواة العالمية، فقد نفكّر بالقصص التي شاهدناها في الأخبار حول المجاعة في جنوب السودان، من جهة، وواقعنا المريح الخاص، من جهة أخرى. إذا طُلِب منّا أن نفكّر بالأنواع المختلفة للأنظمة الحكومية، فقد نتذكّر بسرعة الحكومات الدكتاتورية المستبدّة الفاسدة، من جهة، والأنظمة الحكومية البيروقراطية التي تكرّس نفسها لحماية حقوق جميع المواطنين، من جهة أخرى.

قصص الأضداد هذه أخّاذة ومستفزّة ومغرية – وفعّالة جدًّا في استحثاث غريزة الفجوة لدينا – ولكنها نادرًا ما تساعد في الفهم. سيكون هناك دومًا الأغنى والأفقر، كما سيكون هناك دومًا الأنظمة الأسوأ والأنظمة الأفضل. ولكنّ حقيقة وجود النهايات لا تخبرنا الكثير. تتواجد الغالبية عادةً في الوسط، وتخبرنا قصة مختلفة جدًّا.

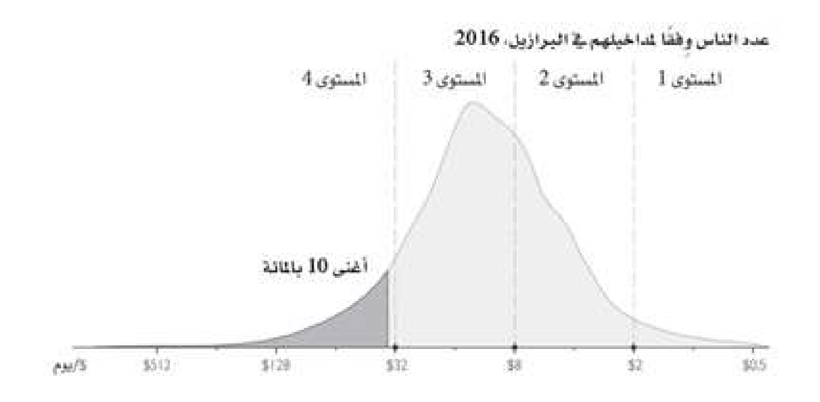
خذ البرازيل، أحد أكثر بلدان العالم تفاوتًا. يجني أغنى 10 بالمائة من السكّان 4 بالمائة من الدخل الإجمالي في البرازيل. مثير للقلق، صحيح؟ تبدو الحصّة مرتفعة جدًّا. نتخيّل بسرعة شخصًا من النخبة يسرق الموارد من كلّ البقية. تدعم وسائل الإعلام هذا الانطباع بصور لأغنى الأغنياء – غالبًا ليس لأغنى 10 بالمائة بل على الأرجح لأغنى 0.1 بالمائة، فائقي الثراء – مع قواربهم، وخيولهم، وقصورهم الضخمة.

نعم، الرقم مرتفع بصورة تدعو للقلق. في الوقت نفسه، لم يكن متدنّيًا إلى

هذا الحدّ لسنوات عديدة مضت.



غالبًا ما تُستخدَم الإحصاءات بطرق دراماتيكية لأهداف سياسية، ولكن من المهمّ أيضًا أنها تساعدنا في تصفّح الواقع. دعنا نلقي نظرة الآن على مداخيل الشعب البرازيلي عبر المستويات الأربعة.



تجاوز معظم الناس في البرازيل الفقر المدقع. تقع الحدبة الكبيرة في المستوى 3. هنا حيث تحصل على دراجة ناريّة ونظّارات للقراءة، وتدّخر مالًا في المصرف لتدفع للمدرسة الثانوية وتشتري غسّالة في يومٍ ما. في واقع الأمر، حتى في واحد من أكثر بلدان العالم تفاوتًا، ليست هناك فجوة. يقع معظم الناس في المنتصف.

المشهد من أعلى

كما ذكرت آنفًا، إذا كنت تقرأ هذا الكتاب، فأنت على الأرجح تعيش في المستوى 4. حتى لو كنت تعيش في بلد متوسط الدخل، أي أنّ متوسط الدخل يقع في المستوى 2 أو 3 – مثل المكسيك، على سبيل المثال – فيُحتمَل أنك تعيش في المستوى 4 وحياتك شبيهة على الأرجح في نواحٍ هامّة بحياة الناس الذين يعيشون في المستوى 4 في سان فرانسيسكو، وستوكهولم، وريو، وكيب تاون، وبكين. ما يُعرَف بالفقر في بلدك مختلفٌ عن «الفقر المدقع». إنه «فقر نسبي». في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، يُصنَّف الناس بأنهم تحت خطّ الفقر حتى لو كانوا يعيشون في المستوى 3.

ولهذا يرجّح أنّ كفاح الناس في المستويات 1، و2، و3 لن يكون مألوفًا لديك. كما أنه ليس موصوفًا بأي طريقة مفيدة في أي من وسائل الإعلام المتاحة[1].

إنّ التحدّي الأهمّ في تطوير نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة هي أن تدرك أنّ معظم خبراتك المباشرة هي من المستوى 4، وأنّ خبراتك غير المباشرة تُرشَّح من خلال وسائل الإعلام، التي تحب الأحداث غير التمثيلية والاستثنائية وتُعرِض عن الأحداث الطبيعية.

عندما تعيش في المستوى 4، يمكن أن يبدو كلّ من يعيش في المستويات 3، و2، و1 على نفس الدرجة من الفقر، ويمكن لكلمة فقير أن تفقد أي معنى محدّد لها. يمكن حتى لشخص في المستوى 4 أن يبدو فقيرًا: ربما كان الطلاء على جدران بيته يتقشّر، أو ربما كان يقود سيارة مستعملة. يعرف أي شخص ينظر إلى الأسفل من أعلى بناءٍ مرتفع أنه من الصعب تقييم الاختلافات في الارتفاع للأبنية الأقرب إلى الأرض. فجميعها تبدو صغيرة نوعًا ما. بالطريقة نفسها، من الطبيعي للناس الذين يعيشون في المستوى 4 أن يروا العالم كما لو كان منقسمًا إلى فئتَين فقط: الأغنياء (في أعلى المبنى، مثلك) والفقراء (في الأسفل، ليس مثلك). من الطبيعي أن تنظر إلى الأسفل وتقول «يا إلهي، إنهم جميعًا فقراء». من الطبيعي أن تفوتك الفروق بين الناس ذوي السيارات، والناس ذوي الدرّاجات الناريّة والدرّاجات الهوائية، والناس ذوي الصنادل، والناس الحفاة.

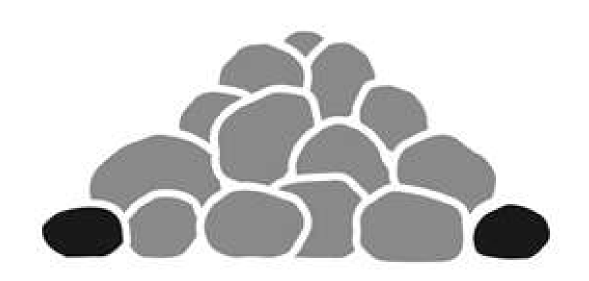
أنا أؤكّد لك، لأني التقيت وتحدّثت مع أشخاص في كلّ مستوى، أنّ الفروقَ،

بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون على الأرض في المستويات 1، و2، و3، حاسمةٌ بالفعل. يعرف الناس الذين يعيشون في فقر مدقع في المستوى 1 كم ستكون الحياة أفضل إذا استطاعوا أن ينتقلوا من 1دولار في اليوم إلى 4 دولار في اليوم، ناهيك عن 16 دولاراً في اليوم. يعرف الناس الذين يضطرون إلى المشي حفاة في كلّ مكان كم يمكن لدرّاجة هوائية أن توفِّر عليهم أطنانًا من الوقت والجهد وتسرّع وصولهم إلى السوق في المدينة، وتحسّن صحّتهم وثروتهم.

إنّ إطار المستويات الأربعة، البديل للنظرة العالمية «المنقسمة» الدراماتيكية بإفراط، هو الجزء الأوّل والأهمّ للإطار المستند إلى الحقيقة الذي ستتعلّمه في هذا الكتاب. والآن قد تعلّمته. ليس صعبًا جدًّا، أليس كذلك؟ سأستخدم المستويات الأربعة في بقية الكتاب لأشرح كلّ أنواع الأمور، بما في ذلك المصاعد، وحوادث الغرق، وفنّ الطبخ، والخراتيت. ستساعدك في رؤية العالم بوضوح أكثر وفهمه بشكلٍ صحيح في أغلب الأحيان.

ما الذي تحتاجه لاصطياد، وأسر، واستبدال المفاهيم الخاطئة؟ البيانات. عليك أن تعرض البيانات وتصف الواقع خلفها. ولهذا شكرًا لجداول بيانات اليونيسف، وشكرًا للرسوم البيانية الفقّاعية، وشكرًا للإنترنت. ولكنك بحاجة أيضًا إلى شيء آخر. لا تختفي المفاهيم الخاطئة إلّا إذا وُجِدت طريقة تفكير بسيطة بنفس القدر ولكن أكثر ملاءمةً لتحلّ محلّها. هذا ما تفعله المستويات الأربعة.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو… أن تميّز لدى سماعك لقصة ما إذا كانت تتحدّث عن فجوة، وتتذكّر أنّ هذا يرسم صورة لمجموعتَين منفصلتَين، مع فجوة بينهما. غالبًا ما تكون الحقيقة غير مستقطبة على الإطلاق. عادةً ما تكون الأغلبية هناك في الوسط، حيث يُفترَض أن تكون الفجوة.

من أجل التحكّم بغريزة الفجوة، ابحث عن الأغلبية.

* احترز من مقارنات المتوسّطات. إذا استطعت التحقّق من الانتشارات، فستجدها على الأرجح متداخلة. من الممكن أن لا تكون هناك فجوة على الإطلاق.

* احترز من مقارنات النهايات. في كلّ المجموعات، سواء البلدان أو الناس، هناك بعض في الأعلى وبعض في الأسفل. في بعض الأحيان يكون الفرق مُجحِفًا للغاية. ولكن حتى في هذه الحالة، عادةً ما تكون الأغلبية في مكان ما في الوسط، تمامًا حيث يُفترَض أن تكون الفجوة.

* المشهد من أعلى. تذكّر أنّ النظر إلى الأسفل من الأعلى يشوّه المشهد. يبدو كلّ شيء آخر قصيرًا بنفس الدرجة، ولكنه ليس كذلك.

الفصل الثاني
غريزة السلبية

كيف وُلِدتُ في مصر، وماذا يمكن لرضيع في حاضنة أن يعلّمنا عن العالم

أي العبارات التالية أكثر ما تتّفق ورأيك؟

أ: العالم يتحسّن

ب: العالم يزداد سوءًا

ج: العالم لا يتحسّن ولا يزداد سوءًا

الخروج من الخندق

أتذكّر أني قُلِبت فجأةً رأسًا على عقب. أتذكّر الظلام، والرائحة البغيضة، وعجزي عن التنفّس مع امتلاء فمي وأنفي بالوحل. أتذكّر صراعي لأعيد نفسي إلى وضعي السويّ ولكن دون جدوى. غُصت أعمق فأعمق في السائل اللزج. أتذكّر ذراعَي الممدودتَين خلفي، تبحثان بيأس بين الأعشاب عن شيء تمسكان به، لأجد نفسي وقد رُفِعت فجأة من الكاحلَين. أتذكّر جدّتي وقد وضعتني في الحوض الكبير على أرضية المطبخ وأخذت تغسلني بلطف، بالماء الساخن الذي يُفترَض أن تغسل به الصحون. أتذكّر رائحة الصابون.

هذه هي أوّل ذكرياتي والأخيرة تقريبًا. إنها ذكريات إنقاذي، بعمر الرابعة، من خندق مياه المجارير الجارية أمام منزل جدّتي. كان ممتلئًا إلى الحافة بمزيج من أمطار الليلة الماضية وردغة مياه المجارير من مصنع البلدة. ثمّة شيء فيه لفت انتباهي، وعندما خطوت إلى حافة الخندق، زلقت قدمي ووقعت على رأسي. لم يكن والداي موجودَين لينتبها لي. كانت أمي في المستشفى، مريضة بالسلّ. وكان أبي يعمل 10ساعات في اليوم.

عشت مع جدّي وجدّتي طوال أيام الأسبوع. في أيام السبت، كان أبي يضعني على رفّ درّاجته ونقود في دوائر كبيرة على شكل رقم 8 من أجل المتعة فقط في طريقنا إلى المستشفى. كنت أرى أمي تقف على الشرفة في الطابق الثالث وهي تسعل. وكان أبي يشرح لي أننا يمكن أن نمرض أيضًا إذا دخلنا. كنت ألوّح لها بيدي وتردّ لي التحيّة. كنت أراها تتحدّث إليّ، ولكنّ صوتها كان ضعيفًا جدًّا وكلماتها تتلاشى مع الريح. أتذكّر أنها كانت تحاول دومًا أن تبتسم.

المفهوم الخاطئ الكبير بأنّ «العالم يزداد سوءًا»

يتناول هذا الفصل غريزة السلبية: ميلنا لأن نلاحظ السيئ أكثر من الجيد. هذه الغريزة هي السبب وراء المفهوم الخاطئ الكبير الثاني.

«الأمور تزداد سوءًا» هي العبارة التي أسمعها أكثر من أي عبارة أخرى عن العالم. ومن الصحيح قطعًا أنّ هناك العديد من الأمور السيئة في هذا العالم.

منذ الحرب العالمية الثانية وعدد ضحايا الحرب في تناقص، ولكن في ما يتعلّق بالحرب في سوريا، فإنّ عدد الضحايا في تزايد. الإرهاب أيضًا في تصاعد من جديد (سنعود إلى هذه النقطة في الفصل 4).

الإفراط في صيد الأسماك وتدهور البحار هما مشكلتان مقلقتان فعلًا. فقوائم المناطق الميّتة في محيطات العالم والأنواع المهدّدة بالانقراض تزداد طولًا.

الجليد يذوب. ومستويات البحر ستستمرّ في الارتفاع بمقدار ثلاث أقدام على الأرجح على مدى المائة سنة التالية. لا شكّ أنّ هذا بسبب كلّ غازات الدفيئة التي ضخّها البشر في الجوّ، والتي لن تتبدّد لزمن طويل، حتى لو توقّفنا عن ضخّ المزيد.

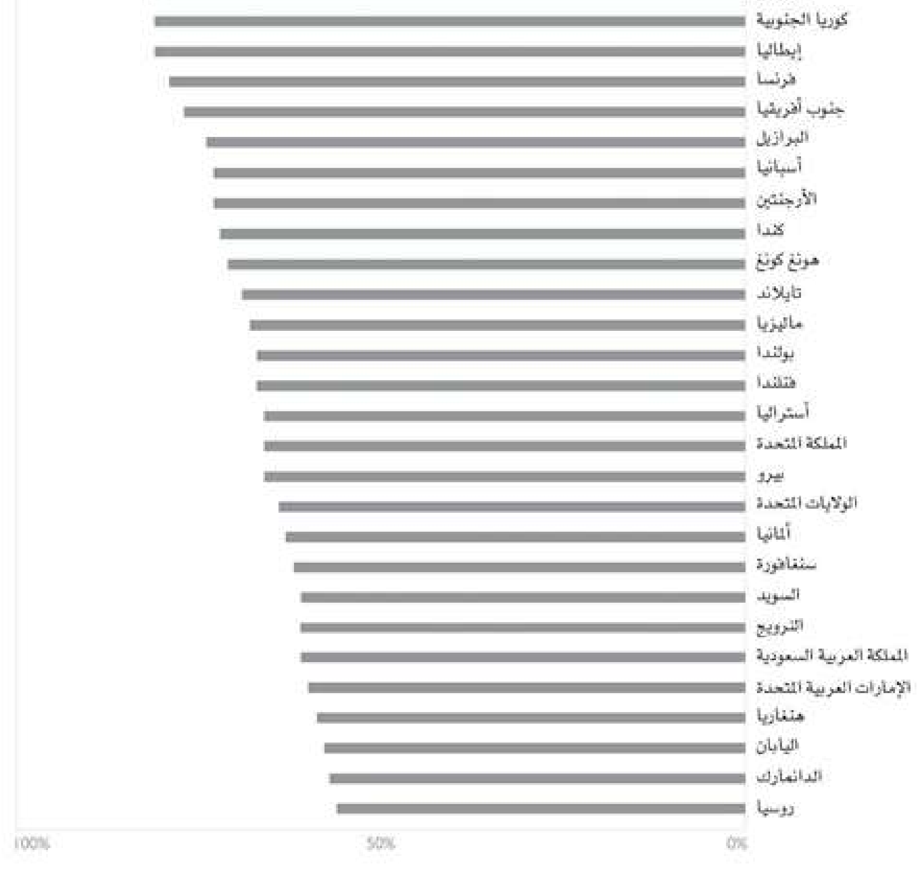
يرجع السبب في انهيار سوق الإسكان في الولايات المتحدة في العام 2007،

الذي لم يتنبّأ به أي من المراقبين، إلى أوهام السلامة المنتشرة على نطاق واسع في الاستثمارات المجرّدة، التي لم يفهمها أحد إلّا نادرًا. يبقى النظام معقّدًا اليوم كما كان حينها ويمكن أن تحدث أزمة مماثلة مرّة أخرى. ربما غدًا.

من أجل أن ينعم هذا الكوكب باستقرار ماليّ، وسلام، وموارد طبيعية محميّة، هناك شيء واحد لا يمكننا أن ننجح بدونه، وهو التعاون الدولي، المبني على فهمٍ عالمي مشترَك ومُستنِد إلى الحقيقة. وبالتالي، فإنّ الافتقار الحالي إلى المعرفة بشأن العالم هو المشكلة الأكثر إقلاقًا من بين كلّ المشاكل.

أسمع الكثير جدًّا من الأمور السلبية طوال الوقت. ربما أنت تفكّر، «هانس، لا بدّ أنك قد التقيت أكثر الناس كآبةً». قرّرنا أن نتحقّق.

سُئل الناس في 30 بلدًا السؤال أعلاه تحت عنوان هذا الفصل: هل تعتقد أنّ العالم يتحسّن، أو يزداد سوءًا، أو يراوح مكانه؟ إليك ما قالوه.



أنا لا أثق بالبيانات أبدًا مائة بالمائة، وأنت أيضًا لا ينبغي أن تفعل ذلك. هناك دومًا بعض الشكّ. في هذه الحالة، سأقول أنّ هذه الأرقام صحيحة بشكلٍ تقريبي، ولكن لا يجب أن تقفز إلى أي استنتاجات استنادًا إلى فروق صغيرة (بالمناسبة، هذا مبدأ عامّ جيد في الإحصاءات: احترس من القفز إلى أي استنتاجات إذا كانت الفروق أقلّ، مثلًا، من 10 بالمائة تقريبًا). ومع ذلك، فإنّ الصورة الكبيرة لا تزال واضحة تمامًا: غالبية الناس يعتقدون أنّ العالم يزداد سوءًا. لا عجب أننا جميعًا نشعر

بكلّ هذا الإجهاد.

الإحصاءات هي العلاج

من السهل أن نكون مدركين لكلّ الأمور السيئة التي تحدث في العالم. من الأصعب أن نعرف بشأن الأمور الجيدة: مليارات من التحسينات التي لا تُذكَر في التقارير الإخبارية أبدًا. لا تخطئ فهمي. أنا لا أتكلّم عن بعض الأخبار الإيجابية التافهة التي يُفترَض أن تتوازن مع الأخبار السلبية. أتكلّم هنا عن أخبار أساسية مغيِّرة للعالم ولكنها بطيئة جدًّا، أو مجزّأة جدًّا، أو صغيرة جدًّا كعناوين فردية لتكون مؤهّلة كأخبار. أتكلّم عن معجزة التقدّم البشري الصامتة السريّة.

إنّ الحقائق الأساسية حول تقدّم العالم غير معروفة إلّا بالقدر القليل جدًّا بحيث أني أُدعَى للحديث عنها في المؤتمرات واجتماعات الشركات في جميع أنحاء العالم. في بعض الأحيان يصفون محاضراتي بأنها «مُلهِمة»، ويقول العديد من الناس أنها تنطوي أيضًا على تأثير مطمئِن. لم يكن هذا مرادي أبدًا. ولكنّ وصفهم منطقي. إنّ ما أعرضه في الأغلب هو مجرّد بيانات رسمية للأمم المتحدة. طالما أنّ نظرة الناس إلى العالم سلبية بنحوٍ يفوق الواقع بكثير، فإنّ الإحصاءات المحضة يمكن أن تجعلهم يشعرون بمزيد من الإيجابية. إنه لأمرٌ مريح، ومُلهِم أيضًا، أن تعلم أنّ العالم أفضل بكثير ممّا تظنّ. نوع جديد من حبوب السعادة، المجّانية بالكامل على الإنترنت!

الفقر المدقع

دعنا نبدأ بدراسة اتجاه الفقر المدقع.

سؤال الحقيقة الثالث

في الـ20 سنة الأخيرة، فإنّ نسبة سكّان العالم الذين يعيشون في فقر مدقع قد...

أ: تضاعفت تقريبًا

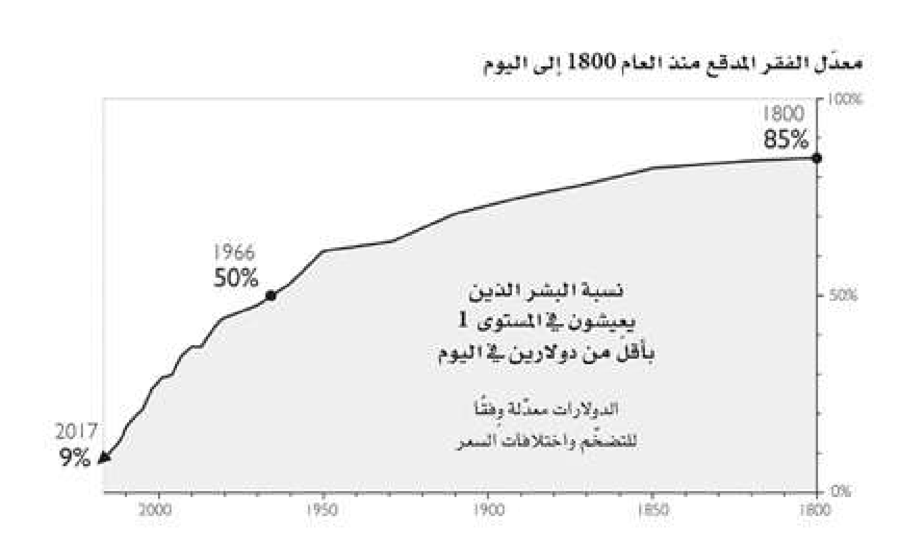
ب: بقيت كما هي تقريبًا

ج: قلّت إلى النصف تقريبًا

الإجابة الصحيحة هي ج: في الـ20 سنة الأخيرة، قلّت نسبة الناس الذين يعيشون في فقر مدقع إلى النصف تقريبًا. ولكن في استطلاعاتنا على الإنترنت، أقلّ من 10 بالمائة عرفوا هذه الحقيقة.

هل تذكر مستويات الدخل الأربعة من الفصل 1؟ في العام 1800، عاش 85 بالمائة تقريبًا من البشر في المستوى 1، أي في فقر مدقع. في جميع أنحاء العالم، لم يكن لدى الناس ببساطة ما يكفي من الطعام، وكان معظم الناس يأوون إلى أسرّتهم جائعين عدّة مرّات في السنة. في بريطانيا ومستعمراتها، كان على الأطفال أن يعملوا ليأكلوا. بلغ معدّل العمر الذي كان الأطفال يبدأون فيه العمل في المملكة المتحدة 10 سنوات. هاجر خُمس سكّان السويد، بمن فيهم الكثير من أقاربي، هربًا من المجاعة إلى الولايات المتحدة، ولم يرجع منهم سوى 20 بالمائة. عندما لا يثمر الحصاد ويموت أقاربك، وأصدقاؤك، وجيرانك من الجوع، ماذا تفعل؟ تهرب، تهاجر إذا استطعت.

المستوى 1 هو حيث بدأ كلّ البشر. إنه المستوى الذي عاشت فيه الأغلبية دومًا، حتى العام 1966. حتى ذلك الحين، كان الفقر المدقع هو القاعدة، وليس الاستثناء.



يُظهِر المنحنى الذي تراه أعلاه كيف تناقص معدّل الفقر المدقع منذ العام 1800. وانظر إلى العشرين سنة الأخيرة. قلّ الفقر المدقع بشكلٍ أسرع من أي وقت

مضى في تاريخ العالم.

في العام 1997، كان 42 بالمائة من سكّان الهند والصين يعيشون في فقر مدقع. في العام 2017، قلّت هذه النسبة في الهند إلى 12 بالمائة: قلّ عدد الناس الذين يعيشون في فقر مدقع بمقدار 270 مليون شخص عمّا كان قبل 20 سنة فقط. انخفضت تلك النسبة في الصين بصورة مذهلة إلى 0.7 بالمائة خلال الفترة نفسها، ما يعني تخطّي نصف مليار من الناس هذه العتبة الفاصلة. في غضون ذلك، خفّضت أمريكا اللاتينية نسبتها من 14 بالمائة إلى 4 بالمائة: 35 مليون شخص آخر. وفي حين أنّ جميع تقديرات الفقر المدقع ليست مؤكّدة إلى حدّ كبير، إلّا أنه عندما يبدو التغيّر بمثل هذا النحو، فمن المؤكّد تمامًا أنّ هناك شيئًا ضخمًا يحدث.

كم كان عمرك قبل 20 سنة؟ أغمض عينَيك لثانية وتذكّر نفسك بعمرٍ أصغر. كم تغيّر عالمك؟ كثيرًا؟ قليلًا؟ حسنًا، لقد تغيّر العالم بهذا القدر أيضًا: قبل 20 سنة فقط، عاش 29 بالمائة من سكّان العالم في فقر مدقع. هذا الرقم الآن هو 9 بالمائة. اليوم، فرّ الجميع تقريبًا من عيش البؤس والشقاء. إنّ المصدر الأساسي لكلّ معاناة البشر على وشك أن يُستأصَل. يجب أن نخطّط لحفلة! حفلة كبيرة! وعندما أتكلّم بصيغة «نحن»، فأنا أعني الجنس البشري!

بدلًا من ذلك، نحن كئيبون. لا نزال نرى على شاشات التلفاز، كوننا نعيش في المستوى 4، الناس في فقر مدقع، ويبدو أن لا شيء قد تغيّر. فرّ مليارات الناس من البؤس وأصبحوا مستهلكين ومنتجين في السوق العالمي، وتدبّر مليارات الناس الانتقال من المستوى 1 إلى المستويَين 2 و3، دون أن يلحظ الناس في المستوى 4 ذلك.

متوسط العمر المتوقّع

سؤال الحقيقة الرابع

ما هو متوسط العمر المتوقّع في العالم اليوم؟

أ: 50 سنة

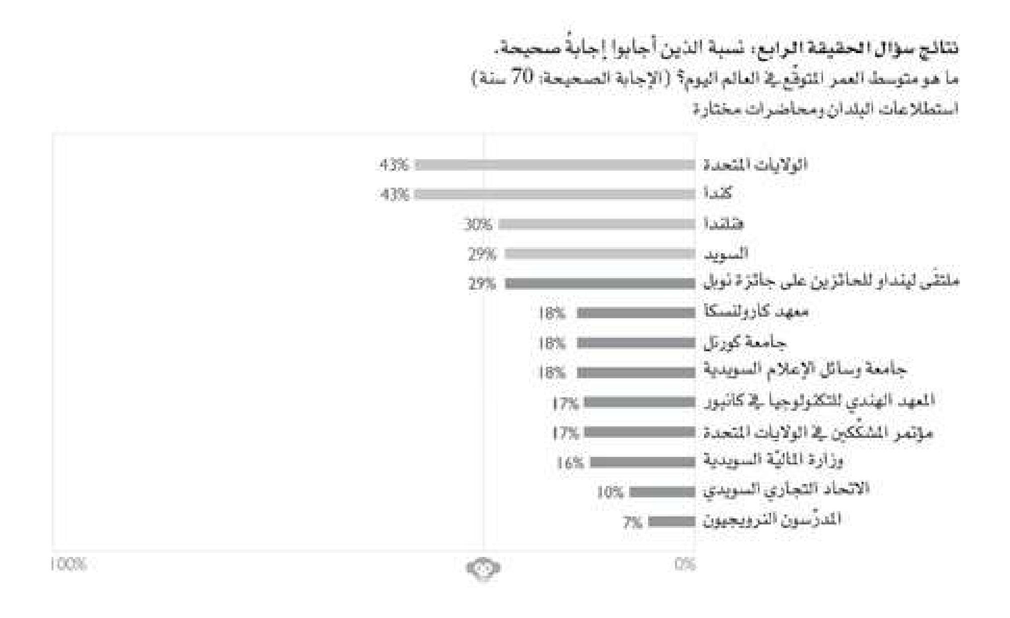
ب: 60 سنة

ج: 70 سنة

إنّ إظهار كلّ أسباب الوفاة والمعاناة في رقمٍ واحد هو أمرٌ شبه مستحيل. ولكنّ متوسط العمر المتوقّع يقدّر ذلك بشكلٍ قريب جدًّا من الواقع. كلّ وفاة طفل، وكلّ وفاة خديج، سواء من الكوارث الطبيعية أو التي يسبّبها الإنسان، وكلّ أمّ تموت أثناء الوضع، وكلّ عمرٍ مديد لكبيرٍ في السنّ يظهر في هذا القياس.

في العام 1800، عندما مات السويديون من الجوع واشتغل الأطفال البريطانيون في مناجم الفحم، كان متوسط العمر المتوقّع هو 30 سنة في كلّ مكان في العالم. هذا ما كان عليه الوضع طوال التاريخ. من بين جميع الأطفال المولودين، مات النصف تقريبًا أثناء طفولتهم. ومات معظم النصف الآخر بين عمرَي الـ50 والـ70 سنة. وهكذا كان متوسط العمر نحو 30 سنة. لا يعني هذا أنّ معظم الناس عاشوا حتى سنّ الثلاثين. إنه مجرّد عمر متوسط، وعندما يتعلّق الأمر بالمتوسطات، علينا أن نتذكّر دومًا أنّ هناك انتشارًا.

متوسط العمر المتوقّع عبر العالم اليوم هو 70. والواقع أنه أفضل من ذلك: إنه 72. إليك نتائج أحد استطلاعات الرأي.



هذا واحدٌ من تلك الأسئلة حيث كلّما كنت أكثر تعليمًا كلّما بدوت أكثر جهلًا.

في معظم البلدان التي أجرينا فيها الاختبار، استطاع الأفراد من عامّة الناس أن يهزموا على وجه التقريب قرود الشمبانزي (التصنيف الكامل لكلّ بلد موجود في الملحق). ولكن في جماهيرنا ذوي التعليم الأعلى، كانت الإجابة الشائعة هي 60 سنة. هذه الإجابة كانت ستكون صحيحة لو أننا طرحنا السؤال في العام 1973 (السنة التي مات فيها 200,000 شخص من الجوع في أثيوبيا). ولكننا طرحناه في هذا العقد، أي بعد أكثر من 40 سنة من التقدّم. يعيش الناس اليوم أكثر بعشر سنوات من متوسط العمر في ذلك الحين. نحن البشر كافحنا دومًا بجهد لإبقاء عائلاتنا على قيد الحياة، ونحن ننجح أخيرًا.



عندما أعرض هذا الرسم البياني المذهل، غالبًا ما يسأل الناس، «ما ذلك الهبوط الأخير هناك؟»، ويشيرون إلى سنة 1960. إذا كنت لا تعرف بالفعل، فهي فرصة عظيمة لي لأشرع في مناقشة المفهوم الخاطئ بأنّ العالم يزداد سوءًا.

هناك هبوط في منحنى متوسط العمر المتوقّع العالمي في العام 1960 لأنّ إلى 40 مليون شخص – لا أحد يعرف العدد بالضبط – ماتوا جوعًا في تلك السنة في الصين، في ما كان ربما أكبر مجاعة عرفها العالم من صنع الإنسان.

كان المحصول الصيني في العام 1960 أقلّ ممّا كان مقرَّرًا بسبب الموسم السيئ والنصيحة الحكومية الرديئة بشأن كيفية زراعة المحاصيل بشكلٍ فعّال أكثر. لم تُرِد الحكومات المحليّة أن تُظهِر نتائج سيئة، ولهذا فقد أخذت كلّ الغذاء

وأرسلته إلى الحكومة المركزية. لم يبقَ أي غذاء. وبعد ذلك بسنة كان المفتّشون المصدومون يرسلون تقارير عيانية لأكل لحوم البشر والجثث الميتة على طول الطرق. أنكرت الحكومة أنّ تخطيطها المركزي قد فشل، وتمّ الإبقاء على الكارثة طيّ الكتمان من قِبَل الحكومة الصينية لمدّة 36 سنة. لم تُوصَف الكارثة باللغة الإنكليزية للعالم الخارجي حتى العام 1996 (فكِّر بالأمر. هل يمكن لأي حكومة اليوم أن تُبقي موت 15 مليون شخص سرًّا عالميًّا؟).

حتى لو كانت الحكومة الصينية قد أخبرت العالم بشأن هذه المأساة، فإنّ برنامج الغذاء العالمي للأمم المتحدة – الذي يوزّع الغذاء اليوم إلى أي مكان في العالم في أمسّ الحاجة إليه – ما كان بمقدوره أن يساعد، لأنه لم يكن موجودًا قبل العام 1961.

من الصعب جدًّا الإبقاء على المفهوم الخاطئ بأنّ العالم يزداد سوءًا عندما نضع الحاضر في سياقه التاريخي. لا ينبغي أن نقلّل من قدر مآسي الجفاف والمجاعات الحادثة الآن. ولكنّ المعرفة بمآسي الماضي يجب أن تساعد كلّ واحد منّا لأن يدرك كيف أصبح العالم أكثر شفافيةً بكثير وأفضل إلى حدٍّ كبير في الحصول على المساعدة أينما احتيج إليها.

لقد وُلِدت في مصر

موطني السويد هو اليوم في المستوى 4 وواحدٌ من أغنى البلدان في العالم وأكثرها صحّة (قولنا أنّ بلدًا ما في المستوى 4 يعني أنّ الشخص العادي في ذلك البلد يعيش في المستوى 4. وهذا لا يعني أنّ كلّ شخص في السويد يعيش في المستوى 4. تذكّر أنّ المتوسّطات تخفي الانتشارات). ولكنه لم يكن دومًا كذلك.

والآن سأُريك رسمي البياني المفضّل. هناك نسخةٌ ملوّنة منه على الغلاف الداخلي الأمامي لهذا الكتاب. أنا أُسمّيه مخطّط الصحة العالمي وهو مثل خريطة عالمية للصحة والثروة. كما في الرسم البياني الفقّاعي الذي رأيته في الفصل السابق، يُمثِّل كلّ بلد بفقّاعة، حيث حجم الفقّاعة يُظهِر الحجم السكّاني للبلد. كذلك، تقع البلدان الأفقر على اليسار والبلدان الأغنى على اليمين، والبلدان الأكثر صحّة في أعلى الرسم، وتلك الأقلّ صحّة في أسفل الرسم.

لاحِظ أنه ليس هناك مجموعتان. العالم ليس منقسِمًا إلى جزأَين. هناك بلدان

في كلّ المستويات، من البلدان الفقيرة المتأخّرة صحيًّا في الزاوية اليسرى السفلى إلى البلدان الغنية المزدهرة صحيًّا في الزاوية اليمنى العليا، حيث تقع السويد. ومعظم البلدان تقع في الوسط.

والآن هذه المعلومة الصغيرة التالية مشوِّقة.

يُظهِر مسار الفقّاعات الصغيرة صحّة وثروة السويد في كلّ سنة منذ العام 1800. يا له من تقدّم هائل! قمت بإبراز بعض البلدان التي تتوافق، في العام 2017، مع سنوات هامّة من ماضي السويد.

صحّة وثروة السويد منذ العام 1800 إلى اليوم

كانت 1948 سنةً هامّةً جدًّا. انتهت الحرب العالمية الثانية، وتصدّرت السويد قائمة الميداليّات في الألعاب الأولمبية الشتوية، وهي السنة التي وُلِدت فيها. إنّ السويد التي وُلِدت فيها في العام 1948 كانت حيث مصر اليوم في خريطة الصحّة والثروة. هذا يعني أنها كانت تمامًا في وسط المستوى 3. كانت الظروف الحياتية في خمسينيّات القرن الماضي في السويد مماثلة لتلك في مصر أو في بلدان أخرى في المستوى 3 اليوم. كان لا يزال هناك قنوات مجارير مفتوحة ولم يكن من غير المألوف أن يغرق الأطفال في مسطّحات مائية قريبة من البيت. عمل الآباء بكدّ في المستوى 3، بعيدًا عن أطفالهم، ولم تكن الحكومة قد فرضت بعد أنظمةً لإحاطة المسطّحات المائية بأسيجة.

استمرّت السويد بالتحسُّن طوال سنوات حياتي. خلال الخمسينيّات والستينيّات، حقّقت تقدُّمًا على طول الطريق من مصر اليوم إلى ماليزيا اليوم. في العام 1975، السنة التي وُلِد فيها أُولا وآنا، كانت السويد مثل ماليزيا اليوم، على وشك أن تدخل المستوى 4.

دعنا نرجع للخلف الآن. في العام 1921، السنة التي وُلِدت فيها أمي، كانت السويد مثل زامبيا اليوم. يعني في المستوى 2.

كانت جدّتي العضو الليسوتوي في عائلتنا. عندما وُلِدَت في العام 1891، كانت السويد مثل ليسوتو اليوم. ليسوتو هي الدولة ذات متوسط العمر المتوقّع الأقصر في العالم اليوم، على الحدّ تمامًا بين المستويَين 1 و2، في فقر مدقع تقريبًا. غسلت جدّتي بيديها كلّ غسيل عائلتها المؤلّفة من تسعة أفراد طوال حياتها الراشدة. ولكن مع تقدّمها في السنّ، شهدت معجزة التطوّر حيث وصلت هي والسويد على حدّ سواء إلى المستوى 3. في نهاية حياتها، كان لديها حنفية مياه باردة داخل البيت ومرحاض في القبو: هذا ترف مقارنةً بطفولتها، عندما لم تكن هناك مياه جارية. كان جدّاي وجدّتاي يعرفون التهجئة والعدّ، ولكن لم يكن أي منهم متعلّمًا بما يكفي ليقرأ من أجل المتعة.لم يكن باستطاعتهم أن يقرأوا لي كتابًا للأطفال، ولا أن يكتبوا رسالة. لم يحظَ أي منهم بأكثر من أربع سنوات في المدرسة. كان مستوى معرفة القراءة والكتابة في السويد في جيل أجدادي مثل ذاك الذي وصلت إليه الهند اليوم، التي هي الآن في المستوى 2.

وُلِدت جدّتي الكبرى في العام 1863، حين كان متوسط مستوى الدخل في

السويد مثل ذاك في أفغانستان اليوم، تمامًا في المستوى 1، حيث غالبية السكّان يعيشون في فقر مدقع. لم تنسَ جدّتي الكبرى أن تخبر ابنتها، أي جدّتي، كم كانت الأرضية الطينية باردة في الشتاء. ولكنّ الناس اليوم في أفغانستان وبلدان أخرى في المستوى 1 يعيشون حياة أطول بكثير ممّا فعل السويديون في العام 1863. وهذا لأنّ التحديثات الأساسية قد وصلت إلى معظم الناس وحسّنت حياتهم بشكلٍ كبير. لديهم أكياس بلاستيكية لحفظ ونقل الطعام. ولديهم دلاء بلاستيكية لحمل الماء وصابون لقتل الجراثيم. ومعظم أطفالهم ملقّحون. ومتوسّط عمرهم أعلى بـ30 سنة من ذاك للسويديين في العام 1800، حين كانت السويد في المستوى 1. هذا هو حجم التحسّن الذي شهدته الحياة حتى في المستوى 1.

بلدك أيضًا كان وما زال يتحسّن بشكلٍ هائل. يمكنني أن أقول هذا بثقة رغم أني لا أعرف أين تعيش، لأنّ متوسط العمر المتوقّع تحسّن على مدى الـ200 سنة الأخيرة في كلّ بلاد العالم. والواقع أنّ جميع البلدان، باستثناء قلّة منها، قد تحسّنت في كلّ وجه من أوجه الحياة تقريبًا[2].

32 تحسُّنًا إضافيًّا

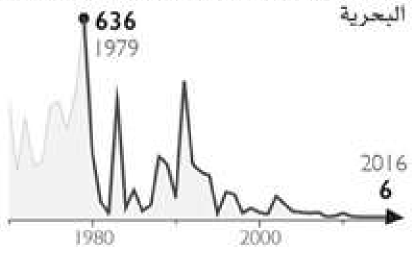
هل ما زال العالم في رأسك يزداد سوءًا؟ استعدّ إذن لمجابهة بيانية شاقّة. سأعرض عليك 32 تحسُّنًا إضافيًّا.

لكلّ واحدٍ منها، يمكنني أن أحكي قصة مماثلة لتينك اللتَين حكيتهما عن الفقر المدقع ومتوسط العمر المتوقّع. وللعديد منها، يمكنني أن أريك أنّ الناس أكثر سلبيةً على الدوام ممّا تقوله البيانات (وحيث لا يمكنني ذلك، فهذا لأننا لم نطرح هذه الأسئلة بعد).

ولكن لا يمكنني أن أضع كلّ هذه الشروحات في هذا الكتاب، ولهذا إليك المخطّطات فقط. دعنا نبدأ بـ16 شيئًا رهيبًا في طريقه إلى التلاشي، أو أنه قد تلاشى بالفعل. ومن ثمّ، دعنا ننظر إلى 16 شيئًا رائعًا تحسّن بالفعل.

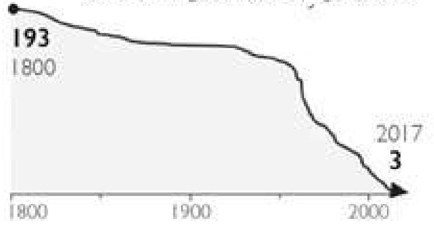
تسرّبات النفط

1.000 طنّ من النفط المندلق من ناقلات النفط البحرية



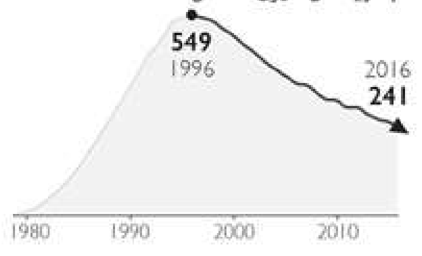
العبودية القانونية

البلدان التي يُعتبَر فيها العمل القسري قانونيًا أو يُمارَس من قِبَل الدولة (من أصل 194)



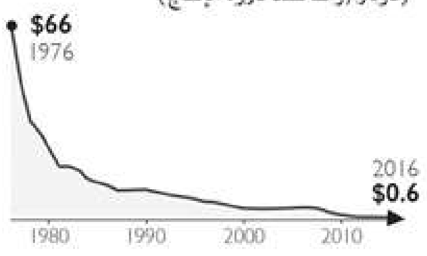
الإصابات بفيروس نقص المناعة البشرية

الإصابات الجديدة بفيروس نقص المناعة البشرية لكلّ مليون شخص



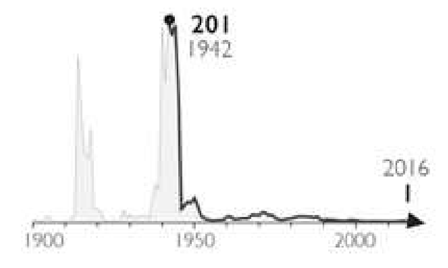
الألواح الشمسية الباهظة الثمن

متوسط السعر لوحدات الطاقة الكهروضوئية (دولار/واط عند ذروة الإنتاج)



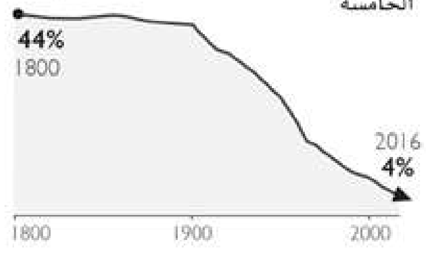
وفيّات المعارك

وفيّات المعارك لكلّ 100.000 شخص



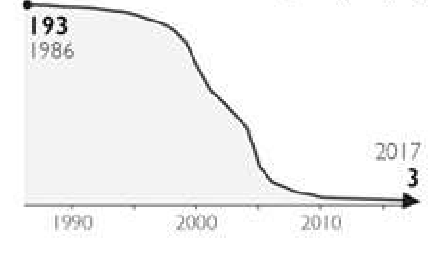
موت الأطفال

نسبة الأطفال الذين يموتون قبل بلوغهم سنّ الخامسة



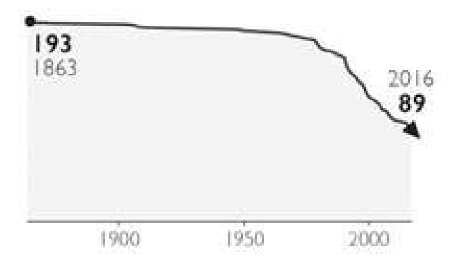
البنزين المعالَج بالرصاص

البلدان التي تسمح باحتواء البنزين على رصاص (من أصل 194)



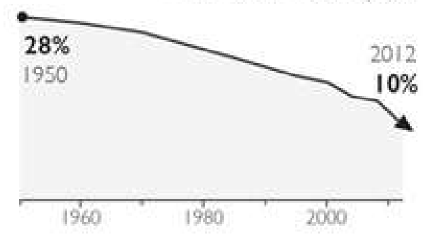
عقوبة الإعدام

البلدان التي تطبّق عقوبة الإعدام (من أصل 194)



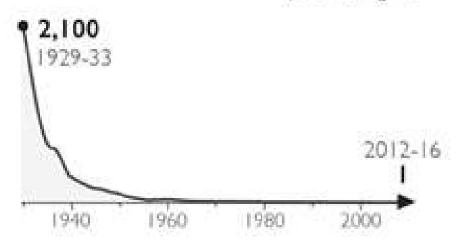
عمل الأطفال

نسبة الأطفال بعمر 14-5 سنة الذين يعملون بدوام كامل تحت ظروف سيئة



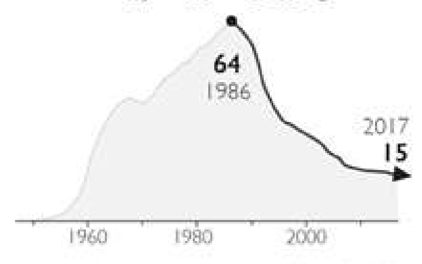
الوفيات جراء تحطم الطائرات

الوفيات لكل 10 مليارات ميل راكب (متوسط 5 سنوات متتالية)



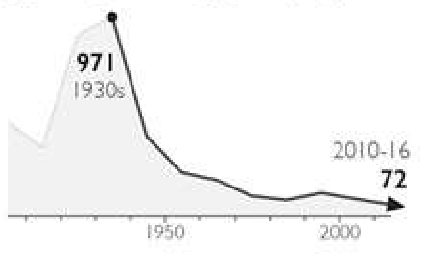
الأسلحة النووية

1.000 من الرؤوس الحربية النووية



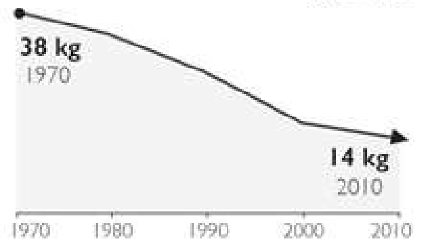
الوفيات جراء الكوارث

1.000 وفاة/ سنة (متوسط 10 سنوات متتالية)



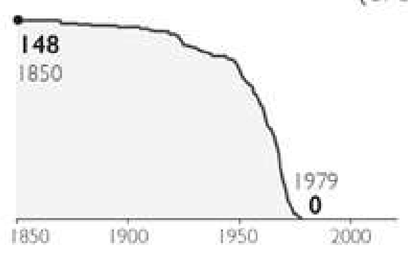
دقائق الدخان

دقائق ثاني أكسيد الكبريت بالكيلوغرام المنبعثة لكل شخص



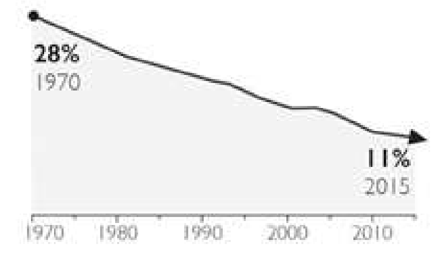
الجدري

البلدان المشتملة على حالات جدري (من أصل 194)



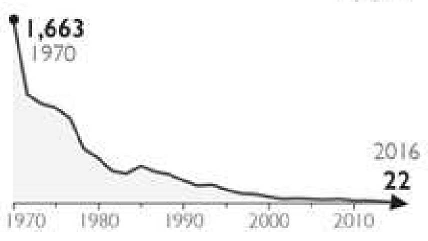
الجوع

نسبة الناس المصابين بسوء التغذية



استنزاف الأوزون

1.000 طنّ من المواد المستخدمة المستنزفة للأوزون



الطبيعة المحميّة

نسبة الأراضي المحميّة كحدائق وطنية وغيرها من الأراضي المفردة لأغراض خاصة

1900 0.03% — 14.7% 2016

1900 1950 2000

الأفلام الجديدة

عدد الأفلام الطويلة الجديدة كلّ سنة

1906 1 — 11,000 2016

1920 1940 1960 1980 2000

الموسيقى الجديدة

التسجيلات الموسيقية الجديدة كلّ سنة

1860 1 — 6,210,002 2015

1900 1950 2000

حقّ النساء في الاقتراع

البلدان التي يتساوى فيها الرجال والنساء في حقّ الاقتراع (من أصل 194)

1893 1 — 193 2017

1900 1950 2000

الحصاد

محاصيل الحبوب (ألف كلغ لكلّ هكتار)

1961 1.4 — 4 2014

1970 1980 1990 2000 2010

العلم

المقالات العلمية المنشورة كلّ سنة

1665 119 — 2,550,000 2016

1700 1800 1900 2000

الديموقراطية

نسبة البشر الذين يعيشون في ديموقراطية

1816 1% — 56% 2015

1850 1900 1950 2000

معرفة القراءة والكتابة

نسبة الراشدين (15 سنة فأكثر) ذوي المهارات الأساسية للقراءة والكتابة

1800 10% — 86% 2016

1800 1900 2000

الفتيات في المدرسة

نسبة الفتيات المسجّلات في المدارس الابتدائية

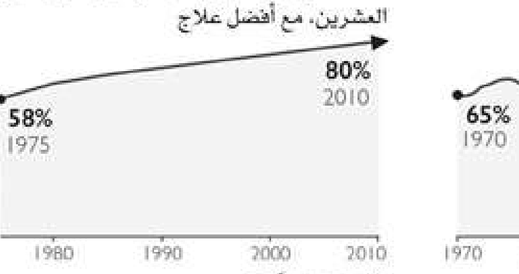
65% 1970

90% 2015

1970 1980 1990 2000 2010

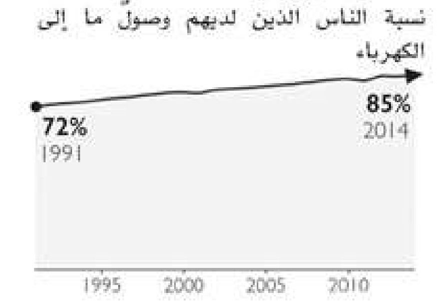
معدّل البقاء على قيد الحياة للأطفال المصابين بالسرطان

البقاء على قيد الحياة 5 سنوات لأولئك المشخّصين بإصابتهم بالسرطان قبل سنّ العشرين، مع أفضل علاج



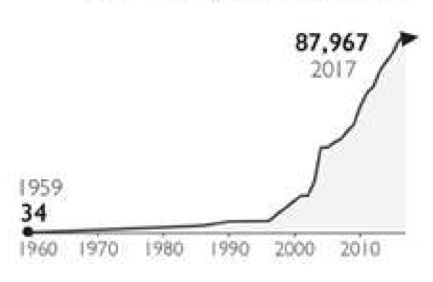
التغطية الكهربائية

نسبة الناس الذين لديهم وصولٌ ما إلى الكهرباء



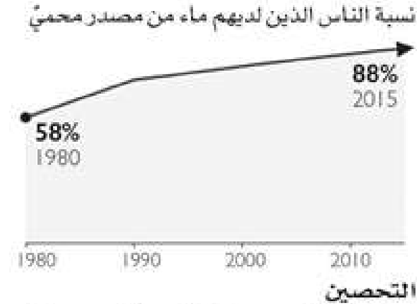
الأنواع المراقَبة

الأنواع المدرَجة ذات وضع التهديد المقيّم



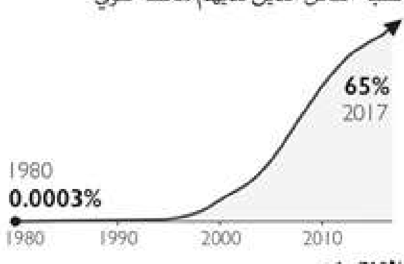
الماء

نسبة الناس الذين لديهم ماء من مصدر محميّ



الهواتف النقّالة

نسبة الناس الذين لديهم هاتف خلوي



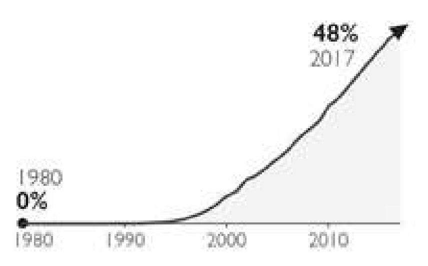
التحصين

نسبة الأطفال بعمر سنة واحدة الذين حصلوا على تلقيح واحد على الأقلّ



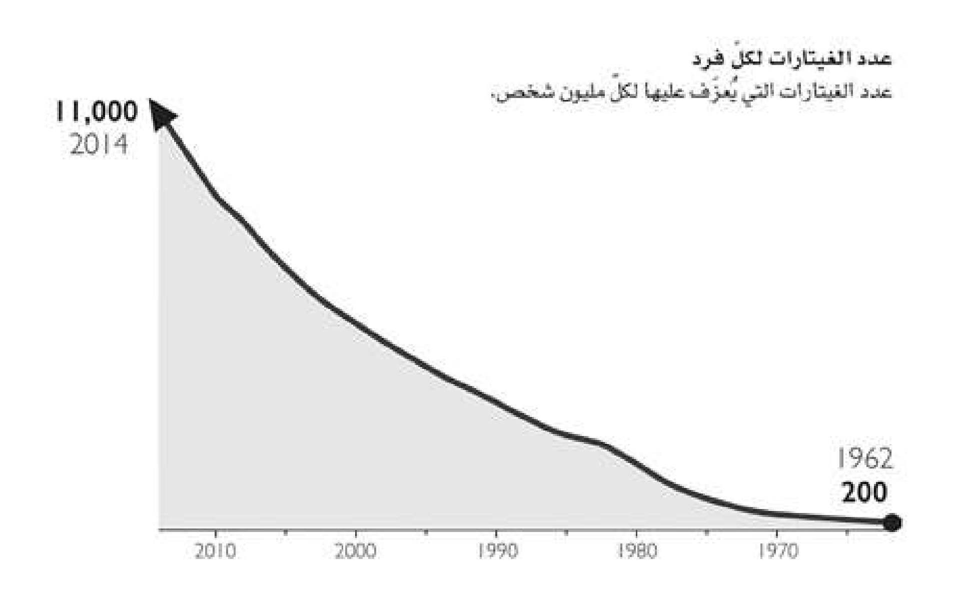
الإنترنت

نسبة الناس الذين يستخدمون الإنترنت



من الصعب أن ترى أي من هذا التقدّم العالمي بالنظر خارجًا من نافذة غرفتك. يحدث هذا التقدّم ما وراء الأفق. ولكن هناك بعض الدلائل التي يمكنك أن تلحظها، إذا ركّزت انتباهك. استمع جيدًا، هل يمكنك أن تسمع طفلًا يتدرّب على الغيتار أو البيانو؟ هذا الطفل لم يغرق، وهو بدلًا من ذلك يختبر الفرح والحرية في عزف الموسيقى.

إنّ هدف الدخل الأعلى لا يعني فقط أكوامًا أكبر من المال. وهدف الحياة المديدة لا يعني فقط المزيد من الوقت. الهدف النهائي هو أن نملك الحريّة لنفعل ما نشاء. بالنسبة لي، أنا أحبّ السيرك، ولعب ألعاب الكمبيوتر مع أحفادي، والتنقّل عبر قنوات التلفاز. قد يكون من الصعب قياس غايتَي التطوّر، ألا وهما الثقافة والحريّة، ولكنّ عدد الغيتارات لكلّ فرد هو قياس بديل جيد. حقًّا، لقد تحسّن ذلك بشكلٍ هائل. بوجود إحصاءات جميلة مثل هذه، كيف يمكن لأي أحد أن يقول أنّ العالم يزداد سوءًا؟



غريزة السلبية

يرجع سبب ذلك، في جزءٍ كبيرٍ منه، إلى غريزة السلبية لدينا: غريزتنا لملاحظة السيئ أكثر من الجيد. هناك ثلاثة أمور تجري هنا: سوء تذكُّر الماضي، والتقارير الإخبارية المنتقاة من قِبَل الصحفيين والناشطين، والشعور بأنه ما دامت الأمور سيئة، فمن القسوة أن نقول إنها تتحسّن.

انذار: الأشياء في ذاكرتك كانت أسوأ مّما تبدو

على مدى قرون، أضفى كبار السنّ رومانسية على شبابهم وأصرّوا أنّ الأمور لم تعد كما كانت. حسنًا، هذا صحيح، ولكن ليس بالطريقة التي يعنونها. كانت معظم الأمور أسوأ، لا أحسن. ولكن من السهل للغاية بالنسبة للبشر أن ينسوا كيف «كانت» الأمور بالفعل.

في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وحدهم الطاعنون في السنّ، الذين عاشوا خلال الحرب العالمية الثانية أو فترة الكساد الكبير، لديهم ذكريات شخصية للحرمان الشديد والجوع قبل بضعة عقود فقط. وحتى في الصين والهند، حيث مثّل الفقر المدقع واقع الغالبية العظمى من الناس قبل جيلَين فقط، نجد أنه الآن منسيٌّ تقريبًا من قِبَل الناس الذين يعيشون في بيوت لائقة، ويلبسون ثيابًا نظيفة، ويقودون درّاجات ناريّة.

كتب المؤلّف السويدي والصحفي لاسي بيرغ تقريرًا ممتازًا عن الهند الريفية في سبعينيّات القرن الماضي. عندما عاد بعد ذلك بـ25 سنة، استطاع أن يرى بوضوح كم تحسّنت ظروف الحياة. أظهرت الصور من زيارته في السبعينيّات أرضيّات ترابية، وجدرانًا طينية، وأطفالًا نصف عراة، وعيونًا لقرويين ذوي معرفة قليلة بالعالم الخارجي وتقديرٍ متدنٍّ للنفس. تباينت هذه الصور بشكلٍ صارخ مع منازل الإسمنت في أواخر تسعينيّات القرن الماضي، حيث لعب الأطفال المهندَمون، وشاهد القرويون الفضوليّون المعتدّون بأنفسهم التلفاز. عندما عرض لاسي صور السبعينيّات على القرويين لم يستطيعوا أن يصدّقوا أنّ الصور قد أُخِذت في حيّهم. قالوا، «لا. لا يمكن أن يكون هذا هنا. لا بدّ أنك مخطئ. لم نكن أبدًا بهذا الفقر». مثل معظم الناس، كانوا يعيشون اللحظة، مشغولين بالمشاكل الجديدة، مثل مشاهدة الأطفال لعروض درامية لاأخلاقية أو عدم امتلاكهم ما يكفي من المال لشراء درّاجة ناريّة.

ما وراء الذاكرة الحيّة، نحن نتجنّب لسببٍ ما تذكير أنفسنا وأطفالنا بتعاسات

وقساوات الماضي. يمكن إيجاد الحقيقة في المقابر القديمة ومواقع الدفن، حيث اعتاد علماء الآثار أن يكتشفوا أنّ قسمًا كبيرًا من كلّ البقايا التي يستخرجونها بالتنقيب هي فعليًّا لأطفال. قُتِل معظمهم بسبب الجوع أو من جراء أمراض بشعة، ولكنّ العديد من هياكل الأطفال العظمية يشتمل على علامات للعنف الجسدي. غالبًا ما تتجاوز معدّلات جرائم القتل في مجتمعات الصيادين والحاصدين نسبة الـ10 بالمائة، والأطفال غير مُستثنين من هذه النسبة. في مقابر اليوم، قبور الأطفال نادرة.

التقارير الإخبارية الانتقائية

نحن خاضعون لسلاسل لا تنتهي من الأخبار السلبية من جميع أنحاء العالم: الحروب، والمجاعات، والكوارث الطبيعية، والأخطاء السياسية، والفساد، وتخفيضات الميزانية، والأمراض، والتسريح الجماعي، والأعمال الإرهابية. الصحفيون الذين ينقلون أخبارًا عن رحلات جوية لطائرات لم تتحطّم أو محاصيل لم تفشل سرعان ما يفقدون وظائفهم. نادرًا ما تحتلّ قصص التحسّنات التدريجية عناوين الصفحة الأولى، حتى لو كانت تحدث على مقياس دراماتيكي وتؤثّر على ملايين الناس.

بفضل الحرية المتزايدة للصحافة والتحسّن المستمرّ في التكنولوجيا، نحن نسمع المزيد، عن المزيد من الكوارث، ممّا فعلنا قبلًا. عندما ذبح الأوروبيّون السكّان الأصليين في أنحاء أمريكا قبل بضعة قرون، لم يبرز هذا الخبر في ذلك الوقت في العالم القديم. وعندما أدّى التخطيط المركزي إلى مجاعة جماعية في الصين الريفية، مات الملايين من الناس جوعًا بينما كان الشباب الملوّحون بالأعلام الحمراء الشيوعية في أوروبا لا يعرفون شيئًا عن الأمر. عندما دُمِّرت في الماضي أنواعٌ أو أنظمة بيئية بأكملها، لم يدرك أحدٌ الموضوع أو حتى يوليه اهتمامه. في موازاة كلّ التحسّنات الأخرى، تحسّنت مراقبتنا للمعاناة بشكلٍ هائل. هذا النقل المحسَّن للأخبار هو في حدّ ذاته علامة على تقدّم البشر، ولكنه يخلق انطباعًا بالعكس تمامًا.

يظنّ معظم الناس على الدوام أنّ الجريمة في ارتفاع

طرحت مؤسّسة غالوب لاستطلاع الرأي السؤال التالي، «هل الجريمة في الولايات المتحدة اليوم أكثر ممّا كانت قبل سنة، أم أقلّ؟

100%

50%

نسبة الناس الذين أجابوا: «أكثر»

0%

2015 2010 2005 2000 1995 1990

التصوُّر:

الواقع:

الجرائم المبلَّغ عنها في الولايات المتحدة (ملايين)

15

10

5

0

2015 2010 2005 2000 1995 1990

في الوقت نفسه، يتدبّر الناشطون ومجموعات الضغط بمهارة أن يجعلوا كلّ هبوط في الاتجاه السائد يبدو وكأنه نهاية العالم، حتى لو كان الاتجاه العامّ يتحسّن بوضوح، مُخوِّفين إيانا بأكثر المبالغات والتنبّؤات إرجافًا. على سبيل المثال، اتّبع معدّل الجريمة العنيفة في الولايات المتحدة اتجاهًا نزوليًّا منذ العام 1990. تمّ التبليغ عن أقلّ من 14.5 مليون جريمة في العام 1990. في العام 2016، انخفض هذا الرقم إلى أقلّ من 9.5 مليون. في كلّ مرّة حدث فيها شيء رهيب أو مروِّع، وهو ما كان يحدث بالفعل كلّ سنة، نقل الصحفيون خبرًا عن أزمة. تعتقد أغلبية الناس، في الغالبية العظمى من الوقت، أنّ الجريمة العنيفة تزداد سوءًا.

لا عجب أن يتولّد لدينا وهمٌ بالتدهور المستمرّ. تُنبّهنا الأخبار باستمرار للأحداث السيئة في الوقت الحاضر. هذا الشعور المثقل بالشؤم الذي يخلقه هذا الوضع فينا يزداد شدّةً بسبب عجزنا عن تذكّر الماضي. معرفتنا التاريخية وردية

وقرنفلية ونفشل في تذكّر أنه قبل سنة واحدة، أو قبل عشر سنوات، أو قبل 50 سنة، كان هناك العدد نفسه من الأحداث الرهيبة، وربما أكثر. وهْمُ التدهور هذا يسبّب إجهادًا كبيرًا لبعض الناس ويجعل البعض الآخر أقلّ أملًا. دون سبب وجيه.

يشعرون، لا يفكّرون

ثمّة شيء آخر يحدث أيضًا. ما الذي يفكّر به الناس فعلًا عندما يقولون أنّ العالم يزداد سوءًا؟ تخميني هو أنهم لا يفكّرون. إنهم يشعرون. إذا كنت لا تزال تشعر أنك لا تستطيع أن توافق بارتياح على أنّ العالم يتحسّن، حتى بعد أن عرضت عليك كلّ هذه البيانات الجميلة، فتخميني هو أنك تفعل ذلك لمعرفتك بأنّ المشاكل الضخمة لا تزال موجودة. تخميني هو أنك تشعر أنّ قولي بأنّ العالم يتحسّن هو مثل قولي لك بأنّ كلّ شيء على ما يرام، أو أنك يجب أن تتجاهل هذه المشاكل وتتظاهر أنها ليست موجودة: وهذا يبدو سخيفًا، ومُجهِدًا.

أوافقك الرأي. ليس كلّ شيء على ما يرام. يجب أن نكون قلقين جدًّا. طالما أنّ هناك حوادث تحطّم للطائرات، ووفيّات أطفال يمكن تجنّبها، وأنواعًا مهدّدة بالانقراض، ومنكرين لتغيّر المناخ، وشوفينيين ذكور، ودكتاتوريين مجانين، ونفايات سامّة، وصحفيين في السجون، وفتيات لا يحصلن على التعليم لأنهن إناث، طالما أنّ أي من هذه الأمور الرهيبة لا يزال موجودًا، لن يكون بإمكاننا أن نسترخي.

ولكن من السُّخف بنفس القدر، ومن المجهِد بنفس القدر، أن نتجاهل التقدُّم المحرَز. غالبًا ما يصفني الناس بأني متفائل، لأني أريهم التقدّم الهائل الذين هم غافلون عنه. هذا يثير غضبي. أنا لست متفائلًا. يجعلني هذا أبدو ساذجًا. أنا «إمكانيّ» جدِّيٌّ جدًّا. هذا مصطلح من ابتكاري، وهو يعني شخصًا لا يأمل بدون سبب، ولا يخاف بدون سبب، شخصًا يقاوم باستمرار النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط. كإمكانيّ، أنا أرى كلّ هذا التقدّم، وهو يملأني بالإيمان الراسخ والأمل بإمكانية إحراز مزيد من التقدّم. ليس هذا تفاؤلًا. إنه امتلاك فكرة واضحة ومعقولة حول حقيقة الأمور. إنه امتلاك نظرة عالمية بنّاءة ومفيدة.

عندما يعتقد الناس مخطئين بأن لا شيء يتحسّن، فقد يستنتجون أن لا شيء جربّناه حتى الآن قد أثبت جدواه ويفقدون الثقة في التدابير الناجحة فعلًا. ألتقي العديد من هؤلاء الناس، الذين يخبرونني أنهم فقدوا كلّ الأمل في تحسّن البشرية،

أو أنهم قد أصبحوا راديكاليين، داعمين للإجراءات المتطرّفة ذات النتيجة العكسية، في حين أنّ الطرق التي نستخدمها الآن لتحسين عالمنا تبدو ناجحة تمامًا.

خذ، على سبيل المثال، تعليم الفتيات. أثبت تعليم الفتيات أنه إحدى أفضل الأفكار في العالم. عندما تكون النساء متعلّمات، تحدث كلّ أنواع الأمور الرائعة في المجتمعات. تصبح القوّة العاملة متنوّعة وقادرة على اتّخاذ قرارات أفضل وحلّ مشاكل أكثر. تقرّر الأمهات المتعلّمات إنجاب عدد أقلّ من الأطفال ويبقى عددٌ أكبر من الأطفال على قيد الحياة. يُستثمَر المزيد من الوقت والطاقة في تعليم كلّ طفل. إنها دائرة تغيير فعّالة.

غالبًا ما يعطي الآباء الفقراء، الذين لا تسمح ميزانيّتهم بإرسال كلّ أطفالهم إلى المدرسة، أولويّة التعليم للصبيان. ولكن منذ العام 1970 حدث تقدّم رائع. عبر الأديان، والثقافات، والقارات، أصبح الآن بإمكان كلّ الآباء تقريبًا إرسال كلّ أطفالهم إلى المدرسة، وهم يرسلون بناتهم بالإضافة إلى أبنائهم. التحقت الفتيات الآن بالركب: 90 بالمائة من الفتيات في عمر التعليم الابتدائي يذهبن إلى المدرسة. بالنسبة إلى الصبيان، الرقم هو 92 بالمائة. ليس هناك فارق يُذكَر.

لا تزال الاختلافات بين الجنسَين قائمة عندما يتعلّق الأمر بالتعليم في المستوى 1، خصوصًا في ما يتعلّق بالتعليم الثانوي والجامعي، ولكن ليس هذا سببًا لإنكار التقدّم الحادث. لا أرى تضاربًا بين الاحتفال بهذا التقدّم والاستمرار في الكفاح من أجل المزيد. أنا إمكانيّ، والتقدّم الذي حقّقناه يخبرني أنه من الممكن إلحاق كلّ الفتيات بالمدرسة، وكلّ الصبيان أيضًا، وأننا يجب أن نعمل بكدّ لتحقيق ذلك. لن يحدث هذا من تلقاء نفسه، وإذا فقدنا الأمل بسبب المفاهيم الخاطئة الغبيّة، فقد لا يحدث على الإطلاق. لعلّ فقدان الأمل هو أكثر عواقب غريزة السلبية تدميرًا لما يتسبّب به من جهل.

كيفية السيطرة على غريزة السلبية

كيف يمكننا أن نساعد أدمغتنا على إدراك أنّ الأمور تتحسّن، بالرغم من أنّ كلّ شيء يصرخ فينا أنّ الأمور تزداد سوءًا؟

السيئ والأفضل

ليس الحلّ في موازنة كلّ الأخبار السلبية بأخبار أكثر إيجابية. سيؤدّي هذا

فقط إلى المخاطرة بخلق تحيّز مضلِّل، خادع، ومطمئِن في الاتجاه الآخر. سيكون هذا مفيدًا بقدر موازنة الكثير جدًّا من السكّر بالكثير جدًّا من الملح. سيجعل الأمور أكثر تشويقًا، ولكن ربما أقلّ فائدةً.

أحد الحلول الناجحة بالنسبة لي هو أن أقنع نفسي بأن أُبقي على فكرتَين في رأسي في آنٍ واحد.

يبدو أننا عندما نسمع أحدهم يقول أنّ الأمور تتحسّن، نظنّ أنهم يقولون أيضًا «لا تقلق، استرخ» أو حتى «تجاهل». ولكن عندما أقول أنّ الأمور تتحسّن، أنا لا أقول تلك الأشياء على الإطلاق. أنا بكلّ تأكيد لا أؤيّد تجاهل المشاكل الرهيبة في العالم. ما أقوله هو أنّ الأمور يمكن أن تكون سيئة وأفضل على حدّ سواء.

فكّر بالعالم كخديج في حاضنة. حالة الرضيع الصحية سيئة للغاية، ويتمّ مراقبة تنفّسه، ومعدّل دقّات قلبه، وغيرهما من الإشارات الهامّة باستمرار كي يُصار بسرعة إلى رؤية التغيّرات إلى الأفضل أو الأسوأ. بعد أسبوع، يتحسّن الرضيع إلى درجة كبيرة. في جميع القياسات الرئيسية، الرضيع يتحسّن، ولكن لا بدّ من إبقائه في الحاضنة لأنّ صحته لا تزال حرجة. هل من المنطقي أن نقول أنّ وضع الرضيع يتحسّن؟ نعم، بكلّ تأكيد. هل من المنطقي أن نقول أنّ وضعه سيئ؟ نعم، بكلّ تأكيد. هل قولنا أنّ «الأوضاع تتحسّن» يقتضي أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنه ينبغي علينا جميعًا أن نسترخي ولا نقلق؟ لا، على الإطلاق. هل من المفيد أن نضطر إلى الاختيار بين السيئ والمتحسِّن؟ حتمًا لا. إنه الأمران معًا. إنه سيئ وأفضل معًا. أفضل، وسيئ، في الوقت نفسه.

تلك هي الطريقة التي يجب أن نفكّر بها بشأن الوضع الحالي للعالم.

توقّع أخبارًا سيئة

ثمّة شيء آخر يساعد في السيطرة على غريزة السلبية، وهو أن نتوقّع باستمرار أخبارًا سيئة.

تذكّر أنّ وسائل الإعلام والناشطين يعتمدون على الدراما لأسر انتباهك. تذكّر أنّ القصص السلبية أكثر دراماتيكيةً من القصص المحايدة أو الإيجابية. تذكّر كم هو سهل أن نؤلّف قصة أزمة من هبوط مؤقّت سُحِب من سياقه لتحسُّن طويل الأمد. تذكّر أننا نعيش في عالم متصل وشفّاف حيث نقلُ أخبار المعاناة في وضعٍ أفضل

ممّا كان عليه في أي وقت مضى.

عندما تسمع عن شيء رهيب، هدِّئ نفسك بطرح أسئلة كالتالي: لو كان هناك تحسّن إيجابي كبير بنفس القدر، هل كنت سأسمع عنه؟ حتى لو كان هناك مئات من التحسّنات الأكبر، هل كنت سأسمع عنها؟ هل سأسمع في حياتي عن أطفال لم يغرقوا؟ هل يمكنني أن أرى انخفاضًا في حوادث غرق الأطفال، أو في وفيّات السلّ، من خارج نافذتي، أو في نشرة الأخبار، أو في المادة الإعلانية لمؤسّسة خيرية؟ تذكّر أنّ التغيّرات الإيجابية قد تكون أكثر شيوعًا، ولكنها لا تجدك. عليك أنت أن تجدها (وإذا نظرت في الإحصاءات، ستجدها في كلّ مكان).

سيوفِّر لك هذا المذكِّر الحماية الأساسية التي تتيح لك، ولأطفالك، أن تستمرّوا في مشاهدة الأخبار دون أن تنساقوا في عالم الواقع المرير على أساس يومي.

لا تُخضِع التاريخ للرقابة

عندما نتشبّث بنسخة وردية اللون للتاريخ، نحن نحرم أنفسنا وأطفالنا من الحقيقة. إنّ الدليل على الماضي الرهيب مُفزِعٌ بالفعل، ولكنه موردٌ عظيم. يمكنه أن يساعدنا في تقدير ما لدينا اليوم وأن يمدّنا بالأمل بأنّ الأجيال المستقبلية ستتغلّب، كما فعلت الأجيال السابقة، على الهبوطات وتستمرّ في التوجّه الطويل الأمد نحو السلام، والازدهار، والحلول لمشاكلنا العالمية.

أودّ أن أشكر... المجتمع

مكافحًا لإنقاذ نفسي في ذلك الخندق المليء بمياه المجاري قبل 65 سنة في حيّ من أحياء الطبقة العاملة في السويد، لم أكن أعرف أني سأكون العضو الأوّل في عائلتي الذي سيدخل الجامعة. لم أكن أعرف أني سأصبح بروفيسورًا في الصحة العالمية وأسافر إلى دافوس وأخبر خبراء العالم أنّ معرفتهم بالاتجاهات العالمية الأساسية أقلّ من تلك لقرود الشمبانزي.

بالطبع، أنا أيضًا لم أكن أعرف أيًّا من الاتجاهات العالمية الأساسية في ذلك الحين. كان عليّ أن أتعلّمها. الطريقة الوحيدة التي يمكن بها لأي شخص أن يعرف بشأن الأسباب المختلفة للوفاة وكيفية تغيّرها هي تتبّع كلّ وفاة وسببها، وكتابتها، ومن ثمّ جمعها. يستغرق هذا الكثير جدًّا من الوقت. هناك مجموعة واحدة لمثل هذه

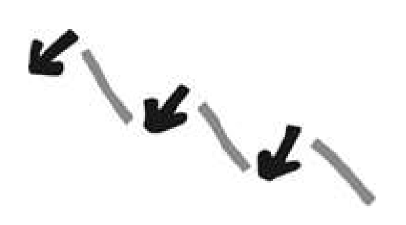
البيانات في العالم أجمع، تُعرَف باسم عبء المرض العالمي، وعندما راجعتها بعد ذلك بسنوات عديدة تبيّن لي أنّ تجربتي القريبة من الموت لم تكن غير اعتيادية. كانت نوعًا شائعًا من الحوادث للأطفال الذين هم دون سنّ الخامسة الذين يعيشون في المستوى 3.

كلُّ ما عرفته هو أنني كنت عالقًا. جاءت جدّتي لنجدتي ورفعتني. ومن ثمّ رفعني المجتمع السويدي أكثر.

خلال كامل حياتي، انتقلت السويد من المستوى 3 إلى المستوى 4. تمّ ابتكار علاج لمرض السلّ وتحسّنت صحّة والدتي. كانت تقرأ لي كتبًا استعارتها من المكتبة العامّة. أصبحتُ أوّل فرد في عائلتي يحصل على أكثر من ستّ سنوات من التعليم مجّانًا، وذهبت إلى الجامعة مجّانًا، وحصلت على درجة دكتوراه مجّانًا. بالطبع لا شيء مجّانًا: الخاضعون للضرائب هم الذين دفعوا. ومن ثمّ، في عمر الـ30، عندما أصبحت أبًا لطفلَين واكتشفت سرطاني الأوّل، عولِجت وشُفيت من قِبَل أفضل أنظمة الرعاية الصحية في العالم، مجّانًا. إنّ صمودي ونجاحي في الحياة اعتمدا دومًا على الآخرين. بفضل عائلتي، والتعليم المجّاني، والرعاية الصحية المجّانية، نجحت في الخروج من ذلك الخندق وعلى طول الطريق إلى المنتدى الاقتصادي العالمي. ما كان بوسعي أبدًا أن أحقّق كلّ هذا بمفردي.

اليوم، بعد أن أصبحت السويد في المستوى 4، فقط ثلاثة أطفال من كلّ 1,00 طفلٍ يموتون قبل سنّ الخامسة، و1 بالمائة فقط من هذه الوفيّات هي حوادث غرق. الأسيجة، والرعاية النهارية، وحملات سترة النجاة، ودروس السباحة، وحرّاس الإنقاذ في برك السباحة العامّة جميعها تكلّف أموالًا. إنّ موت الأطفال بسبب الغرق هو واحدٌ من الأمور المخيفة التي اختفت تقريبًا عندما أصبحت الدولة أغنى. هذا ما أسمّيه تقدُّمًا. تحدث نفس هذه التحسّنات في أنحاء العالم اليوم. تتحسّن معظم البلدان حاليًّا بصورة أسرع ممّا فعلت السويد. أسرع بكثير.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن نميّز الأخبار السلبية لدى سماعنا لها، ونتذكّر أنّ المعلومات عن الأحداث السيئة هي أكثر احتمالًا بكثير لأن تصل إلى مسامعنا. عندما تكون الأمور في تحسُّن، نحن غالبًا لا نسمع عنها. يخلق فينا هذا انطباعًا سلبيًّا جدًّا بانتظام عن العالم حولنا، وهذا بدوره مُجهِدٌ جدًّا.

من أجل التحكّم بغريزة السلبية، توقّع أخبارًا سيئة.

* الأفضل والسيئ. تدرّب على التمييز بين المستوى (مثلًا، سيئ) واتجاه التغيير (مثلًا، أفضل). أقنع نفسك بأنّ الأمور يمكن أن تكون أفضل وسيئة في آنٍ واحد.

* الأخبار الجيدة ليست أخبارًا. نادرًا ما يُؤتَى على ذكر الأخبار الجيدة. ولهذا فإنّ الأخبار على الدوام تقريبًا سيئة. عندما ترى أخبارًا سيئة، اسأل نفسك ما إذا كانت الأخبار ستصلك لو أنها كانت إيجابية بنفس الدرجة.

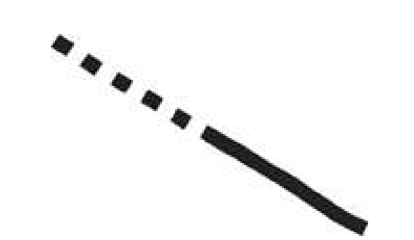
* التحسّن التدريجي ليس أخبارًا. عندما يكون هناك تحسّن تدريجي في اتجاه معيّن، مع هبوطات دورية، فمن المرجّح أنك ستلحظ الهبوطات وليس التحسّن الإجمالي.

* المزيد من الأخبار لا يعني المزيد من المعاناة. ترجع كثرة الأخبار السيئة

أحيانًا إلى المراقبة الأفضل للمعاناة، وليس إلى عالم يزداد سوءًا.

* احترز من الماضي الوردي. غالبًا ما يمجّد الناس تجاربهم المبكرة، وغالبًا ما تمجّد الأمم تاريخها.

الفصل الثالث
غريزة الخطّ المستقيم



كيف يمكن للمزيد من الباقين على قيد الحياة أن يعني عددًا أقلّ من الناس،
وما وجه الشبه بين حوادث السير وتجاويف الأسنان،
وبين حفيدي وعدد سكّان العالم

أكثر رسم بياني إرعابًا رأيته في حياتي

يمكن للإحصاءات أن تكون مرعبة. في 23 سبتمبر من العام 2014، كنت أجلس إلى مكتبي في مؤسّسة غاب مايندر في ستوكهولم عندما رأيت خطًّا على رسمٍ بياني ملأني بالخوف. كنت قلقًا بشأن تفشّي مرض إيبولا في غرب أفريقيا منذ شهر أغسطس. مثل الآخرين، كنت قد رأيت الصور المأساوية في وسائل الإعلام لأناسٍ يموتون في شوارع مونروفيا، عاصمة ليبيريا. ولكني غالبًا ما كنت أسمع في عملي عن حالات التفشّي المفاجئة لأمراض مميتة، وافترضت أنه كان مثل معظم الأمراض الأخرى وسيتمّ احتواؤه سريعًا. صدمني الرسم البياني في المقال البحثي لمنظّمة الصحة العالمية وتُرجِمت الصدمة إلى خوف ومن ثمّ إلى فِعل.

جمع الباحثون كلّ البيانات المتعلّقة بإيبولا منذ بداية الوباء واستخدموها لحساب العدد المتوقّع للحالات الجديدة لكلّ يوم حتى نهاية أكتوبر. وبيّنوا، للمرّة

الأولى، أنّ العدد لم يكن يزداد على طول خطّ مستقيم فحسب: 1، 2، 3، 4، 5، بل كان يتضاعف على هذا النحو: 1، 2، 4، 8، 16. كلّ شخص مُصاب كان سببًا في انتقال المرض إلى ما معدّله اثنان من الناس قبل أن يموت. نتيجةً لهذا، كان عدد الحالات الجديدة لكلّ يوم يتضاعف كلّ ثلاثة أسابيع. أظهر الرسم كيف سيصبح التفشّى هائلًا في وقتٍ قريب إذا استمرّ كلّ شخص مصاب في نقل المرض إلى إثنَين آخرَين. التضاعف مخيف!

أوّل مرّة تعلّمت فيها عن تأثير التضاعف كانت في المدرسة. في الأسطورة الهندية، يطلب الإله كريشنا حبة أرُزّ واحدة على المربّع الأوّل في رقعة الشطرنج، ثمّ حبّتَين في المربّع الثاني، وأربع حبّات في المربّع الثالث، ثمّ ثماني حبّات، وهكذا، مُضاعِفًا عدد حبّات الأرُزّ في كلّ مرّة. عندما وصل إلى المربّع الأخير من المربّعات الـ64، كان مُستحِقًّا لـ 18,446,744,073,709,551,615 حبة أرُزّ: ما يكفي لتغطية الهند بأكملها بطبقة من الأرُزّ سمكها 30 بوصة. عندما يتضاعف أي شيء باستمرار، فهو ينمو بشكلٍ أسرع بكثير ممّا نفترضه بدايةً. وهكذا عرفت أنّ الوضع في غرب أفريقيا كان على وشك أن يصبح ميؤوسًا منه. كانت ليبيريا مهدَّدة بكارثة هي أسوأ من حربها الأهلية المنتهية حديثًا، كما أنها شكّلت خطرًا على العالم أجمع. خلافًا للمالاريا، يمكن للإيبولا أن ينتشر بسرعة في جميع المناخات ويمكن أن ينتقل في الطائرات، وعبر الحدود والمحيطات داخل أجسام ركّاب لا يُعرَف أنهم مصابون. لم يكن هناك علاج فعّال له.

كان الناس يموتون في الشوارع بالفعل. خلال تسعة أسابيع فقط (الوقت اللازم للتضاعف ثلاث مرّات)، سيكون الوضع أسوأ بثماني مرّات. كلّ تأخير مدّته ثلاثة أسابيع في علاج المشكلة سيعني أنّ عدد الناس المصابين سيتضاعف وكذلك حجم الموارد اللازمة. لا بدّ من إيقاف إيبولا خلال أسابيع.

غيّرنا أولويّاتنا على الفور في غاب مايندر وبدأنا ندرس البيانات وننتِج فيديوات تشتمل على معلومات لشرح مدى إلحاح الوضع. في 20 أكتوبر، ألغيت كلّ مهامّي للأشهر الثلاثة التالية وكنت في طريقي إلى ليبيريا على متن الطائرة، حيث رجوت أنّ تكون سنواتي الـ20 في دراسة الأوبئة في أفريقيا الريفية جنوب الصحراء الكبرى ذات نفع. بقيت في ليبيريا لثلاثة أشهر، فاتني خلالها لأوّل مرّة قضاء عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة مع عائلتي.

مثل بقية العالم، كنت بطيئًا جدًّا في فهم حجم وإلحاح أزمة إيبولا. افترضت أنّ الزيادة في عدد الحالات كانت تتبع خطًّا مستقيمًا في حين أظهرت البيانات أنه كان خطًّا متضاعفًا. حالما فهمت هذا، تصرّفت. ولكني تمنّيت لو أني فهمت وتصرّفت قبل ذلك.

المفهوم الخاطئ الكبير بأنّ «دد سكّان

العالم يزداد ويزداد فقط»

في الوقت الحاضر، تظهر كلمة استدامة في عنوان كلّ مؤتمر تقريبًا أُدعَى إليه. أحد أهمّ الأعداد في معادلة الاستدامة هو التعداد السكّاني. لا بدّ أنّ هناك حدًّا من نوعٍ ما لعدد الناس الذين يمكنهم أن يعيشوا على هذا الكوكب. صحيح؟ ولهذا عندما بدأت في اختبار جماهيري في مؤتمرات الاستدامة هذه، افترضت فقط أنهم سيعرفون الحقائق الأساسية عن النموّ السكّاني العالمي. نادرًا ما كنت مخطئًا إلى هذا الحدّ.

لقد وصلنا الآن إلى الغريزة الثالثة – غريزة الخطّ المستقيم – والمفهوم الخاطئ الكبير الثالث والأخير: الفكرة الخاطئة بأنّ عدد سكّان العالم يزداد فقط. انتبه رجاءً إلى كلمة فقط، التي جعلتها بحروف مائلة ووضعت تحتها خطًّا لهدف. هذه الكلمة هي المفهوم الخاطئ.

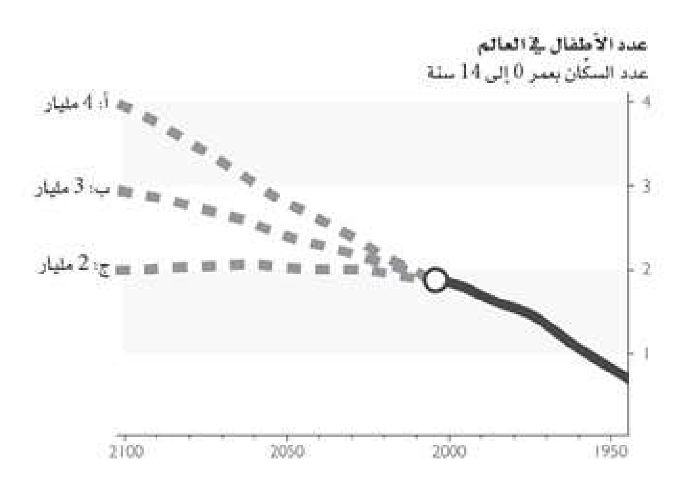
الواقع أنّ عدد سكّان العالم يزداد بالفعل. وبسرعة كبيرة جدًّا. على وجه التقريب، سيُضاف مليار شخص على مدى السنوات الـ13 القادمة. هذا صحيح. ليس هذا مفهومًا خاطئًا. ولكنّ العدد لا يزداد فقط. تقتضي «فقط» أنه، إذا لم يُعمَد إلى فِعل شيء، فإنّ عدد السكّان سيستمرّ في النموّ. تقتضي أنه لا بدّ من القيام بإجراء حازم من أجل إيقاف النموّ. هذا هو المفهوم الخاطئ، وأنا أظنّ أنه يستند إلى نفس الغريزة التي منعتني والعالمَ من التصرّف في وقتٍ أبكر لإيقاف الإيبولا. الغريزة التي تفترض أنّ الخطوط مستقيمة.

نادرًا ما أعجز عن الكلام، ولكني فعلت في المرّة الأولى التي طرحت فيها على الجمهور السؤال التالي. كان ذلك في مؤتمر للمدرّسين في النرويج (ولكني لا أقصد أن أكون قاسيًا جدًّا على النرويجيين: كان من الممكن أن يحدث هذا في فنلندا أيضًا). كان العديد من هؤلاء المدرّسين يدرّسون اتجاهات التعداد السكّاني

العالمي كجزء من مقرّرات العلوم الاجتماعية. عندما أدرت رأسي ورأيت النتائج من استطلاع الرأي الحيّ على الشاشة خلفي، لم أستطع الكلام. أتذكّر أنني فكّرت حينها بأنه ثمّة خطأ ما بأجهزة استطلاع الرأي بكلّ تأكيد.

سؤال الحقيقة الخامس

هناك 2 مليار طفل في العالم اليوم، تتراوح أعمارهم بين 0 و15 سنة. كم سيكون عدد الأطفال في العام 2100، وِفقًا للأمم المتحدة؟



قبل أن أطرح السؤال، كنت قد أخبرت المدرّسين بأنّ «واحدًا من هذه الخطوط يُظهر التنبّؤ الرسمي للأمم المتحدة. أمّا الخطّان الآخران، فهما من تأليفي».

مرّةً أخرى، اختارت قرود الشمبانزي الخطّ الصحيح بنسبة 33 بالمائة. المدرّسون في النرويج؟ 9 بالمائة فقط. صُدِمت. كيف يمكن لمثل هذه المجموعة الهامّة من الناس أن تُحرِز نتيجةً أسوأ من الاختيار العشوائي؟ ماذا كانوا يدرّسون الأطفال؟

رجوت نوعًا ما أن تكون أجهزة استطلاع الرأي تالفة. ولكنها لم تكن كذلك. حصلنا على نفس النتائج الفظيعة في استطلاعات الرأي العامّة. في الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، والسويد، وألمانيا، وفرنسا، وأستراليا، اختار 85 بالمائة

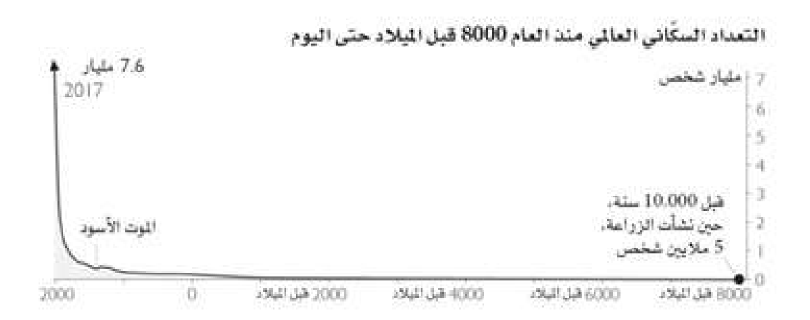
من الناس الخطّين الزائفَين (التصنيف الكامل لكلّ بلد موجود في الملحق).

الخبراء في المنتدى الاقتصادي العالمي؟ كانت إجابتهم أفضل بكثير من العامّة. تقريبًا مثل قرود الشمبانزي. وُفِّق 26 بالمائة منهم إلى الإجابة الصحيحة.

مُفكِّرًا بالأمر بمزيد من الهدوء بعد انتهاء مؤتمر المدرّسين، بدأت أرى حجم مشكلة المعرفة. إنّ عدد أطفال المستقبل هو الرقم الأساس لتنبّؤات التعداد السكّاني العالمي. ولهذا هو محوري لكامل حوار الاستدامة. إذا أخطأنا في التنبّؤ بهذا الرقم، فسنخطئ في التنبّؤ بالكثير غيره. ومع ذلك لم يكن لدى أي تقريبًا من الناس النافذين وذوي التعليم العالي الذين اختبرناهم أدنى معرفة بما يتّفق عليه كلّ خبراء التعداد السكّاني. الأرقام متوفّرة مجّانًا على الإنترنت، من الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة، ولكنّ الوصول المجّاني للبيانات لا يتحوّل إلى معرفة بدون جهد. خطّ الأمم المتحدة هو الخيار ج: الخطّ المستقيم في الأسفل. يتوقّع خبراء الأمم المتحدة أنه في العام 2010 سيكون هناك 2 مليار طفل، العدد نفسه الموجود اليوم. هم لا يتوقّعون أنّ الخطّ سيستمرّ مستقيمًا. لا يتوقّعون زيادةً. سأعود قريبًا إلى هذه النقطة.

غريزة الخطّ المستقيم

يُظهِر هذا الرسم البياني التعداد السكّاني العالمي منذ العام 8000 قبل الميلاد. ذاك حين نشأت الزراعة.



في ذلك الحين، كان التعداد السكّاني الإجمالي 5 ملايين شخص تقريبًا، موزّعين على طول السواحل والأنهار في جميع أنحاء العالم. كان عدد السكّان

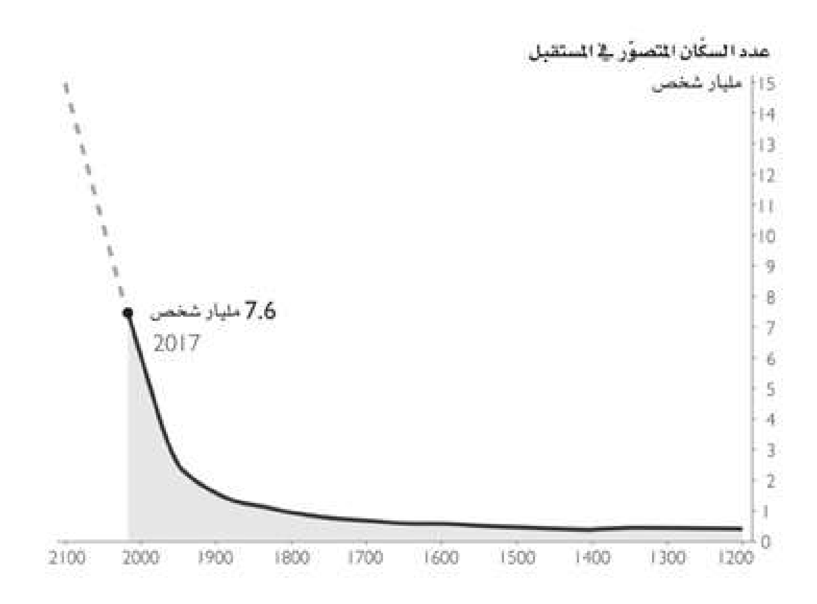
الإجمالي أقلّ من عدد السكّان في واحدةٍ من مدننا الكبرى اليوم: لندن، أو بانكوك، أو ريو دي جانيرو.

ازداد العدد ببطء على مدى 10,000 سنة تقريبًا، ليصل في النهاية إلى مليار شخص في العام 1800. ثمّ حدث شيء. أُضيف المليار التالي في غضون 130 سنة فقط. ثمّ أُضيفت 5 مليارات أخرى في أقلّ من 100 سنة. يقلق الناس طبعًا عندما يرون مثل هذه الزيادة الحادّة، وهم يعرفون أنّ موارد كوكبنا محدودة. يبدو بالطبع أنه يزداد فقط، وبسرعة كبيرة جدًّا.

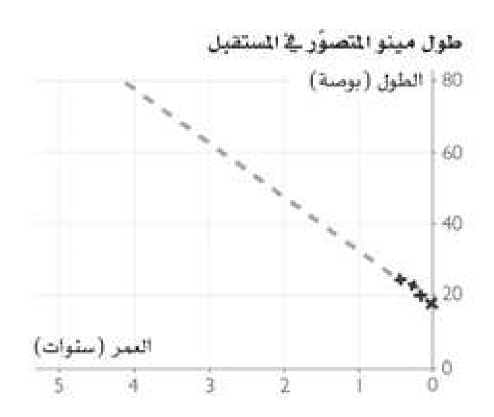
عندما تنظر إلى حجر يُقذَف باتجاهك، يمكنك غالبًا أن تتوقّع ما إذا كان سيصيبك. لا تحتاج إلى أرقام، ولا رسوم بيانية، ولا جداول ممتدّة. تقوم عيناك ودماغك برسم امتداد للمسار وتتحرّك بعيدًا عن طريق الحجر. من السهل أن نتخيّل كيف ساعدت مهارة التنبّؤ البصري التلقائية هذه أجدادنا على البقاء على قيد الحياة. وهي لا تزال تساعدنا نحن أيضًا: عندما نقود سيارة، نحن نتوقّع باستمرار أين ستكون السيارات الأخرى في الثواني القليلة التالية.

ولكنّ حدس الخطّ المستقيم هذا ليس دائمًا دليلًا يُعوَّل عليه في الحياة الحديثة.

عندما تنظر إلى رسمٍ بياني خطّي، على سبيل المثال، من المستحيل تقريبًا أن لا تتخيّل خطًّا مستقيمًا يمتدّ إلى ما وراء نهاية المسار، نحو المستقبل. في الرسم البياني لعدد السكّان على الصفحة التالية، قمت بإضافة الخطّ المتقطّع لأوضّح ما أظنّ أنّ الناس يتخيلونه غريزيًّا. بالطبع هم يقلقون.



دعني الآن أعطيك مثالًا آخر أعرف أنه مألوف لديك أكثر. كان حفيدي الأصغر، مينو، بطول 19.5 بوصة عندما وُلِد. ازداد طوله إلى 26.5 بوصة خلال الأشهر الستّة الأولى من عمره. زيادة مذهلة قدرها سبع بوصات. مذهلة، ولكنها مخيفة أيضًا. أنظر إلى مخطّط نموّه. قمت بإضافة الخطّ المستقيم الحدسي نحو المستقبل. الأمر مرعب، أليس كذلك؟

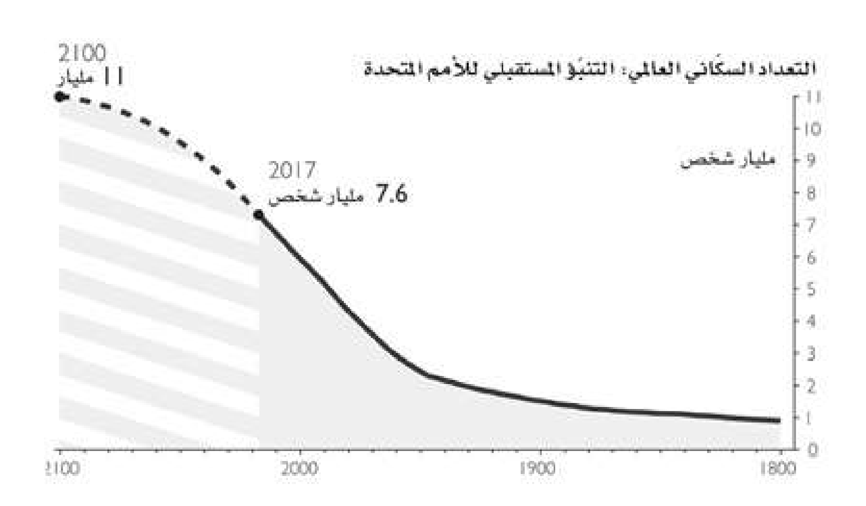


إذا استمرّ مينو بالنموّ فقط، فسيصل طوله إلى 60 بوصة في عيد ميلاده الثالث؛ طفل دارج بطول خمس أقدام. وفي عيد ميلاده العاشر سيصل طوله إلى

160 بوصة؛ أكثر من 13 قدم. ومن ثمّ ماذا؟ لا يمكن لهذا أن يستمرّ فقط! يجب على أحدهم أن يقوم بشيء حاسم! يجب على والدَيّ مينو أن يعيدا تصميم منزلهما أو يجدا علاجًا ما!

من الواضح أنّ حدس الخطّ المستقيم خاطئ في هذه الحالة. لماذا هذا واضح؟ لأننا جميعًا لدينا تجربة مباشرة لنموّ الجسم. نحن نعرف أنّ منحنى نموّ مينو لن يستمرّ فقط. لم نلتقِ أبدًا شخصًا طوله 160 بوصة. إنّ افتراض أنّ مسار المنحنى سيستمرّ على طول خطّ مستقيم هو أمرٌ مضحك حتمًا. ولكن عندما نكون أقلّ درايةً بموضوع معين، يكون من الصعب بصورة مثيرة للدهشة أن نتخيّل كم يمكن لافتراض كهذا أن يكون غبيًّا.

لدى خبراء التعداد السكّاني في الأمم المتحدة خبرة مباشرة في حساب الحجوم السكّانية. إنها وظيفتهم. هذا هو الخطّ الذي يتوقّعونه:



عدد سكّان العالم اليوم هو 7.6 مليار نسمة، وهو ينمو بسرعة بكلّ تأكيد. ومع ذلك، فقد بدأ النموّ يُبطئ بالفعل، وخبراء الأمم المتحدة واثقون تمامًا أنه سيستمرّ في الإبطاء على مدى العقود القليلة التالية. هم يعتقدون أنّ المنحنى سيبدأ في اتّخاذ مسارٍ مستوٍ في مكانٍ ما بين 10 مليارات و12 مليار شخص في نهاية القرن.

شكل منحنى عدد السكّان

من أجل أن نفهم شكل منحنى عدد السكّان هذا، علينا أن نفهم مصدر الزيادة في عدد السكّان.

لماذا يزداد عدد السكّان؟

سؤال الحقيقة السادس

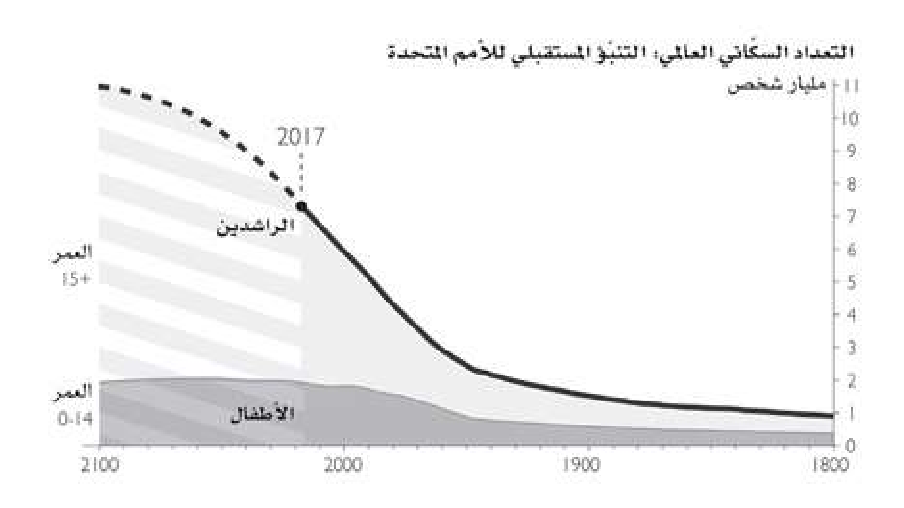
تتوقّع الأمم المتحدة أنه في العام 2100 سيزداد عدد سكّان العالم بمقدار 4 مليارات شخص. ما السبب الرئيسي؟

أ: سيكون هناك عدد أكبر من الأطفال (أعمارهم أقلّ عن 15 سنة)

ب: سيكون هناك عدد أكبر من الراشدين (أعمارهم بين 15 و74 سنة)

ج: سيكون هناك عدد أكبر من الطاعنين في السنّ (بعمر 75 سنة فما فوق)

لهذا السؤال، سأعطيك الإجابة على الفور. الإجابة الصحيحة هي ب. الخبراء مقتنعون أنّ عدد السكّان سيستمرّ في النموّ، ويرجع سبب ذلك بشكلٍ رئيسي إلى الزيادة في عدد الراشدين. ليس المزيد من الأطفال أو المزيد من الطاعنين في السنّ. المزيد من الراشدين. إليك نفس الرسم البياني لعدد السكّان الذي أريتك إياه أعلاه، ولكنه الآن يفصل بين الأطفال والراشدين:

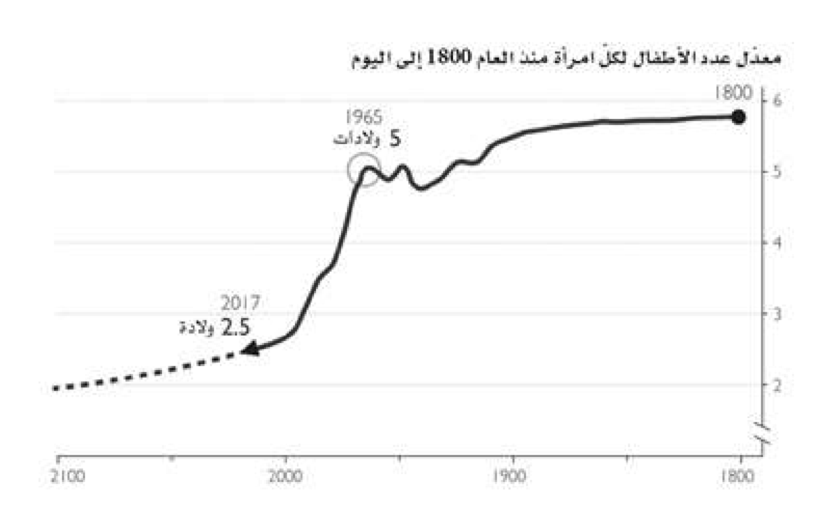


ليس من المتوقّع أن يزداد عدد الأطفال، وهو ما نعرفه بالفعل من سؤال

الحقيقة الأوّل لهذا الفصل. والآن أنظر بتمعّن إلى خطّ الأطفال في هذا الرسم. هل يمكنك أن ترى متى يصبح مستويًا؟ هل يمكنك أن ترى أنّ ذلك يحدث بالفعل؟ إنّ خبراء الأمم المتحدة لا يتوقّعون أنّ عدد الأطفال سوف يتوقّف عن الازدياد. إنهم يخبرون أنّ ذلك يحدث بالفعل. التغيّر الجذري اللازم لإيقاف النموّ السريع في عدد السكّان هو أن يتوقّف عدد الأطفال عن النموّ. وهو ما يحدث بالفعل. كيف يمكن لهذا أن يكون؟ هذا، ما ينبغي للجميع أن يعرفه.

انتباه، الآن! فهذا المخطّط التالي هو الأكثر دراماتيكية في هذا الكتاب. يُظهِر هذا المخطّط الانخفاضَ المدهش المغيِّر فعليًّا للعالم في عدد الأطفال لكلّ امرأة الحادثَ خلال مدّة حياتي.

عندما وُلِدت في العام 1948، أنجبت النساء ما معدّله خمسة أطفال لكلّ امرأة. بعد العام 1965، بدأ هذا الرقم في الانخفاض كما لم يفعل أبدًا من قبل. خلال الـ50 سنة الأخيرة، انخفض الرقم بشكلٍ مذهل إلى المتوسّط العالمي البالغ أقلّ من 2.5 بقليل.



حدث هذا التغيّر الدراماتيكي في موازاة كلّ تلك التحسّنات الأخرى التي وصفتها في الفصل السابق. مع خروج مليارات الناس من الفقر المدقع، قرّر معظمهم أن ينجب عددًا أقلّ من الأطفال. لم يعودوا بحاجة إلى عائلات كبيرة يعمل أطفالها في المزرعة الصغيرة للعائلة. ولم يعودوا بحاجة إلى أطفال إضافيين

كضمان ضدّ وفيّات الأطفال. تعلّم الرجال والنساء وبدأوا يرغبون بأطفال أفضل تعليمًا وأفضل تغذيةً: كان الحلّ البديهي هو إنجاب عددٍ أقلّ منهم. عمليًّا، كان تحقيق هذا الهدف سهلًا بفضل توفّر موانع الحمل الحديثة، التي مكّنت الآباء من إنجاب عددٍ أقلّ من الأطفال مع ممارسة حياتهم الزوجية بشكلٍ طبيعي.

من المتوقّع لهذا التغيّر الدراماتيكي في عدد الأطفال لكلّ امرأة أن يستمرّ، طالما أنّ المزيد من الناس مستمرّون في الخروج من الفقر المدقع، والمزيد من النساء يتعلّمن، والوصول إلى موانع الحمل والثقافة الجنسية متوفّر. لسنا بحاجة إلى فِعلٍ جذري. فقط إلى المزيد ممّا نقوم به حاليًّا. ليس من الممكن أن نتوقّع بالضبط السرعة الفعلية للانخفاض المستقبلي. يعتمد هذا على مدى سرعة استمرار هذه التغيّرات في الحدوث. ولكن على أي حال، فإنّ العدد السنوي للولادات في العالم قد توقّف عن الزيادة بالفعل، ما يعني أنّ فترة النموّ السريع في عدد السكّان ستتوقّف قريبًا. نحن نصل الآن إلى «ذروة عدد الأطفال».

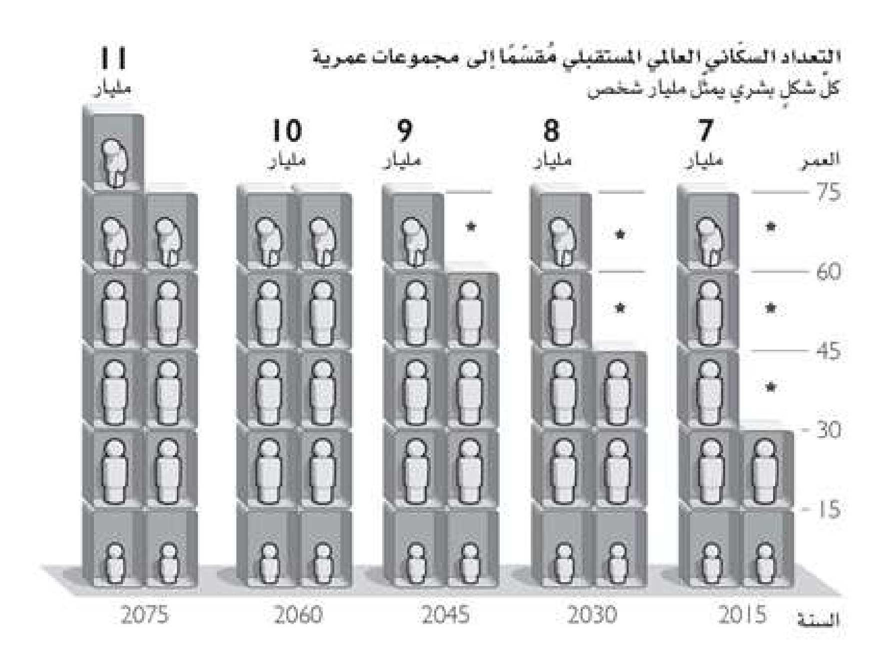
من جهة أخرى، إذا كان عدد الولادات قد توقّف بالفعل عن الزيادة، فماذا عن الراشدين الجدد البالغ عددهم 4 مليارات؟ من أين سيأتون؟ السفن الفضائية؟

لماذا سيتوقّف عدد السكّان عن الزيادة؟

يُظهِر المخطّط على الصفحة التالية التعداد السكّاني العالمي مُقسَّمًا إلى مجموعات عمرية، في العام 2015 ثمّ كلّ 15 سنة بعد ذلك.

على اليمين، يُظهِر المخطّط أعمار الـ7 مليارات نسمة في العام 2015: 2 مليار بعمر 0 إلى 15، و2 مليار بعمر 15 إلى 30، ثمّ 1 مليار في كلٍّ من المجموعات العمرية التالية: من 30 إلى 45، ومن 45 إلى 60، ومن 60 إلى 75.

في العام 2030، سيكون هناك ملياران جديدان بعمر 0 إلى 15 سنة. وكلّ من سواهم سيكون قد كبر. أولئك الذين تتراوح أعمارهم اليوم بين 0 و15 سنة سيصبحون بعمر 15 إلى 30 سنة. والملياران الذين هم اليوم بعمر 15 إلى 30 سنة سيصبحون بعمر 30 إلى 45 سنة. هناك فقط مليار واحد اليوم بعمر 30 إلى 45 سنة. ولهذا، بدون أي زيادة في عدد الأطفال المولودين، وبدون أن يعيش الناس أعمارًا أطول، سيكون هناك مليار إضافي من الراشدين.



هذا المليار الجديد من الراشدين ليس مصدره المزيد من الأطفال الجدد، وإنما الأطفال والراشدون الصغار الموجودون بالفعل.

سيعيد هذا النمط نفسه على مدى ثلاثة أجيال. في العام 2045، سيُضاف مليارٌ جديد من الراشدين لأنّ المليارَين الذين هم بعمر 30 إلى 45 سنة سيصبحون بعمر 45 إلى 60 سنة. في العام 2060، سيضاف أيضًا مليارٌ آخر جديد من الراشدين لأنّ المليارَين الذين هم بعمر 45 إلى 60 سنة سيصبحون بعمر 60 إلى 75 سنة. ولكن أنظر ماذا يحدث بعد ذلك. من العام 2060، سيُستبدَل كلّ جيل مؤلّف من مليارَين من الناس بجيلٍ آخر مؤلَّف من مليارَين من الناس. يتوقّف النموّ السريع.

ستحدث الزيادة الكبيرة في عدد السكّان ليس لأنّ هناك المزيد من الأطفال، وليس، على الإجمال، لأنّ كبار السنّ يعيشون أكثر. الواقع أنّ خبراء الأمم المتحدة يتوقّعون بالفعل أنه بحلول العام 2100، سيكون متوسط العمر المتوقّع قد ازداد تقريبًا بمقدار 11 سنة، ما يُضيف مليارًا من كبار السنّ إلى العدد الإجمالي الذي سيصبح 11 مليار تقريبًا. ستحدث الزيادة الكبيرة في عدد السكّان بشكلٍ رئيسي لأنّ الأطفال الموجودين اليوم سيكبرون و«يملأون» الرسم بـ3 مليارات إضافية من الراشدين. «تأثير الملء» هذا يستغرق ثلاثة أجيال، ومن ثمّ ينتهي الأمر.

هذا فعليًّا هو كلّ ما تحتاج لمعرفته لتفهم الطريقة التي يستخدمها خبراء الأمم المتحدة كي لا يرسموا فقط خطًّا مستقيمًا نحو المستقبل.

(هذا الشرح هو تبسيطٌ قاس. الكثيرون يموتون قبل أن يبلغوا 75 سنة، والعديد من الآباء ينجبون أطفالهم بعد أن يبلغوا 30 سنة. ولكنَ حتى لو أخذنا هاتَين الحقيقتَين في عين الاعتبار، فلن يحدث فرقٌ يُذكَر في الصورة الكبيرة).

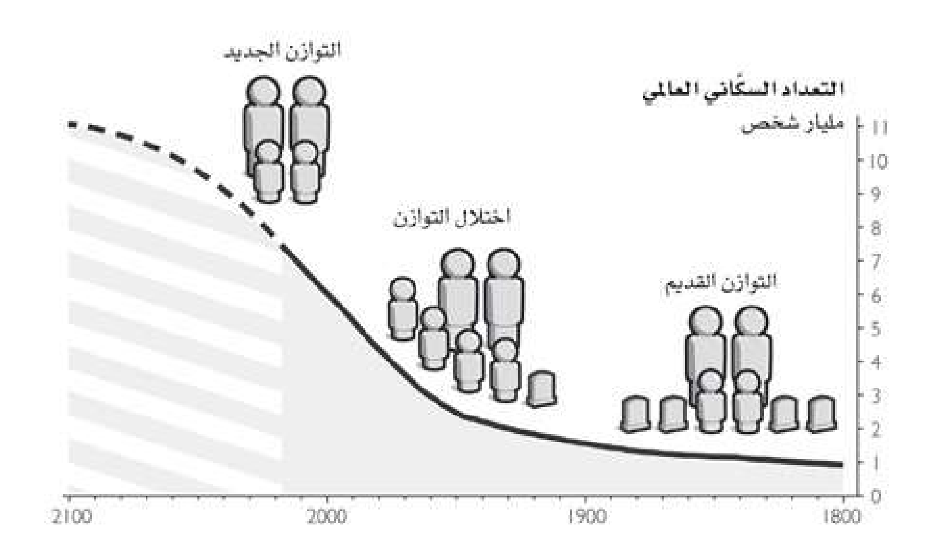
في توازن مع الطبيعة

عندما يتوقّف عدد السكّان عن النموّ لفترة طويلة من الزمن، ويكون منحنى التعداد السكّاني مستويًا، فهذا يعني حتمًا أنّ كلّ جيل من الآباء الجدد هو بنفس حجم الجيل السابق. على مدى آلاف السنين، وصولًا إلى العام 1800، كان منحنى التعداد السكّاني مستويًا تقريبًا. هل سمعت الناس يقولون أنّ البشر اعتادوا أن يعيشوا في توازن مع الطبيعة؟

حسنًا، نعم، لقد كان هناك توازن. ولكن دعنا نتجنّب النظّارات الوردية. حتى العام 1800، أنجبت النساء ما معدّله ستّة أطفال لكلّ امرأة. ولهذا يُفترَض أنّ عدد السكّان كان يزداد في كلّ جيل. ولكنه، بدلًا من ذلك، بقي ثابتًا تقريبًا. هل تذكر الهياكل العظمية للأطفال في مقابر الماضين؟ من كلّ ستّة أطفال، كان يموت ما معدّله أربعة أطفال قبل أن يصبحوا هم أنفسهم آباءً، ما يترك فقط طفلَين على قيد الحياة يكون كلٌّ منهما أبًا في الجيل التالي. كان هناك توازن. لم يكن ذلك لأنّ البشر عاشوا في توازن مع الطبيعة، بل لأنهم ماتوا في توازن مع الطبيعة. كان الوضع قاسيًا ومأساويًّا تمامًا.

اليوم، وصلت البشرية مرّة أخرى إلى توازن. لم يعد عدد الآباء يزداد. ولكنّ هذا التوازن مختلف بشكلٍ دراماتيكي عن التوازن القديم. التوازن الجديد جميل: ينجب الوالدان النموذجيّان طفلَين، وكلاهما يعيش. لأوّل مرّة في تاريخ البشرية، نحن نعيش في توازن.

نما عدد السكّان من 1.5 مليار في العام 1900 إلى 6 مليارات في العام 2000 لأنّ البشرية خضعت لانتقال من توازن إلى آخر خلال القرن العشرين. إنها فترة فريدة في التاريخ البشري أصبح الوالدان فيها ينجبان طفلَين أو أكثر يبقون على قيد الحياة ليصبحوا هم أنفسهم آباءً في الجيل التالي.



فترة اختلال التوازن تلك هي السبب وراء كون الجيلَين الأصغر سنًّا أكبر عددًا من الأجيال الأخرى. فترة اختلال التوازن تلك هي السبب وراء عملية «الملء». ولكنّ التوازن الجديد قد تحقّق بالفعل: العدد السنوي للولادات لم يعد يزداد. وإذا استمرّ الفقر المدقع في التناقص، واستمرّت الثقافة الجنسية وموانع الحمل في الإنتشار، فإنّ عدد سكّان العالم سيستمرّ في النموّ بسرعة، ولكن فقط إلى حين انتهاء عملية «الملء» الحتمي.

مهلًا، «هم» لا يزالون ينجبون العديد من الأطفال

حتى بعد أن أعرض هذه المخطّطات على المسرح أمام الجمهور، يأتي إليّ الناس بعد العرض التقديمي ويخبرونني أنّ المخطّطات لا يمكن أن تكون صحيحة لأنه، كما تعرف، «لا يزال الناس في أفريقيا وأمريكا اللاتينية ينجبون الكثير من الأطفال. وبعض الناس يرفضون موانع الحمل لأسباب تتعلّق بالدين ولا يزالون يحبّذون العائلات الكبيرة».

ينتقي الصحفيون المهرة ويختارون أناسًا استثنائيين ودراماتيكيين ويذكرونهم في تقاريرهم الإخبارية. نرى أحيانًا في وسائل الإعلام أمثلة لأناس متديّنين جدًّا، سواء أكانوا يعيشون بطرق تقليدية أو يعيشون حياةً عصرية، يعرضون لنا بفخر عائلاتهم الكبيرة جدًّا كدليل على الإيمان. هذه الأفلام الوثائقية، والبرامج التلفزيونية، والتقارير الإعلامية تعطي الانطباع بأنّ الدين يقود إلى عائلات أكبر

بكثير. ولكن بغضّ النظر عن دينهم – سواء أكانوا مسلمين، أو مسيحيين، أو يهود – فإنّ هذه العائلات تشترك في خاصيّة واحدة. إنها الاستثناءات!

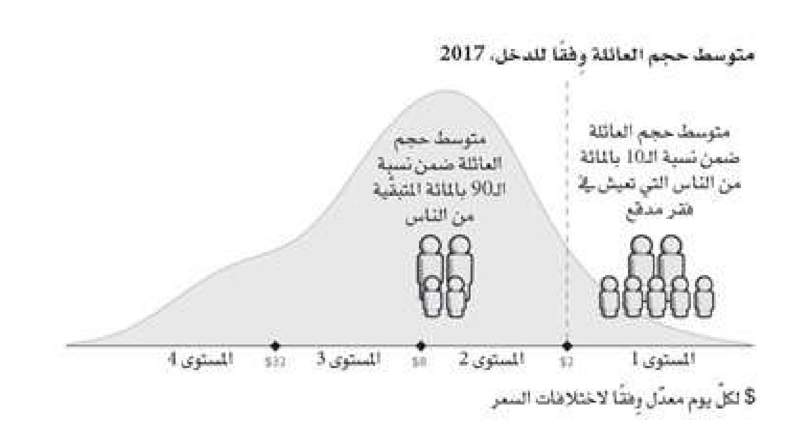
في الواقع، ليست هناك علاقة قوية بين الدين وعدد الأطفال لكلّ امرأة. أناقش خلال كامل هذا الكتاب كيف تختار وسائل الإعلام قصصها الاستثنائية، وسأكشف في الفصل 7 عدم صحّة التلازم بين الدين والعائلات الكبيرة. أمّا الآن، دعنا ننظر إلى العامل الوحيد الذي له علاقة قوية بالفعل بالعائلات الكبيرة: الفقر المدقع.

لماذا يؤدّي ازدياد عدد الباقين على قيد الحياة

إلى عدد أقلّ من الناس

عند جمع جميع الآباء الذين يعيشون في المستويات 2، و3، و4 من جميع مناطق العالم، ومن كلّ الأديان والعقائد، فسيكون معدّل إنجابهم للأطفال هو طفلَين لكلّ عائلة. هذه حقيقة! وهذا يشمل سكّان إيران، والمكسيك، والهند، وتونس، وبنغلادش، والبرازيل، وتركيا، وإندونيسيا، وسريلانكا. وما ذكرته هو بضعة أمثلة فقط.

لا يزال أفقر 10 بالمائة من الناس ينجبون ما معدّله خمسة أطفال. وفي المتوسط، تفقد كلّ عائلة ثانية تعيش في فقر مدقع واحدًا من أطفالها قبل بلوغه سنّ الخامسة. هذه للأسف نسبة مرتفعة، ولكنها لا تزال أفضل بكثير من المستويات المرعبة التي أبقت النموّ السكّاني منخفضًا في الأزمان القديمة السيئة.



عندما يسمع الناس أنّ عدد السكّان ينمو، يظنّون بداهةً أنه سيستمرّ في النموّ ما لم يتمّ القيام بفعل. هم يتصوّرون بداهةً نزعة النموّ مستمرّةً في المستقبل. ولكن تذكّر أنه من أجل أن يتوقّف حفيدي مينو عن النموّ في الطول، لا حاجة إلى القيام بأي فعلٍ حاسم.

تدير مليندا غيتس مؤسّسة خيرية مع زوجها، بيل. أنفقا مليارات الدولارات لإنقاذ حياة ملايين الأطفال الذين يعيشون في فقر مدقع باستثمارهما المال في الرعاية الصحية الأوّلية والتعليم. ومع ذلك لا يفتأ الناس الأذكياء وذوو النوايا الحسنة من الاتصال بالمؤسّسة ونصيحتها بوجوب التوقّف. هذه هي حجّتهم: «إذا واصلتما إنقاذ الأطفال الفقراء، فستقتلون الأرض بالتسبُّب في الاكتظاظ السكّاني».

سمعت أيضًا هذه الحجّة بعد بعضٍ من عروضي التقديمية، من أناسٍ قد تكون لديهم أفضل النوايا ويريدون إنقاذ الأرض من أجل الأجيال المستقبلية. تبدو صحيحة بالبداهة. إذا بقي المزيد من الأطفال على قيد الحياة، فإنّ عدد السكّان سيزداد فقط. صحيح؟ لا! منتهى الخطأ.

يحتاج الآباء الذين يعيشون في فقر مدقع إلى العديد من الأطفال للأسباب التي ذكرتها آنفًا: لعمل الأطفال وأيضًا كأطفال إضافيين في حال موت بعض الأطفال. إنها البلدان ذات المعدّل الأعلى في وفيّات الأطفال، مثل الصومال، وتشاد، ومالي، والنيجر، التي تنجب النساء فيها أكبر عدد من الأطفال: بين خمسة وثمانية. حالما يرى الآباء أطفالهم يعيشون، وحالما لا تعود هناك حاجة لعمل الأطفال، وحالما تكون النساء متعلّمات ولديهن معلومات ووصول إلى موانع الحمل، فإنّ الرجال والنساء على حدّ سواء في كلّ الثقافات والأديان سيحلمون بدلًا من ذلك في إنجاب عدد أقلّ من الأطفال الذين يمكنهم نيل قسط وافر من التعليم.

تبدو عبارة «إنقاذ الأطفال الفقراء يزيد فقط من عدد السكّان» صحيحة، ولكنّ العكس هو الصحيح. إنّ تأخير الخروج من الفقر المدقع يزيد فقط من عدد السكّان. كلّ جيل عالق في الفقر المدقع سيُنتِج جيلًا تاليًا أكبر عددًا. الطريقة الوحيدة المؤكَّدة لضبط النموّ السكّاني هي استئصال الفقر المدقع ومنح الناس حياة أفضل، بما في ذلك التعليم وموانع الحمل. في جميع أنحاء العالم، اختار الآباء لأنفسهم إنجاب عدد أقلّ من الأطفال. حدث هذا التحوّل عبر العالم ولكنه لم يحدث

أبدًا بدون خفض وفيّات الأطفال.

أغفلت هذه المناقشة حتى الآن أهمّ نقطة، وهي الحتمية الأخلاقية لمساعدة الناس على الخروج من بؤس ومهانة الفقر المدقع. يصعب عليّ سماع الحجّة القائلة بوجوب إنقاذ الأرض لأجيال المستقبل، الذين لم يُولَدوا بعد، بينما الناس اليوم يعانون. ولكن عندما يتعلّق الأمر بوفيّات الأطفال، ليس علينا أن نختار بين الحاضر والمستقبل، أو بين قلوبنا وعقولنا: جميعها تشير في الاتجاه نفسه. يجب أن نفعل كلّ ما بوسعنا لخفض وفيّات الأطفال، ليس فقط كتصرّف إنساني من أجل الأطفال الأحياء الذين يعانون، بل أيضًا من أجل منفعة العالم أجمع الآن وفي المستقبل.

معجزتان في الصحّة العامّة

في السنة الكاملة الأولى لاستقلال بنغلادش، 1972، أنجبت النساء البنغلادشيّات ما معدّله سبعة أطفال لكلّ امرأة وبلغ متوسط العمر المتوقّع 52 سنة. اليوم، تنجب النساء البنغلادشيّات ما معدّله طفلان لكلّ امرأة ومتوسط العمر المتوقّع لحديث الولادة هو 73 سنة. خلال أربعة عقود، انتقلت بنغلادش من وضعٍ بائس إلى مقبول. من المستوى 1 إلى المستوى 2. إنها معجزة تحقّقت من خلال التقدّم اللافت في الصحّة الأساسية وبقاء الأطفال. معدّل بقاء الأطفال اليوم هو 97 بالمائة، بعد أن كان أقلّ من 80 بالمائة عند الاستقلال. الآن، حيث لدى الآباء سببٌ يجعلهم يتوقّعون بقاء كلّ أطفالهم على قيد الحياة، لم يعد هناك داعٍ للعائلات الكبيرة.

في مصر، في العام 1960، كان 30 بالمائة من جميع الأطفال في الأراضي الواقعة حول نهر النيل يموتون قبل عيد ميلادهم الخامس. كانت دلتا نهر النيل شقاءً على الأطفال، مع كلّ أنواع الأمراض الخطيرة وسوء التغذية. ثمّ حدثت معجزة. بنى المصريون سدّ أسوان، وأوصلوا الكهرباء إلى بيوت الناس، وحسّنوا التعليم، وأنشأوا الرعاية الصحية الأوّلية، وقضوا على الملاريا، وجعلوا مياه الشرب مأمونة. اليوم، يبلغ معدّل وفيّات الأطفال في مصر 2.3 بالمائة، أقلّ ممّا كان في فرنسا أو المملكة المتحدة في العام 1960.

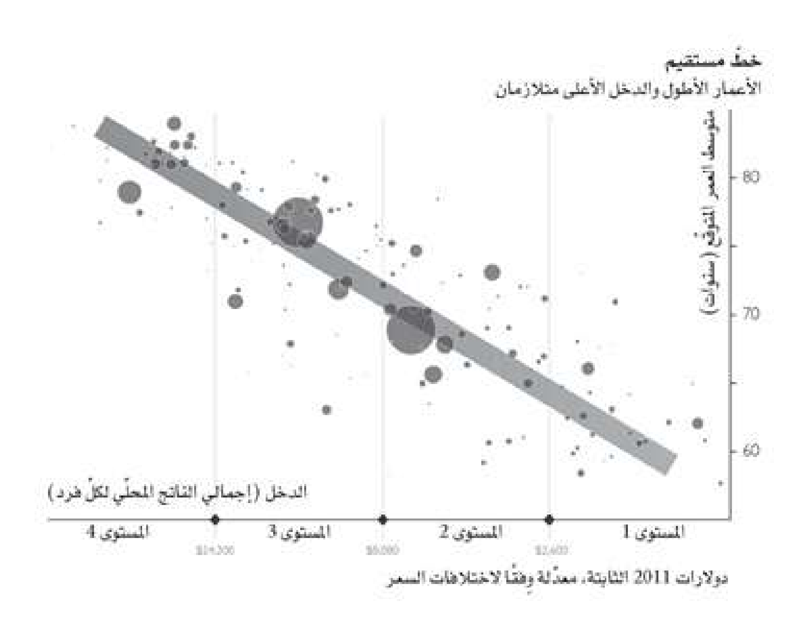
كيفية السيطرة على غريزة الخطّ المستقيم،

أو أنّ الخطوط ليست كلّها مستقيمة

الطريقة الأفضل للسيطرة على غريزة رؤية الخطوط المستقيمة دومًا – سواء في ما يتعلّق بالنموّ السكّاني أو بحالات أخرى – هي أن تتذكّر ببساطة أنّ المنحنيات تتّخذ بطبيعتها أشكالًا كثيرة مختلفة. يتمّ تمثيل العديد من أوجه العالم على أفضل نحو بمنحنيات تتّخذ شكل حرف S، أو منزلَق، أو حدبة، وليس شكل خطّ مستقيم. إليك بعض الأمثلة، التي يُظهِر كلٌّ منها وجهًا معيّنًا من أوجه التغيّرات الحياتية بينما نتحرّك عبر مستويات الدخل الأربعة.

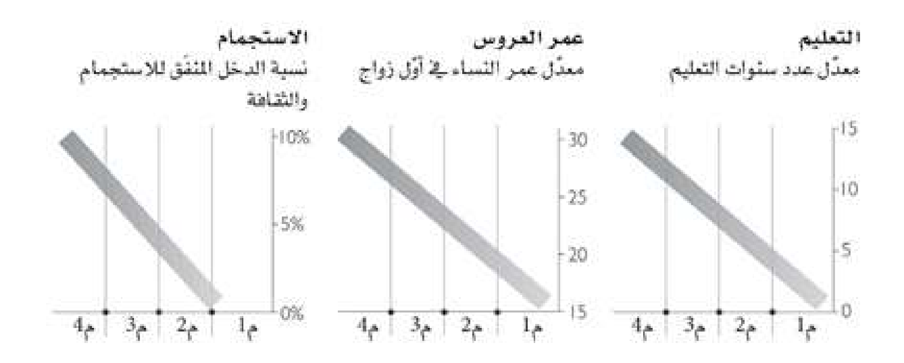
الخطوط المستقيمة

الخطوط المستقيمة أقلّ شيوعًا بكثير ممّا يقودنا إليه تفكيرنا عادةً، ولكنّ بعض الخطوط مستقيمة فعلًا. الشكل أدناه هو نسخة مبسَّطة لمخطّط الثروة والصحة الذي رأيته قبلًا. بدلًا من كلّ الفقّاعات، يمكننا أن نرسم خطًّا حيث توجد معظم الفقّاعات. تقع بعض الفقّاعات أعلى الخطّ والبعض الآخر أدنى الخطّ، ولكن يمكنك أن ترى أنها عمومًا تتجمّع حول خطّ مستقيم.



في هذا المخطّط، المال والصحة متلازمان. نحن لا نعرف بمجرّد النظر إلى الخطّ أيهما ينتج عن الآخر أو ماهيّة العلاقة بين الإثنَين. يمكن للسكّان المتمتّعين بالصحة أن ينتجوا مزيدًا من الدخل. ويمكن للسكّان المتمتّعين بالثروة أن ينفقوا منها للحصول على صحة أفضل. أعتقد أنّ الاحتمالَين صحيحان. ما نعرفه بالفعل من هكذا خطّ هو أنه، بشكلٍ عام، عندما يكون الدخل أعلى، تكون الصحة أفضل.

يمكننا أيضًا أن نجد خطوطًا مستقيمة عندما نقارن مستويات الدخل مع التعليم، وسنّ الزواج، والإنفاق على الاستجمام. يتلازم الدخل الأعلى مع سنوات أكثر من التعليم، وتأخّر سنّ الزواج بالنسبة للنساء، ومع إنفاق جزء أكبر من الدخل للاستجمام.

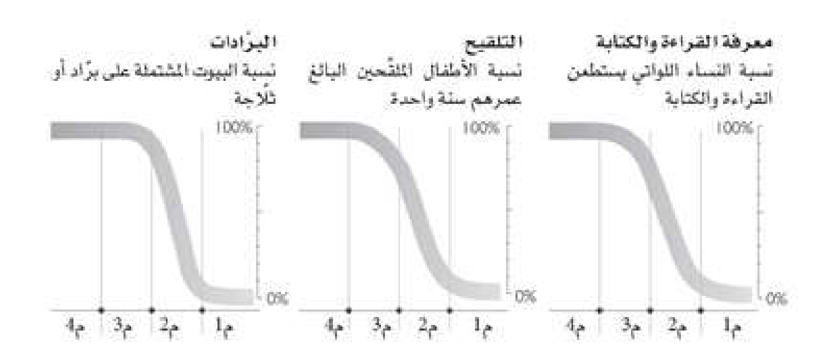


انحناءات S

عندما نقارن الدخل مع الضرورات الأساسية مثل التعليم الابتدائي أو التلقيح، نرى منحنيات على شكل حرف S. هذه المنحنيات منخفضة ومستوية في المستوى 1، ثمّ ترتفع بسرعة في المستوى 2، وهذا لأنّ البلدان فوق المستوى 1 يمكنها تحمّل نفقات التعليم الابتدائي والتلقيح (أكثر مداخلة صحية موجودة فعّالة في الكلفة) لجميع السكّان تقريبًا. تمامًا كما سنشتري لأنفسنا برّادًا وهاتفًا خلويًّا بمجرّد أن نصبح قادرين على ذلك ماديًّا، ستستثمر البلدان في التعليم الابتدائي والتلقيح بمجرّد أن تكون قادرة على تحمّل نفقاتهما. ثمّ يستوي المنحنى في المستويَين 3 و4. الجميع بالفعل حاصلٌ على هذه الأمور. تصل المنحنيات إلى ذروتها وتبقى هناك.

إنّ تذكّر هذا النوع من المنحنى سيساعدك في تحسين تخمينك بشأن العالم:

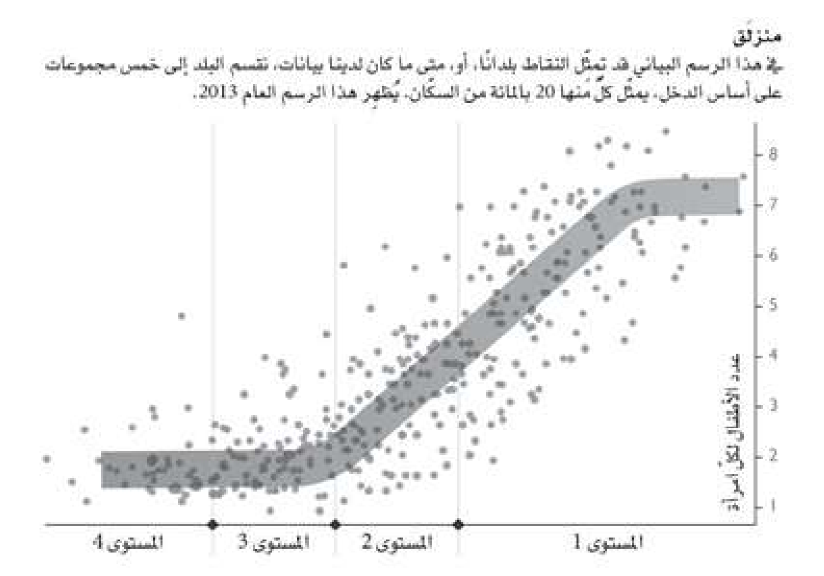
في المستوى 2، يمكن للجميع تقريبًا أن يتحمّل نفقات احتياجاته الفيزيائية الأساسية.



المنزلقات

يبدو منحنى عدد الأطفال لكلّ امرأة مثل منزلَق في ملعب للأطفال. يبدأ مستويًا، وبعد مستوىً معيّن من الدخل، ينحدر للأسفل، ومن ثمّ يستوي ويبقى منخفضًا، أقلّ من طفلَين فقط لكلّ امرأة.

مُحوِّلين انتباهنا للحظة عن الرسوم البيانية للدخل، نرى شكلًا مشابهًا في تكلفة التلقيح. في صفوف الرياضيات الأساسية، نحن ندرِّس الأطفال الضرب. إذا كانت الحقنة تكلّف 10$، ما هو سعر مليون حقنة؟ تعرف اليونيسف كيف تحسب ولكنها أيضًا أنقذت حياة الملايين من الأطفال بعدم قبول الخطّ المستقيم. فاوضت على عقود ضخمة مع شركات صيدلانية، خُفِّض فيها السعر إلى الحدّ الأدنى مقابل عقود مضمونة طويلة الأجل. ولكن



عندما تكون قد تفاوضت وصولًا إلى السعر الأدنى، لا يمكنك أن تحصل على أقلّ منه. هذا منحنى آخر منزلَق الشكل.

الحدبات

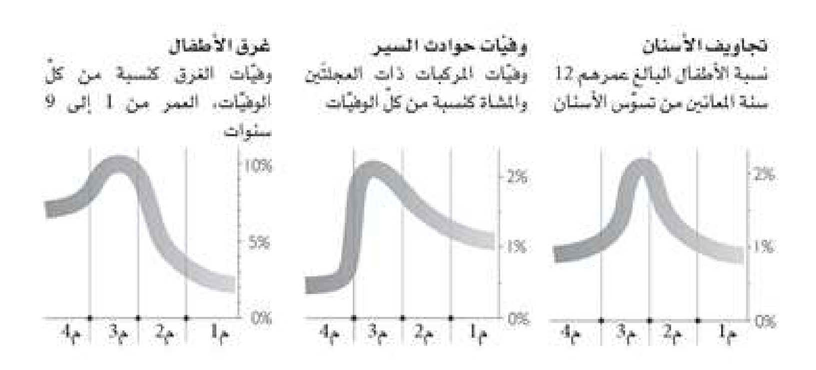
ستنمو نبتة الطماطم لديك طالما أنها تحصل على الماء. إن كان ما تحتاجه إذن هو المزيد من الماء، لماذا لا تدير خرطوم المياه باتجاهها، كي تُنبِت حبّة طماطم ضخمة تستأهل الفوز بجائزة؟ بالطبع أنت تعرف أنّ هذه الطريقة لا تنجح. إنها مسألة جرعة. القليل جدًّا وتموت. الكثير جدًّا وتموت أيضًا. بقاء الطماطم قليل في البيئات الجافة جدًّا والرطبة جدًّا، ولكنه عال في البيئات الواقعة في المنتصف.

على نحوٍ مماثل، هناك بعض الظواهر التي هي أقلّ في البلدان ذات المستوى 1 والبلدان ذات المستوى 4، ولكنها أعلى في البلدان ذات الدخل المتوسط؛ ما يعني غالبية البلدان.

صحة الأسنان، على سبيل المثال، تصبح أسوأ عندما ينتقل الناس من المستوى 1 إلى المستوى 2، ثمّ تتحسّن مرّة أخرى في المستوى 4. وهذا لأنّ الناس يبدأون في تناول الحلوى حالما يصبحون قادرين على شرائها، ولكنّ حكوماتهم لا تستطيع تحمّل نفقات إعطاء الأولويّة للتعليم العام الوقائي الخاص بتسوّس الأسنان حتى بلوغ المستوى 3. وهكذا تُعتبَر الأسنان الرديئة مؤشّرًا للفقر النسبي

في المستوى 4، ولكنها قد تشير إلى العكس في المستوى 1.

تُظهِر حوادث المركبات الآلية نمطًا مماثلًا محدّب الشكل. تملك البلدان في المستوى 1 عددًا أقلّ من المركبات الآلية لكلّ شخص، ولهذا ليس فيها الكثير من حوادث السير. أمّا في البلدان ذات المستوى 2 والمستوى 3، يستمرّ أفقر الناس في قطع المسافات مشيًا، بينما يبدأ الآخرون في التنقّل بالمركبات الآلية – الباصات الصغيرة والدرّاجات الناريّة – ولكنّ الطرق، وأنظمة السير، والتعليم المروري لا تزال كلّها رديئة، ولهذا تصل الحوادث إلى ذروة، قبل أن تنحدر ثانيةً في البلدان ذات المستوى 4. التحليل نفسه ينطبق على وفيّات الأطفال جراء الغرق كنسبة مئوية من كلّ الوفيّات.

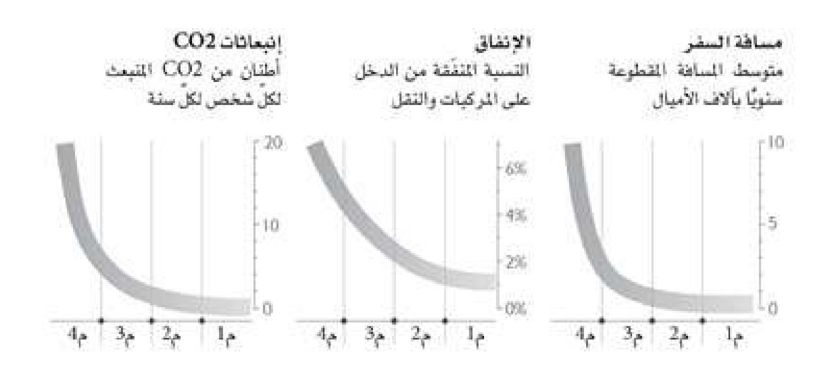


مثل الطماطم، يحتاج البشر إلى الماء ليبقوا على قيد الحياة. ولكن إذا شربت ستّة ليترات من الماء دفعةً واحدة، ستموت. الأمر نفسه صحيح في ما يتعلّق بالسكّر، والدهن، والأدوية. في الواقع، كلّ شيء تحتاجه للبقاء يُصبِح مُميتًا إذا أُخِذ بجرعات عالية. الكثير جدًّا من الإجهاد سيئ، ولكنّ القدر الملائم منه يحسّن الأداء. للثقة بالنفس جرعتها المثلى. مأخوذ الأخبار الدراماتيكية من بقية العالم له على الأرجح جرعته المثلى أيضًا.

الخطوط المتضاعفة

أخيرًا، التضاعف. النمط المتضاعف لفيروس إيبولا هو في الواقع نوعٌ شائع جدًّا من الأنماط في الطبيعة. على سبيل المثال، يمكن لعدد البكتيريا الإشريكية القولونية في الجسم أن ينفجر في بضعة أيام فقط لأنها يمكن أن تتضاعف كلّ 12

ساعة: 1، 2، 4، 8، 16، 32... يحوي عالم النقل أيضًا العديد من الأنماط المتضاعفة. مع زيادة دخل الناس، تتضاعف المسافة التي يقطعونها كلّ سنة باستمرار. وكذلك تفعل النسبة المنفَقة من دخلهم على النقل. في المستوى 4، يتسبّب النقل في ثلث إجمالي انبعاثات ثاني أكسيد الكربون؛ التي تتضاعف أيضًا مع الدخل.



لسوء الحظّ، تنمو مداخيل معظم الناس بسرعة أبطأ كثيرًا من البكتيريا. ومع ذلك، حتى لو كان دخلك يزداد بنسبة 2 بالمائة فقط في السنة، فسيكون قد تضاعف بعد مرور 35 سنة. ومن ثمّ، إذا حافظت على نموّ 2 بالمائة، فسيتضاعف مرّة أخرى بعد 35 سنة أخرى. وبعد 200 سنة – إذا عشت لهذا العمر – سيكون قد تضاعف ستّ مرّات، وهو ما شاهدناه بالضبط في مسار فقّاعة السويد في الفصل السابق، وهو نموذجيًّا المسار البطيء والمنتظم الذي انتقلت عبره البلدان من المستوى 1 إلى المستوى 4. يُظهِر الرسم البياني على الصفحة التالية كيف تنقلك ستّة تضاعفات عبر كلّ مستويات الدخل الأربعة.

لقد قسّمت المستويات بهذه الطريقة لأنها الطريقة التي يعمل بها المال. إنّ تأثير دولار إضافي واحد يختلف من مستوىً إلى مستوى. في المستوى 1، مع $1 في اليوم، يمكن لدولار آخر أن يشتري لك ذلك الدلو الإضافي. هذا أمرٌ مغيِّر للحياة. في المستوى 4، مع $64 في اليوم، ليس لدولار آخر أي تأثير يُذكَر. ولكن مع $64 آخر في اليوم، يمكنك أن تبني بركة أو تشتري منزلًا صيفيًّا. هذا أمرٌ مغيِّر للحياة بالنسبة إليك. لا إنصاف في هذا العالم، ولكنّ مضاعفة دخل المرء، من أي نقطة ابتدائية، هو دومًا مغيِّر للحياة. أستخدم مقياس التضاعف هذا متى ما قارنت الدخل لأنها الطريقة التي يعمل بها المال.

بالمناسبة، تعمل مقاييس الزلازل، ومستويات الصوت، والأسّ الهيدروجيني بالطريقة نفسها.

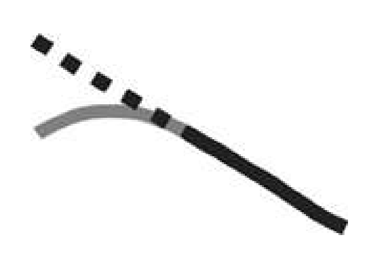


كم ترى من المنحنى؟

تتّخذ المنحنيات أشكالًا عديدة مختلفة. إنّ جزء المنحنى المألوف لدينا، كوننا نعيش في المستوى 4، قد لا ينطبق على الإطلاق على المستويات 1، أو 2، أو 3. يمكن لاتجاه علوي مستقيم كما يبدو للناظر أن يكون جزءًا من خطّ مستقيم، أو انحناء S، أو حدبة، أو خطّ متضاعف. ويمكن لاتجاه سفلي مستقيم كما يبدو للناظر أن يكون جزءًا من خطّ مستقيم، أو منزلَق، أو حدبة. بمكننا أن نصل بين أي نقطتَين بخطّ مستقيم، ولكن عندما يكون لدينا ثلاث نقاط يمكننا التمييز بين خطّ مستقيم (1، 2، 3) وبداية ما يمكن أن يكون خطًّا متضاعفًا (1، 2، 4).

من أجل أن نفهم ظاهرة، علينا أن نتأكّد أننا نفهم شكل المنحنى. عندما نفترض أننا نعرف كيف سيستمرّ الخطّ مستقبلًا، سنصل إلى الاستنتاجات الخاطئة ونأتي بحلول خاطئة. هذا ما فعلته قبل أن أدرك أنّ وباء إيبولا كان يتضاعف. وهذا ما يفعله كلّ شخص يظنّ أنّ عدد سكّان العالم يزداد فقط.

الإلمام بالحقيقة

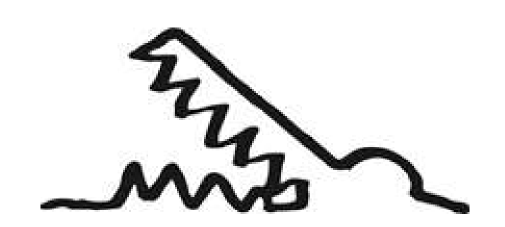


الإلمام بالحقيقة هو... تمييز الافتراض أنّ خطًّا ما سيستمرّ فقط مستقيمًا، وتذكُّر أنّ مثل هذه الخطوط نادرة في الواقع.

من أجل التحكّم بغريزة الخطّ المستقيم، **تذكّر أنّ المنحنيات تتّخذ أشكالًا مختلفة.**

* **لا تفترض خطوطًا مستقيمة.** لا يتبع الكثير من الاتجاهات خطوطًا مستقيمة، وإنما انحناءات S، أو منزلقات، أو حدبات، أو خطوطًا متضاعفة. ما من طفل في العالم حافظ على نفس معدّل النموّ الذي حقّقه في الأشهر الستّة الأولى من حياته، ولا أحد من الآباء سيتوقع ذلك لطفله.

الفصل الرابع
غريزة الخوف



كيف يمكن إخفاء 40 مليون طائرة،
وكيف فزتُ نوعًا ما بجائزة نوبل للسلام

دمٌ على جميع أنحاء الأرضية

في 7 أكتوبر من العام 1975، كنت أضع جبيرة جبس على ذراع مريض عندما اندفعت ممرّضة مساعدة بقوّة إلى داخل الغرفة وأعلنت أنّ طائرة قد تحطّمت وأنّ الجرحى سيصلون إلى المستشفى في طائرة مروحية. كان ذلك يومي الخامس كطبيب مبتدئ في جناح الطوارئ في مدينة هوديكسفال الساحلية الصغيرة في السويد. كان كلّ الأطباء والموظّفين الكبار في قاعة الطعام في الأسفل، وبينما شرعت أنا والممرّضة المساعدة في البحث باهتياج شديد عن مجلّد تعليمات الكوارث، كنت أسمع بالفعل صوت المروحية وهي تحطّ على الأرض. كان علينا نحن الاثنان أن نتدبّر هذا الأمر بمفردنا.

بعد ذلك بثوان، أُدخِل رجلٌ على نقّالة يرتدي رداءً سرواليًّا أخضر داكنًا وسترة نجاة مموّهة. كانت ذراعاه ورجلاه ترتعشان. فكّرت أنها نوبة صرع وشرعت في خلع ملابسه عنه. نزعت عنه سترة النجاة بسهولة، ولكنّ نزع ردائه السروالي لم يكن سهلًا. بدا مثل بذلة فضائية، مع سحّابات ضخمة متينة في كلّ مكان، وبغضّ

النظر عن محاولاتي الجاهدة لم أتمكّن من إيجاد السحّاب الذي يفتحها جميعًا. أدركت فجأةً أنّ هذا الزيّ يعني أنّ المصاب كان ربّانًا عسكريًّا، ولاحظت الدم على جميع أنحاء الأرضية. صرخت، «إنه ينزف». مع كلّ هذا الدم، عرفت أنه يمكن أن يموت في غضون ثوان، ولكن مع ردائه السروالي مغطّيًا جسده، لم أستطع أن أرى مصدر انبعاث الدم. أمسكت بكمّاشة جبس كبيرة لأشقّ القماش وزعقت في الممرّضة المساعدة، «أربعة أكياس من الدم، O سالب. الآن!»

صرخت سائلًا المريض: «أين الألم؟» أجاب: «يازهي شيشا... نا أدجزهيزها زها...». لم أستطع أن أفهم كلمة واحدة، ولكن بدا أنه يتكلّم الروسية. نظرت إلى الرجل في عينيه وقلت بصوت واضح: «все тихо товарищ, шведскауа больница»، وتعني «كلّ شيء على ما يُرام، يا صاحبي، المستشفى السويدي».

لن أنسى أبدًا نظرة الذعر التي استحثثتها بهذه الكلمات. نظر محدِّقًا إليّ وقد تملّكه خوفٌ شديد وحاول أن يقول لي شيئًا: «فافدففور بابراتارجنجي ريسكامِمِجي إج...». نظرت في عينيه والخوف يملأني، ومن ثمّ فهمت: لا بدّ أنّ هذا ربّان طائرة مقاتلة أصيب فوق الأراضي السويدية. ما يعني أنّ الاتحاد السوفييتي يهاجمنا. لقد بدأت الحرب العالمية الثالثة! شلّني الخوف.

لحسن الحظّ أنه في تلك اللحظة عادت رئيسة الممرّضات، بيرغيتا، من قاعة الغداء. اختطفت كمّاشة الجبس من يدي وهسهست: «لا تشقّه. هذه ’بذلة G‘ لسلاح الجوّ وهي تكلّف أكثر من 10,000 كرونور سويدي». ثمّ أضافت: «وهل يمكنك رجاءً أن ترفع قدمَيك عن سترة النجاة. أنت تقف على الخرطوشة الملوّنة وهي تجعل الأرضية كلّها حمراء».

التفتت بيرغيتا إلى المريض، وحرّرته بهدوء من بذلة سلاح الجوّ، وغطّته بزوج من البطانيّات. وفي غضون ذلك أخبرته باللغة السويدية: «كنت في الماء الجليدي لمدّة 23 دقيقة، وهو سبب ارتجاجك وارتعاشك، وسبب عجزنا عن فهم ما تقول». نظر إليّ ربّان سلاح الجوّ السويدي، الذي تعرّض لحادث خلال رحلة طيران روتينية، ومنحني ابتسامة صغيرة مؤاسية.

اتّصلت بالربّان قبل بضع سنوات، وشعرت بالارتياح عندما علمت أنه لا يتذكّر شيئًا من تلك الدقائق الأولى في غرفة الطوارئ في العام 1975. ولكن بالنسبة لي،

فإنّ التجربة لا تُنسى. سأتذكّر دومًا سوء تقديري للأمور. كلّ شيء كان بالعكس: الروسي كان سويديًّا، والحرب كانت سلامًا، ونوبة الصرع كانت بردًا، والدم كان أنبوبًا ملوّنًا من داخل سترة النجاة. ومع ذلك، بدا كلّ شيء مقنعًا جدًّا بالنسبة لي.

عندما نكون خائفين، نحن لا نرى بوضوح. كنت طبيبًا مبتدئًا أواجه حالتي الطارئة الأولى، وكنت دومًا مرعوبًا باحتمال اندلاع حرب عالمية ثالثة. كثيرًا ما حلمت بكوابيس بهذا الشأن أثناء طفولتي. كنت أستيقظ من نومي وأركض إلى سرير والدَيّ. لم أكن أهدأ إلّا عندما يخبرني أبي بتفاصيل خطّتنا مرّةً أخرى: سنأخذ خيمتنا في العربة المقطورة ونذهب لنعيش في الغابة حيث هناك الكثير من التوت. مفتقرًا إلى الخبرة، وفي حالة طارئة للمرّة الأولى، ولّد عقلي بسرعة سيناريو الحالة الأسوأ. لم أرَ ما أريد أن أراه. رأيت ما أنا خائف من رؤيته. التفكير الانتقادي صعب دائمًا، ولكنه مستحيل تقريبًا عندما نكون خائفين. ليس هناك مكان للحقائق عندما تكون عقولنا مملوءة بالخوف.

مصفاة الانتباه

لا أحد منّا يملك القدرة العقلية الكافية لاستهلاك كلّ المعلومات حولنا. السؤال هو، ما الجزء الذي نعالجه وكيف تمّ انتقاؤه؟ وما الجزء الذي نتجاهله؟ جزء المعلومات الذي نبدو أكثر احتمالًا لمعالجته هو القصص: المعلومات التي تبدو دراماتيكية.

تخيّل أنّ هناك حائلًا، أو مصفاة انتباه، بين العالم وأدمغتنا. تعمل مصفاة الانتباه هذه على حمايتنا من ضجيج العالم: فبدونها، سنُمطَر بوابل من المعلومات المثقِلة والمشِلَّة. ثمّ تخيّل أنّ مصفاة الانتباه تشتمل على عشرة ثقوب غريزية: الفجوة، السلبية، الخطّ المستقيم، إلخ. لا تمرّ معظم المعلومات في المصفاة، ولكنّ الثقوب تسمح بمرور المعلومات التي تروق لغرائزنا الدراماتيكية. وهكذا يؤول بنا الأمر إلى الانتباه للمعلومات التي تتلاءم مع غرائزنا الدراماتيكية، وتجاهل ما عدا ذلك من المعلومات.

لا يمكن لوسائل الإعلام أن تضيّع الوقت على قصص لن تمرّ في مصافي انتباهنا.

إليك عنوانان رئيسيّان سيرفضهما محرّر صحيفة لأنهما لن يمرّا على الأرجح

في مصافينا الخاصة: «**تستمرّ حالات المالاريا في التناقص تدريجيًّا**»، و«**تنبّأ علماء الأرصاد الجويّة أمس أنّ الطقس في لندن سيكون معتدلًا اليوم**». إليك بعض العناوين التي ستمرّ بسهولة في مصافينا: الزلازل، الحروب، اللاجئون، الأمراض، الحرائق، الفيضانات، هجمات أسماك القرش، الهجمات الإرهابية. هذه الأحداث الغريبة هي ذات أهمية إخبارية أكثر من الأخبار اليومية العادية. وهذه القصص الغريبة التي تُعرَض علينا باستمرار من قِبَل وسائل الإعلام ترسم صورًا في رؤوسنا. إذا لم نكن متنبّهين للغاية، فسنصدّق أنّ الغريب هو المعتاد: تلك هي الصورة التي يبدو عليها العالم.

للمرّة الأولى في تاريخ العالم، تتوفّر البيانات لكلّ وجه تقريبًا من أوجه التطوّر العالمي. ومع ذلك، بسبب غرائزنا الدراماتيكية والطريقة التي يجب على وسائل الإعلام أن تستغلّها لتستحوذ على انتباهنا، نستمرّ في امتلاكنا لنظرة عالمية دراماتيكية بإفراط. من بين كلّ غرائزنا الدراماتيكية، يبدو أنّ الغريزة الأكثر تأثيرًا في نوع المعلومات المختارة من قِبَل منتجي المعلومات والمعروضة علينا نحن المستهلكين هي غريزة الخوف.

غريزة الخوف

عندما يُسأَل الناس في استطلاعات الرأي عن أكثر شيء يخيفهم، هناك أربع إجابات من شأنها دومًا أن تكون في المقدِّمة: الأفاعي، والعناكب، والارتفاعات، والاحتجاز في أمكنة ضيقة. ثمّ تأتي قائمة طويلة مألوفة: الخطاب العلني، الإبر، الطائرات، الفئران، الغرباء، الكلاب، الحشود، الدم، الظلام، الحريق، الغرق، إلخ.

هذه المخاوف متأصّلة عميقًا في أدمغتنا لأسباب واضحة. فالخوف من الأذى الجسدي، والأسر، والسمّ ساعد أسلافنا في ما مضى على البقاء أحياء. في الأزمان الحديثة، لا يزال تصوُّر هذه الأخطار يستحثّ غريزة الخوف لدينا. يمكنك أن تسمع قصصًا عنها في الأخبار كلّ يوم:

* الأذى الجسدي: العنف المسبَّب من قِبَل الناس، أو الحيوانات، أو الأجسام الحادة، أو قِوى الطبيعة

* الأسر: الاحتجاز، أو فقد السيطرة، أو فقد الحريّة

* التلوّث: بواسطة مواد غير مرئية يمكن أن تسمّمنا أو تصيبنا بالعدوى

لا تزال هذه المخاوف بنّاءة للناس في المستويَين 1 و2. على سبيل المثال، إنه لأمرٌ عملي أن يخاف الناس في المستويَين 1 و2 من الأفاعي. يُقتَل ستّون ألف شخص سنويًّا بسبب الأفاعي. من الأفضل أن تقفز كلّما رأيت عودًا. مهما كان عملك، احترس من العضّ. ليس هناك مستشفى قريب، وفي حال وجوده لن تستطيع تحمّل النفقات.

أمنيةُ قابِلة

في العام 1999، سافرت مع طالبَين سويديَّين لزيارة قابلة تقليدية في تانزانيا. أردت أن يلتقي طلّابي من المستوى 4 في كليّة الطبّ عاملِين حقيقيِّين في مجال الصحّة من المستوى 1 بدلًا من مجرّد القراءة عنهم في الصحف. لم تتلقّ القابلة تعليمًا رسميًّا، ودُهِش الطالبان عندما وصفت القابلة كفاحها، متنقّلة مشيًا بين القرى لتساعد النساء الفقيرات على وضع أطفالهن على الأرضيّات الطينيّة في الظلام الدامس بدون توفّر معدّات طبيّة أو مياه نظيفة.

سأل أحدهما: «هل لديك أولاد؟». أجابت بفخر: «صبيّان وبنتان». «هل ستصبح ابنتاك قابلتَين مثلك؟». «ابنتاي! تعملان مثلي! لا! أبدًا! على الإطلاق! لديهما وظيفة جيدة. تعملان على الكمبيوتر في دار السلام. تمامًا كما أرادتا». خرجت ابنتا القابلة من المستوى 1.

سأل الآخر: «إذا كان بإمكانك أن تختاري أداة يمكنها أن تسهّل عملك، ماذا ستكون؟». أجابت: «أريد مصباحًا ومضيًّا. عندما أذهب إلى قرية مشيًا على الأقدام في الظلام، حتى عندما يلمع ضوء القمر، من الصعب جدًّا أن أرى الأفاعي».

في المستويَين 3 و4، حيث الحياة أقلّ تطلُّبًا جسديًّا وبإمكان الناس أن يتحمّلوا نفقات حماية أنفسهم من الطبيعة، فإنّ هذه الذكريات البيولوجية تضرّ على الأرجح أكثر ممّا تنفع. في المستوى 4، من المؤكّد أنّ المخاوف التي نشأت في ما مضى لتحمينا هي الآن مُضرّة بنا. هناك أقلّية صغيرة – 3 بالمائة – من السكّان في المستوى 4 تعاني من رهاب قوي جدًّا يعيق الحياة اليومية. بالنسبة إلى الغالبية

العظمى منّا غير المعاقة بالرهاب، فإنّ غريزة الخوف تؤذينا بتشويهها لنظرتنا العالمية.

لا تستطيع وسائل الإعلام أن تقاوم استغلال غريزة الخوف لدينا. يا لها من طريقة سهلة لأسر انتباهنا. الواقع أنّ القصص الكبرى هي غالبًا تلك التي تستحثّ أكثر من نوعٍ واحد من الخوف. فعلى سبيل المثال، يجمع كلٌّ من الاختطاف وتحطّم الطائرات خوف الأذى وخوف الأسر معًا. وضحايا الزلازل المحتجزين تحت الأبنية المنهارة يجمعون الخوفَين معًا، ويأسرون الانتباه أكثر من غيرهم من ضحايا الزلازل المعتادين. تكون الدراما أكثر قوة بكثير عندما تستحثّ مخاوف متعدّدة.

ومع ذلك إليك المفارقة: صورة العالم الخطير لم تكن في يومٍ من الأيام مُذاعة بهذا الشكل الفعّال أكثر ممّا هي اليوم، بينما لم يكن العالم أبدًا أقلّ عنفًا وأكثر أمنًا.

المخاوف التي ساعدت أسلافنا في ما مضى على البقاء أحياء، تساعد الصحفيين اليوم على الاستمرار في وظائفهم. ليس هذا خطأ الصحفيين ولا يجب أن نتوقّع منهم أن يتغيّروا. هذه المخاوف ليست مقادة بـ «منطق وسائل الإعلام» بين المنتجين بقدر ما هي مقادة بـ «منطق الانتباه» في رؤوس المستهلكين.

إذا نظرنا إلى الحقائق خلف العناوين الرئيسية، يمكننا أن نرى كيف تُشوِّه غريزةُ الخوف بشكلٍ منهجي ما نراه من العالم.

الكوارث الطبيعية: في أزمان مثل هذه

نيبال هي واحدةٌ من آخر الدول الآسيوية التي لا تزال في المستوى 1، وقد ضربها زلزال في العام 2015. يكون معدّل الوفيّات أعلى دومًا عندما تضرب كارثة بلدًا في المستوى 1، وهذا بسبب ضعف تشييد المباني، وضعف البنية التحتيّة، وسوء المرافق الطبيّة. توفّي تسعة آلاف شخص.

سؤال الحقيقة السابع

كيف تغيّر العدد السنوي للوفيّات الناجمة عن الكوارث الطبيعية على مدى الـ100 سنة الأخيرة؟

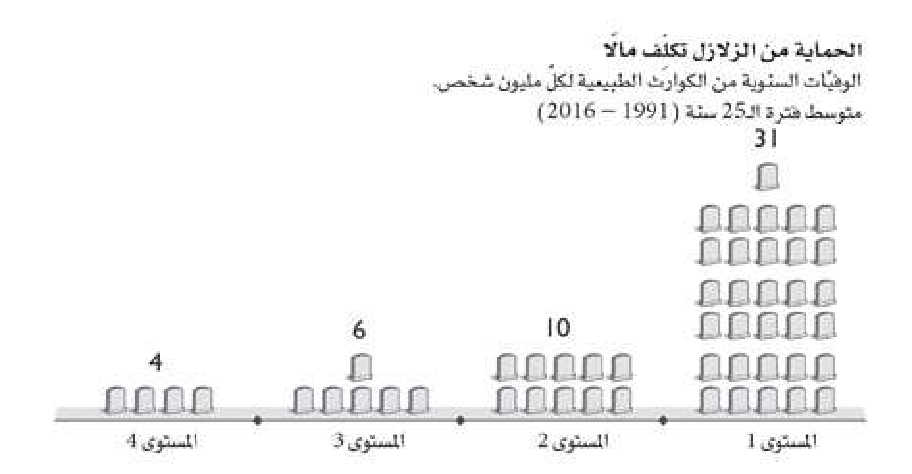
أ:	تضاعف أكثر من مرّتَين

ب:	بقي كما هو تقريبًا

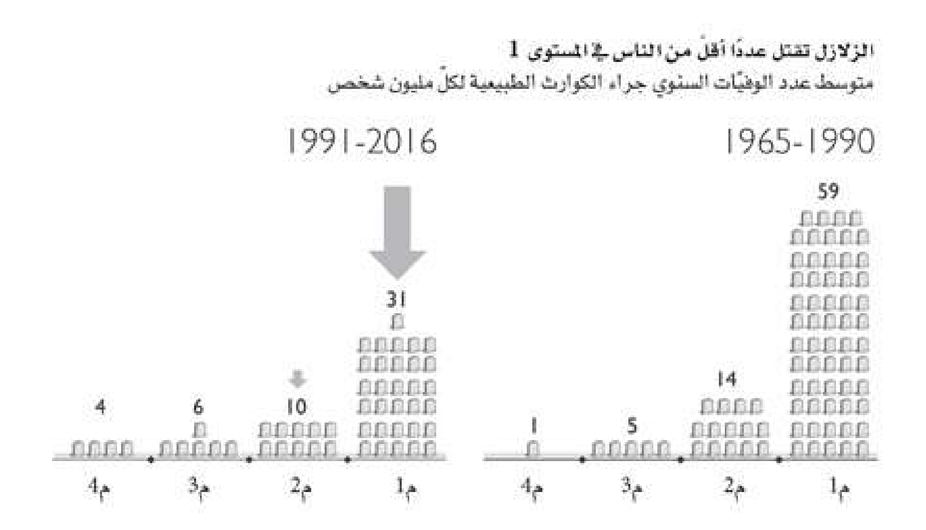
ج:	انخفض إلى أقلّ من النصف

يشتمل هذا العدد على كلّ الضحايا من الفيضانات، والزلازل، والعواصف، والجفاف، وحرائق الغابات، ودرجات الحرارة القصوى، وأيضًا الوفيّات خلال الانتقال الجماعي للناس والأوبئة بعد هكذا أحداث. 10 بالمائة فقط من الناس اختاروا الإجابة الصحيحة، وفي البلدَين اللذَين سجّلا أفضل أداء في هذا السؤال – فنلندا والنرويج – كانت النسبة 16 بالمائة فقط (كما هو الحال دومًا، التصنيف الكامل لكلّ بلد موجود في الملحق). أحرزت قرود الشمبانزي، التي لا تشاهد الأخبار، نسبة 33 بالمائة، كالعادة! الواقع أنّ عدد الوفيّات من جراء الكوارث الطبيعية قد انخفض إلى أقلّ من النصف. إنه الآن يمثّل 25 بالمائة فقط ممّا كانه قبل 100 سنة. ازداد عدد السكان بمقدار 5 مليارات شخص في الفترة نفسها، ولهذا فإنّ الانخفاض في الوفيّات لكلّ فرد هو حتى أكثر إذهالًا، حيث انخفض إلى 6 بالمائة فقط ممّا كانه قبل 100 سنة.

تقتل الكوارث الطبيعية اليوم عددًا أقلّ بكثير من الناس، وليس هذا لأنّ الطبيعة قد تغيّرت، بل لأنّ غالبية الناس لم يعودوا يعيشون في المستوى 1. تضرب الكوارث البلدان بغضّ النظر عن مستوى دخلها، ولكنّ الأضرار الناجمة مختلفة كثيرًا. مع توفُّر المال يتوفّر التحضير المسبق. يُظهِر الرسم البياني أدناه متوسط عدد الوفيّات جراء الكوارث الطبيعية لكلّ مليون شخص على مدى الـ25 سنة الأخيرة، لكلّ مستوى دخل.



بفضل التعليم الأفضل، والحلول الجديدة الميسورة التكلفة، والتعاون العالمي، أصبح الانخفاض في معدّلات الوفيّات مذهلًا بالفعل حتى بين أولئك العالقين في المستوى 1؛ كما هو مبيّن في الصورة على الصفحة التالية (نحن ننظر إلى المتوسطات في فترات زمنية ممتدّة 25 عامًا لأنّ الكوارث الطبيعية لا تحدث بمعدّل منتظم كلّ سنة. ومع ذلك، كان حادثٌ واحد فقط، موجة الحرّ التي اجتاحت أوروبا في العام 2003، مسؤولًا إلى حدّ كبير عن تضاعف معدّل الوفيّات أربع مرّات في المستوى 4).



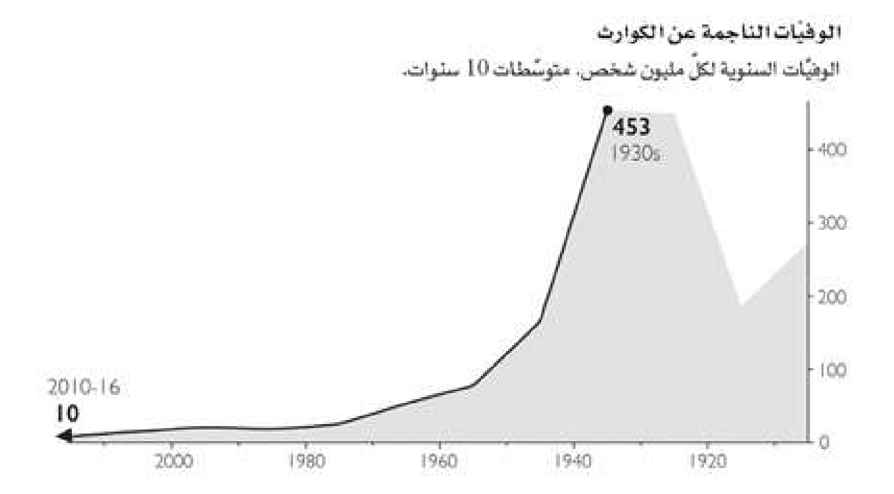
في العام 1942، كانت بنغلادش في المستوى 1 وكان كلّ مواطنيها تقريبًا

مزارعين أمّيين. عانت على مدى فترة استمرّت سنتَين من الفيضانات، والجفاف، والأعاصير. لم تأت أي منظّمات دولية للإنقاذ ومات مليونا شخص. اليوم، بنغلادش في المستوى 2. اليوم، كلّ أطفال بنغلادش ينهون المدرسة، حيث يتعلّمون أنّ ثلاثة أعلام حمراء وسوداء تعني أنّ الجميع يجب أن يهربوا إلى مراكز الإخلاء. اليوم ركّبت الحكومة عبر دلتا النهر الكبير للبلد نظام مراقبة رقميًّا متّصلًا بموقع ويب متوفّر مجّانًا لمراقبة الفيضانات. قبل 15 سنة فقط، لم يكن لدى أي دولة في العالم مثل هذا النظام المتقدّم. عندما ضرب إعصارٌ آخر في العام 2015، نجحت الخطّة ونقل برنامج الغذاء العالمي بالطائرة 113 طنًّا من البسكويت العالي الطاقة إلى الـ30,000 عائلة التي تمّ إجلاؤها.

في السنة نفسها، نشرت الصورُ الحيّة الوعيَ عبر العالم بشأن الزلزال الرهيب في نيبال، وانتشرت فرق الإنقاذ والمروحيّات على الفور. على نحوٍ مأساوي، كان الآلاف قد فارقوا الحياة بالفعل، ولكنّ الموارد الإنسانية التي تدفّقت إلى هذا البلد المتعذّر الوصول إليه، والذي لا يزال في المستوى 1، تدبّرت بالفعل منع عدد القتلى من الارتفاع أكثر.

أصبحت شبكة الإغاثة ReliefWeb التابعة للأمم المتحدة مُنسِّقةً عالمية لمساعدات الكوارث؛ شيء كان بإمكان الأجيال المبكرة من ضحايا الكوارث أن تحلم به فقط. تُدفَع هذه المساعدات من قِبَل الخاضعين للضرائب في المستوى 4. يجب أن نكون فخورين جدًّا بهذا. لقد اكتشفنا أخيرًا، نحن البشر، كيف نحمي أنفسنا من الكوارث الطبيعية. إنّ الانخفاض الضخم في عدد الوفيّات الناجمة عن الكوارث الطبيعية هو اتجاه آخر ينبغي إضافته إلى كومة قصص النجاح البشري المجهولة والمتغافَل عنها.

لسوء الحظّ أنّ الناس في المستوى 4 الذين يدفعون لشبكة الإغاثة هم نفس الناس الذين سألناهم عن الاتجاه في الكوارث الطبيعية. واحد وتسعون بالمائة منهم غير مدركين للنجاح الذي يدفعون له لأنّ صحفييهم يستمرّون في نقل أخبار كلّ كارثة كما لو كانت الأسوأ. هم لا يرون أنّ خطّ الاتجاه الطويل المنخفض بتألّق، شعاع الأمل هذا المستند إلى الحقيقة، جديرٌ لأن يكون مادة إخبارية.



في المرّة التالية التي تعرض عليك الأخبار فيها صورًا رهيبة لضحايا محتجزين تحت أبنية منهارة، هل ستكون قادرًا على تذكّر الاتجاه الإيجابي طويل الأمد؟ عندما يلتفت الصحفي إلى عدسة الكاميرا ويقول، «لقد أصبح العالم فقط أكثر خطورة»، هل ستكون قادرًا على أن تختلف معه بالرأي؟ أن تنظر إلى طاقم الإنقاذ المحلّي معتمرين خوذاتهم الملوّنة وتفكّر، «معظم آبائهم لا يعرفون القراءة. ولكنّ هؤلاء الشباب يتبعون إرشادات الإسعافات الأوّلية المستخدمة دوليًّا. العالم يتحسّن».

عندما يقول الصحفي بوجه حزين، «في أوقات كهذه»، هل ستبتسم وتفكّر أنه يشير إلى المرّة الأولى في التاريخ التي يحظى فيها ضحايا كارثة باهتمام عالمي فوري ويرسل الأجانب أفضل مروحيّاتهم؟ هل ستشعر بأملٍ مستند إلى الحقيقة بأنّ الإنسانية ستكون قادرة على منع المزيد من الوفيّات المروّعة في المستقبل؟

لا أظنّ ذلك. ليس إذا كنت تتفاعل مثلي. لأنه عندما تصوّر تلك الكاميرا أجساد الأطفال الموتى وهي تُسحَب من تحت الأنقاض، فإنّ قدرتي العقلية تُعاق بالخوف والأسى. في تلك اللحظة، لا يمكن لأي رسم بياني خطّي في العالم أن يؤثّر على مشاعري، ولا لأي حقائق أن تواسيني. الادعاء في تلك اللحظة بأنّ الأمور تتحسّن يعني الاستخفاف بالمعاناة الشديدة لأولئك الضحايا وعائلاتهم. سيكون موقفًا لاأخلاقيًّا بكلّ تأكيد. في هذه الحالات، يجب أن ننسى الصورة الكبيرة ونقوم بكلّ ما بوسعنا للمساعدة.

يجب على الحقائق الكبيرة والصورة الكبيرة أن تنتظرا إلى حين زوال الخطر.

ولكن علينا حينها أن نجرؤ على إنشاء نظرة عالمية مستندة إلى الحقيقة مرّة أخرى. يجب أن نهدئ أدمغتنا ونقارن الأرقام لنتأكّد من أنّ مواردنا تُستخدَم بشكلٍ فعّال للحدّ من المعاناة في المستقبل. لا يمكننا أن نجعل الخوف يقود هذه الأولويّات. وهذا لأنّ الأخطار التي أكثر ما نخشاها هي الآن في أغلب الأحيان – بفضل تعاوننا الدولي الناجح – الأخطار التي تسبّب لنا واقعًا أقلّ أذى.

لعشرة أيام أو نحو ذلك في العام 2015، كان العالم يشاهد الصور من نيبال، حيث مات 9,000 شخص. خلال الأيام العشرة نفسها، قتل الإسهال الناجم عن مياه الشرب الملوّثة 9,000 طفل عبر العالم. لم تكن هناك فِرق تصوير عندما كان هؤلاء الأطفال يصابون بالإغماء بين أذرع آبائهم المنتحبين. لم تكن هناك مروحيّات. ولكنّ المروحيّات، على كلّ حال، لا تعمل ضدّ قاتل الأطفال هذا (أحد الأسوأ في العالم). كلّ ما يلزم لمنع طفل من أن يشرب مياهًا ملوّثة هو بضعة أنابيب بلاستيكية، ومضخّة مائيّة، وبعض الصابون، ونظام مجارير أساسي. أرخص بكثير من مروحيّة.

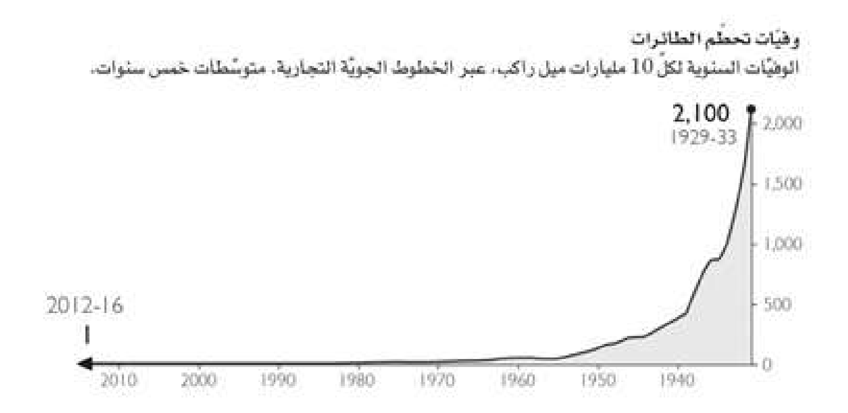
40 مليون طائرة غير منظورة

في العام 2016، وصلت 40 مليون رحلة طيران تجارية بأمان إلى وجهاتها. عشر رحلات فقط تعرّضت لحوادث قاتلة. بالطبع، كانت تلك هي الرحلات التي كتب عنها الصحفيّون: 0.000025 بالمائة من الإجمالي. الرحلات الآمنة ليست ذات أهميّة إخبارية. تخيّل:

«وصلت الرحلة BA0016 من سيدني إلى مطار تشانغي سنغافورة بدون أي مشاكل. كانت هذه أخبار اليوم».

كانت سنة 2016 ثاني أكثر سنة أمانًا في تاريخ الطيران. ليس لهذا أيضًا أهميّة إخبارية.

يُظهر الرسم البياني وفيّات تحطّم الطائرات لكلّ 10 مليارات ميل راكب تجاري على مدى الـ70 سنة الفائتة. أصبح الطيران أكثر أمنًا بـ2,100 مرّة.



في ثلاثينيّات القرن الماضي، كان الطيران خطيرًا بالفعل وكان الركّاب يخشون السفر بالطائرة لكثرة الحوادث. أدركت سُلطات الطيران عبر العالم إمكانات حركة المسافرين الجويّة التجارية، ولكنها أدركت أيضًا أنّ الطيران يجب أن يصبح أكثر أمنًا قبل أن يجرأ معظم الناس على تجربته. التقوا جميعًا في شيكاغو في العام 1944 للاتفاق على قواعد مشتركة ووقّعوا عقدًا مع ملحق 13 هامّ جدًّا: شكلٌ شائع من تقارير الحوادث، اتّفقوا على التشارك فيه، كي يتمكّنوا جميعًا من أن يتعلّموا من أخطاء بعضهم البعض.

ومنذ ذلك الحين، تمّ التحقيق في كلّ تحطّم أو حادث مشتمل على طائرة نقل ركّاب تجارية والتقرير عنه. تمّ تحديد عوامل الخطر بشكلٍ منهجي، كما تمّ تبنّي إجراءات سلامة محسّنة، على مستوى العالم. يا سلام! سأقول أنّ اتفاقية شيكاغو هي واحدة من أكثر تعاونات البشرية إثارةً للإعجاب حتى الآن. إنه لأمرٌ مذهل كم يمكن أن يكون التعاون بين الناس حسنًا عندما يتشاركون في المخاوف نفسها.

غريزة الخوف قوية جدًّا إلى حدّ أنها يمكن أن تجعل الناس يتعاونون عبر العالم لتحقيق أعظم تقدّم. إنها قوية جدًّا بحيث أنها تستطيع أيضًا أن تزيل 40 مليون طائرة سالمة من حقل نظرنا كلّ سنة. تمامًا كما يمكنها أن تمحو عن شاشاتنا التلفازية وفاة 330,000 طفل بسبب الإسهال. هكذا فقط.

الحرب والنزاع

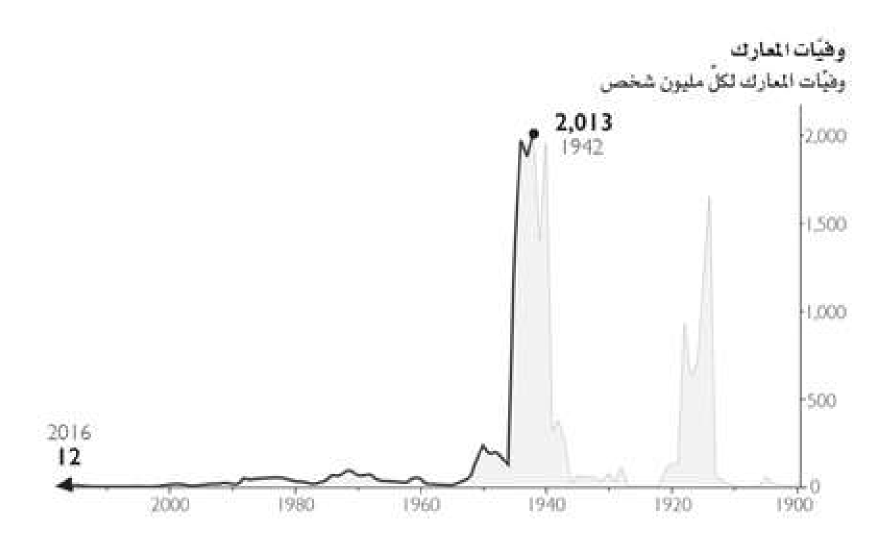
وُلِدت في العام 1948، بعد ثلاث سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية،

التي قُتِل فيها 65 مليون شخص. لم يدّعِ أحد بأنه لن تكون هناك حرب عالمية أخرى. ومع ذلك، لم تكن هناك حرب. جاء السلام بدلًا منها: السلام الأطول بين قوّتَين عظميَين في التاريخ البشري.

اليوم، تُعتبَر النزاعات وخسائر الأرواح الناجمة عنها في أقلّ مستوىً لها. لقد عشت في أكثر العقود سلامًا في التاريخ البشري. عند مشاهدة الأخبار، مع الدفق الذي لا ينتهي من الصور المرعبة، من المستحيل تقريبًا تصديق ذلك.

لا أسعى هنا إلى تهوين الرعب الذي لا يزال موجودًا بدون شكّ. ولا أحاول أن أقلّل من أهمية إنهاء النزاعات الحالية. تذكّر: يمكن للأمور أن تكون سيئة، وفي الوقت نفسه تتحسّن. وأن تتحسّن، رغم أنها لا تزال سيئة. كان العالم في ما مضى همجيًّا في الأغلب، وهو الآن ليس كذلك في الأغلب. ولكن في ما يتعلّق بشعب سوريا، فإنّ هذه الاتجاهات لم تكن قبل سنوات مؤاسية، ولكنها الآن كذلك.

يرجَّح أن تثبت الحرب في سوريا أنها الأكثر دمويّةً في العالم منذ الحرب الأثيوبية الأرتيرية في الأعوام من 1998 إلى 2000. نحن لا نعرف بعد العدد الإجمالي للضحايا، ولا نعرف إن كان الصراع سينتشر. ولكن إذا تبيّن أنّ هناك عشرات الآلاف من الضحايا، فستكون هذه الحرب أقلّ دمويّةً من أسوأ الحروب في تسعينيّات القرن الماضي. وإذا بلغ عدد الخسائر في الأرواح 200,000، فهذا لا يزال أقلّ من حروب الثمانينيّات. ليست هذه مواساة من أي نوع كان لأولئك الذين يعيشون في هذا الرعب، ولكنّ حقيقة أنّ وفيّات المعارك تتناقص عقدًا بعد عقد يجب أن تشعرنا بشيء من الراحة.



إنّ الاتجاه العامّ نحو تناقص العنف ليس مجرّد تحسُّن إضافي آخر. إنه أجمل الاتجاهات الموجودة. فانتشار السلام على مدى العقود الأخيرة مكّن من حدوث كلّ التحسّنات الأخرى التي رأيناها. يجب أن نهتمّ بهذه الهدية الرقيقة إذا كنّا نأمل في تحقيق أهدافنا النبيلة الأخرى، مثل التعاون من أجل مستقبل مستدام. بدون السلام العالمي، يمكنك أن تنسى أمر كلّ أوجه التقدم العالمي الأخرى.

التلوُّث

كان التهديد باندلاع حرب عالمية نووية ثالثة حقيقيًّا جدًّا بالنسبة لي خلال طفولتي في خمسينيّات القرن الماضي وخلال كامل العقود الثلاثة التالية. كان حقيقيًّا لمعظم الناس. حملنا جميعًا في أذهاننا صورًا لضحايا هيروشيما، وعرضت الأخبار القوى العظمى وهي تستعرض عضلاتها النووية مثل لاعبي كمال الأجسام المتعاطين للمنشّطات، قصفًا تجريبيًّا بالقنابل، واحدًا تلو الآخر. في العام 1985، قرّرت لجنة جائزة نوبل للسلام أنّ نزع السلاح النووي كان أهمّ سبب للسلام في العالم. ومنحوا الجائزة لي. حسنًا، ليس لي مباشرة، بل إلى IPPNY، رابطة الأطباء الدولية لمنع نشوب حرب نووية، وكنت عضوًا فخورًا في تلك المنظّمة.

في العام 1986، كان هناك 64,000 رأس نووي حربي في العالم، واليوم هناك 15,0 فقط. وهكذا يمكن لغريزة الخوف أن تساعد حتمًا في إزالة الأشياء الرهيبة من العالم، ولكنها، في مناسبات أخرى، تخرج عن السيطرة، وتشوّه تقديرنا للمخاطر، وتسبّب أذىً رهيبًا.

على عمق ثمانية أميال تحت الماء، على قاع المحيط الهادئ قبالة ساحل اليابان، وقع «حادث تصدّع انزلاقي زلزالي» في 11 مارس من العام 2011. حرّك الحادث الجزيرة اليابانية الرئيسية ثماني أقدام شرقًا وولّد تسونامي وصل إلى الساحل بعد ذلك بساعة، ليقتل نحو 18,000 شخص. كان التسونامي أيضًا أعلى من الجدار المبنيّ لحماية محطّة الطاقة النووية في فوكوشيما. غمرت المياه المقاطعة وغمر الخوفُ من الأذى الجسدي والتلوّث الإشعاعي أخبارَ العالم.

هرب الناس من المقاطعة بأقصى سرعة ممكنة، ولكنّ 1,600 شخص آخر فارقوا الحياة. لم يكن التسرّب الإشعاعي السبب في قتلهم. لم يُبَلَّغ عن أي شخص مات من الشيء الذي كان الناس يفرّون منه. مات هؤلاء الـ1,600 شخص بسبب الإجهاد الفيزيائي والعقلي لعملية الإخلاء نفسها أو من الحياة في مآوٍ الإخلاء. لم يكن النشاط الإشعاعي، وإنما الخوف من النشاط الإشعاعي، هو الذي قتلهم (حتى بعد أسوأ حادثة نووية على الإطلاق، تشرنوبيل في العام 1986، عندما توقّع الناس زيادةً كبيرة في معدّل الوفاة، لم يستطع محقّقو منظّمة الصحّة العالمية أن يؤكّدوا هذا، حتى بين أولئك المقيمين في المنطقة).

في أربعينيّات القرن الماضي، اكتُشِفت مادة كيميائية جديدة عجيبة قتلت العديد من الحشرات المزعجة. كان المزارعون سعداء جدًّا، وكذلك الناس الذين يحاربون المالاريا. رُشّ الدي دي تي (DDT) على المحاصيل، وعبر المستنقعات، وفي البيوت دون التحقّق اللازم من آثاره الجانبية. فاز مخترع الدي دي تي بجائزة نوبل.

خلال خمسينيّات القرن الماضي، بدأت الحركة البيئية المبكرة في الولايات المتحدة في إثارة المخاوف بشأن مستويات الدي دي تي المتراكم أعلى السلسلة الغذائية في الأسماك وحتى الطيور. أوردت العالمة الكبيرة الشهيرة راشيل كارسون في كتابها الربيع الصامت Silent Spring، الذي أصبح في حينها من أفضل الكتب مبيعًا في العالم، اكتشافَها بأنّ قشور بيض الطيور في منطقتها كانت تزداد رقّةً. إنّ فكرة السماح للناس برشّ مواد غير مرئية لقتل الحشرات، وغفلة السُّلطات عن أي علامات للتأثير الأوسع على الحيوانات الأخرى أو على البشر، كانت مخيفة بالطبع.

أُثيرت المخاوف بشأن الأنظمة الناقصة والشركات اللامسؤولة، ونشأت

الحركة البيئية العالمية. بفضل هذه الحركة – وفضائح التلوّث الأخرى مثل التسرّبات النفطية، وعمّال المزارع الذين أُعيقوا عن العمل بسبب المبيدات، وفشل المفاعلات النووية – أصبح لدى العالم اليوم أنظمة ملائمة للسلامة الكيميائية تغطّي العديد من الدول (رغم أنها لا تزال بعيدة عن التغطية المذهلة لصناعة الطيران). حظر استخدام الدي دي تي في عدّة بلدان واضطرت وكالات المعونة أن تتوقّف عن استعماله.

ولكن. ولكن. كتأثير جانبي، تولّد لدينا مستوىً من الخوف العامّ من التلوّث الكيميائي الشبيه تقريبًا بجنون الارتياب. يُطلَق عليه الخوف من الكيماويات (كيموفوبيا).

وهذا يعني أنه لا يزال من الصعب جدًّا اليوم أن نفهم بصورة مستندة إلى الحقيقة مواضيع مثل الطفولة، والتلقيح، والطاقة النووية، والدي دي تي. خلق فينا تذكُّر الأنظمة الناقصة خوفًا وارتيابًا تلقائيَّين، ما يعيق القدرة على سماع حجج مستمدّة من البيانات. ولكني سأحاول على كلّ حال.

أحد الأمثلة المدمّرة على التفكير الانتقادي السيئ هو تجنُّب الآباء العطوفين ذوي التعليم العالي للتلقيح الذي سيحمي أطفالهم من أمراض قاتلة. أنا أحبّ التفكير الانتقادي ويعجبني التشكّك، ولكن فقط ضمن إطارٍ يحترم الدليل. وهكذا إذا كنت متشكِّكًا بشأن التلقيح ضدّ الحصبة، سأطلب منك شيئَين. أوّلًا، تأكّد أنك تعرف ما يعنيه موت طفل بسبب الحصبة. معظم الأطفال الذين يصابون بالحصبة يتعافون، ولكن ليس هناك علاج بعد، وحتى مع أفضل دواء حديث، سيموت واحد أو اثنان من كلّ ألف مصاب بالحصبة. ثانيًا، اسأل نفسك، «أي نوع من الدليل سيقنعني أن أغيّر رأيي؟». إذا كان الجواب «لا يمكن لأي دليل أبدًا أن يغيّر رأيي بشأن التلقيح»، فأنت تضع نفسك خارج العقلانية المستندة إلى الدليل، وخارج التفكير الانتقادي نفسه الذي أوصلك بدايةً إلى هذه النقطة. في هذه الحالة، كي تكون ثابتًا في تشكُّكك بشأن العلم، في المرّة التالية التي ستخضع فيها لعمليّة جراحية، اطلب رجاءً من الجرّاح أن يتجشّم عناء غسل يديه.

مات أكثر من ألف مُسنّ وهم يهربون من تسرّب نووي لم يقتل أحدًا. الدي دي تي مؤذٍ، ولكني لم أستطع أن أجد أرقامًا تُظهِر أنه قتل مباشرةً أي أحد. تحقيقات الأذى التي لم تُنجَز في الأربعينيّات أُنجِزت اليوم. في العام 2002، أصدرت

مراكز مراقبة الأمراض والوقاية منها وثيقة من 497 صفحة بعنوان الملف التوصيفي المتعلّق بسمّيّة الدي دي تي، والدي دي إي، والدي دي دي. في العام 2006، أنهت منظّمة الصحة العالمية أخيرًا مراجعة كلّ التحقيقات العلمية، وتمامًا مثل مراكز مراقبة الأمراض والوقاية منها، صنَّفتْ الدي دي تي بأنه «مؤذٍ باعتدال» للبشر، مُصرِّحةً بأنّ فوائده الصحية أكثر من أضراره في حالات عديدة.

يجب أن يُستخدَم الدي دي تي باحتراس كبير. ولكن هناك إيجابيّات وسلبيّات. على سبيل المثال، في مخيّمات اللاجئين الممتلئة بالبعوض، غالبًا ما يكون الدي دي تي واحدًا من أسرع السُّبل وأرخصها لإنقاذ الأرواح. ومع ذلك، يرفض الأمريكيّون، والأوروبيّون، ومجموعات الضغط المقادة بالخوف أن تقرأ التحقيقات المطوّلة والتوصيات المختصرة لمراكز مراقبة الأمراض والوقاية منها ولمنظّمة الصحة العالمية وهم غير مستعدّين لمناقشة استعمال الدي دي تي. وهذا يعني أنّ بعض منظّمات العون التي تعتمد على التأييد الشعبي تتجنّب الحلول المستندة إلى الدليل التي يمكنها فعليًّا أن تنقذ الأرواح.

ليست معدّلات الوفاة هي السبب وراء تحسين الأنظمة، وإنما الخوف. في بعض الحالات – فوكوشيما، دي دي تي – يمكن للخوف من مادة غير مرئية أن يخرج عن السيطرة ويسبّب أذىً أكثر من المادة نفسها.

البيئة تتدهور في أجزاء عديدة من العالم. ولكن تمامًا كما تحظى الزلازل الدراماتيكية بتغطية إخبارية أكثر من الإسهال، فإنّ التلوّث الكيميائي الصغير ولكن المخيف يحظى بتغطية إخبارية أكثر من التدهور البيئي الأكثر إضرارًا ولكن الأقلّ دراماتيكية، مثل المناطق الميّتة في المحيطات وموضوع الإفراط في صيد الأسماك.

الخوف من الكيماويات يعني أيضًا أنّ هناك «اكتشافًا علميًّا جديدًا» كلّ ستّة أشهر بخصوص مادة كيميائية اصطناعية موجودة في الطعام المعتاد بكميّات قليلة جدًّا، بحيث أنك إذا أكلت حمولة باخرة أو اثنتَين منها كلّ يوم لثلاثة سنوات، يمكنها أن تقتلك. عند هذه النقطة، تظهر علامات القلق على وجوه الناس ذوي التعليم العالي ويشرعون في مناقشة الأمر. يبدو أنّ عدم وجود وفيّات ليس ذا أهميّة في هذه النقاشات. ويبدو أنّ مستوى الخوف مُقادٌ بالكامل بواسطة الطبيعة «الكيميائية» للمادة غير المرئية.

والآن دعنا ننتقل إلى أحدث أهمّ خوف في الغرب.

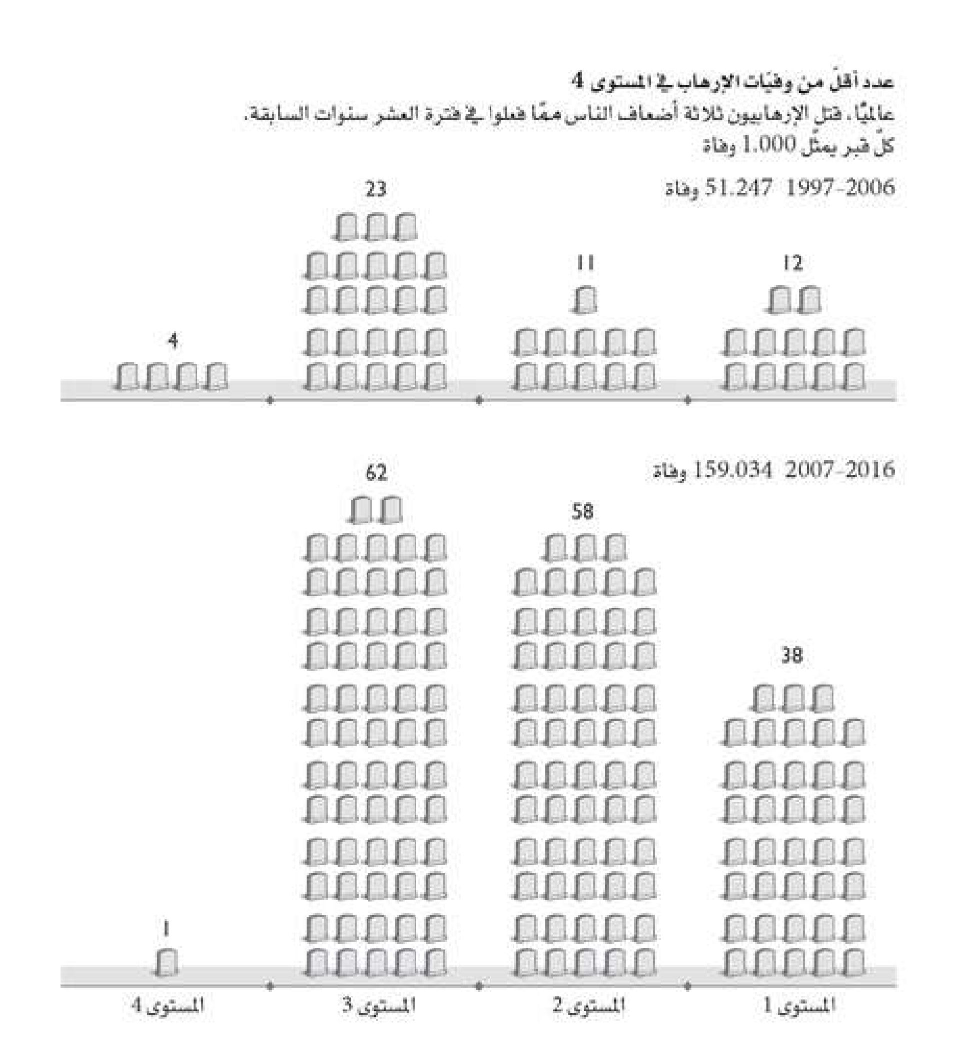
الإرهاب

إذا كان هناك مجموعة واحدة من الناس فهمت بشكلٍ كامل قوّة غريزة الخوف، فهم ليسوا الصحفيين. إنهم الإرهابيّون. الدليل في اسمهم، حيث الخوف هدفهم. وهم ينجحون باستغلال كلّ مخاوفنا الأوّلية، مثل الخوف من الأذى الجسدي، والخوف من الاحتجاز، والخوف من التسمّم أو التلوّث.

الإرهاب هو واحدٌ من الاستثناءات في الاتجاهات العالمية المناقشة في الفصل الثاني حول السلبيّة. إنه يسوء. إذن هل أنت مُحقٌّ في شدّة خوفك منه؟ حسنًا، قبل كلّ شيء، شكّلت الوفيّات الناجمة عن الإرهاب ما نسبته 0.05 بالمائة من كلّ الوفيّات في العالم في العام 2016. ولهذا، قد لا تكون محقًّا. ثانيًا، يتوقّف ذلك على المكان الذي تعيش فيه.

في جامعة ماريلاند في الولايات المتحدة، جمعت مجموعة من الباحثين بيانات حول كلّ حوادث الإرهاب المسجّلة في وسائل الإعلام الموثوقة منذ العام 1970. والنتيجة هي قاعدة بيانات الإرهاب العالمي المجانية الوصول، المشتملة على تفاصيل 170,000 حادث إرهابي. تُظهِر قاعدة البيانات هذه أنه في فترة العشر سنوات من العام 2007 إلى العام 2016، قتل الإرهاب 159,000 شخص على مستوى العالم: ثلاثة أضعاف العدد الذي قُتِل في فترة العشر سنوات التي قبلها. تمامًا كما هو الحال في الإيبولا، عندما يتضاعف عددٌ مرّتَين أو ثلاثة، يجب بالطبع أن نقلق وننظر عن كثب لنرى ما يعنيه.

ومع ذلك، في حين أنّ الإرهاب يزداد على مستوى العالم، إلّا أنه في الواقع يتناقص في المستوى 4. في الفترة من العام 2007 إلى العام 2016، قُتِل ما مجموعه 1,439 شخصًا من قِبَل إرهابيين في البلدان ذات المستوى 4. خلال فترة العشر سنوات التي سبقت ذلك، قُتِل 4,358 شخصًا. وهذا يشمل أكبر هجمة إرهابية في 11/9 في العام 2001 التي قُتِل فيها 2,996 شخصًا. وحتى لو



استثنيناهم، فإنّ عدد القتلى في المستوى 4 بقي ثابتًا بين آخر فترتَين من عشر سنوات. الزيادة الرهيبة في الوفيّات المتعلّقة بالإرهاب هي في المستويات 1، و2، و3. وقعت معظم هذه الزيادة في خمسة بلدان: العراق (التي شكّلت تقريبًا نصف الزيادة)، وأفغانستان، ونيجيريا، وباكستان، وسوريا.

شكلت وفيّات الإرهاب في البلدان الأغنى – يعني، البلدان ذات المستوى 4 – 0.9 بالمائة من كلّ وفيّات الإرهاب في الفترة من العام 2007 إلى 2016، وهي في تناقص خلال هذا القرن. منذ العام 2001، لم يتدبّر أي إرهابي أن يقتل فردًا واحدًا باختطاف طائرة تجارية. والواقع، يصعب التفكير بسببٍ للوفاة يقتل عددًا أقلّ من الناس في البلدان ذات المستوى 4 أكثر من الإرهاب. على أرض الولايات المتحدة، مات 3,172 شخصًا بسبب الإرهاب على مدى العشرين سنة الماضية؛ ما معدّله 159

شخصًا في السنة. خلال تلك السنوات نفسها، ساهم الكحول في موت 1.4 مليون شخص في الولايات المتحدة؛ ما معدّله 69,000 شخص في السنة. ليست هذه مقارنة عادلة تمامًا، لأنه في معظم هذه الحالات، يكون شارب الكحول هو نفسه الضحية. سيكون من الأنصف أن ننظر فقط إلى تلك الوفيّات حيث الضحية ليست هي نفسها الجاني: حوادث السيارات والقتل. وِفقًا للتقديرات المتحفّظة جدًّا، يبلغ هذا الرقم في الولايات المتحدة نحو 7,500 وفاة سنويًّا. في الولايات المتحدة، احتمال أن يُقتَل عزيزٌ لديك من قِبَل شخص مخمور هو أعلى بخمسين مرّة تقريبًا من احتمال قتله بواسطة إرهابي.

ولكنّ الحوادث الإرهابية الدراماتيكية في البلدان ذات المستوى 4 تلقى تغطية إعلامية شاملة لا يلقاها معظم ضحايا الكحول. كما أنّ أجهزة المراقبة الأمنية البادية جدًّا للعيان في المطارات، والتي تجعل الخطر أقلّ كثيرًا من ذي قبل، قد تعطي انطباعًا بالخطر المتزايد.

بعد أسبوع واحد من حادث 11 سبتمبر 2001، وِفقًا لمؤسّسة غالوب، شعر 51 بالمائة من شعب الولايات المتحدة بالقلق خشية فقدان فرد من العائلة كضحية للإرهاب. بعد ذلك بأربع عشرة سنة، بقيت النسبة على حالها: 51 بالمائة. الناس خائفون اليوم بقدر ما كانوا في الأسبوع الذي تلا انهيار البرجَين التوأم.

الخوف مقابل الخطر: الخوف من الأشياء الصحيحة

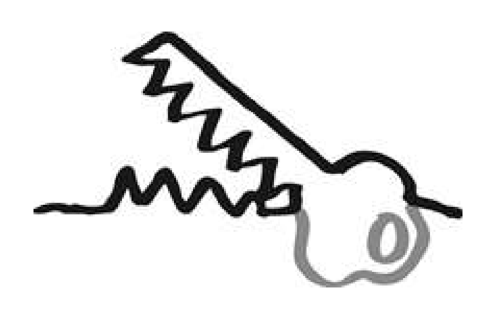
يمكن أن يكون الخوف مفيدًا، ولكن فقط إذا وُجِّه للأشياء الصحيحة. تُعَدّ غريزة الخوف دليلًا رهيبًا لفهم العالم. تجعلنا نولي اهتمامنا إلى الأخطار غير المحتملة التي تثير أقصى خوفنا، ونتجاهل ما هو فعليًّا خطِر للغاية.

تناول هذا الفصل الحوادث المرعبة: الكوارث الطبيعية (0.1 بالمائة من كلّ الوفيّات)، وتحطّم الطائرات (0.001 بالمائة)، وجرائم القتل (0.7 بالمائة)، والتسرّبات النووية (0 بالمائة)، والإرهاب (0.05 بالمائة). لم يقتل أي منها أكثر من 1 بالمائة من الناس الذين ماتوا كلّ سنة، ومع ذلك لا تزال هذه الحوادث تلقى انتباهًا إعلاميًّا هائلًا. يجب أن نعمل بالطبع لتقليل معدّلات الوفيّات هذه. ومع ذلك، يساعدنا هذا في تبيان مدى تشويه غريزة الخوف لتركيزنا. من أجل أن نفهم ما ينبغي علينا حقًّا أن نخاف منه، وكيف نحمي فعلًا أحبّاءنا من الخطر، يجب أن نكبح غريزة

الخوف لدينا ونقيس عدد القتلى الفعلي.

«المخيف» و«الخطِر» شيئان مختلفان. فالشيء المخيف يُسبِّب خطرًا مُتصوَّرًا. والشيء الخطِر يسبِّب خطرًا حقيقيًّا. إنّ إيلاء الكثير جدًّا من الانتباه لما هو مخيف وليس لما هو خطِر – يعني، إيلاء الكثير من الانتباه للخوف – يؤدّي إلى تفريغ مأساوي للطاقة في الاتجاهات الخاطئة. إنه يجعل طبيبًا مبتدئًا مرعوبًا يفكّر بالحرب النووية في الوقت الذي ينبغي عليه فيه أن يعالج انخفاض حرارة الجسم، ويجعل كلّ السكّان يركّزون على الزلازل وتحطّم الطائرات والمواد غير المرئية في الوقت الذي يموت فيه الملايين من الإسهال وتصبح قيعان المحيطات صحارى تحت الماء. أحبّ أن يكون خوفي مركَّزًا على أخطار اليوم الكبيرة، وليس على أخطار الماضي.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن نميّز متى تستولي الأشياء المخيفة على انتباهنا، ونتذكّر أنّ هذه الأشياء ليست بالضرورة الأخطر. إنّ خوفنا الطبيعي من العنف، والأسر، والتلوّث يجعلنا نبالغ منهجيًّا في تقدير هذه الأخطار.

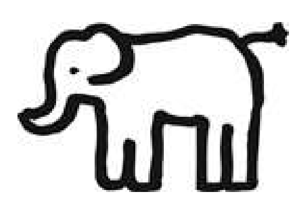
من أجل التحكّم بغريزة الخوف، **احسب المخاطر.**

* **العالم المخيف: الخوف مقابل الواقع.** يبدو العالم مخيفًا أكثر ممّا هو واقعًا لأنّ ما تسمعه بشأنه قد تمّ انتقاؤه – بواسطة مصفاة الانتباه لديك أو من قِبَل وسائل الإعلام – بالضبط لأنه مخيف.

* **الخطورة** = **الخطر** × **التعرُّض**. الخطورة التي يسبّبها شيء لك لا تعتمد على مدى إثارته للخوف في نفسك، وإنما على توليفة من شيئَين. كم هو خطِر؟ وكم أنت متعرّض له؟

* **اهدأ قبل أن تتابع**. عندما تكون خائفًا، ترى العالم بشكلٍ مختلف. اتّخذ أقلّ عدد ممكن من القرارات إلى حين همود الذعر.

الفصل الخامس
غريزة الحجم



وضع أنصاب الحرب التذكارية وهجمات الدببة
في نطاقها الملائم باستخدام أداتَين سحريَّتَين تملكهما بالفعل

الوفيّات التي لا أراها

عندما كنت طبيبًا شابًّا في موزمبيق في أوائل الثمانينيّات، اضطررت إلى القيام ببعض الأعمال الحسابية الصعبة جدًّا. كان الحساب صعبًا بسبب ما كنت أعدّه. كنت أعدّ الأطفال الموتى. تحديدًا، كنت أقارن عدد الوفيّات بين الأطفال الذين أُدخِلوا إلى مستشفانا في ناكالا مع عدد الأطفال الذين يموتون في بيوتهم ضمن المنطقة التي يُفترَض أن نخدم فيها.

في ذلك الوقت، كانت موزمبيق أفقر بلد في العالم. في عامي الأوّل في منطقة ناكالا، كنت الطبيب الوحيد لقطاع من السكان يصل تعداده إلى 300,000 شخص. في عامي الثاني، انضمّ إليّ طبيبٌ ثان. غطّت خدماتنا عددًا من السكّان كان سيُخدَم في السويد من قِبَل 100 طبيب، وفي كلّ صباح في طريقي إلى عملي، كنت أقول لنفسي، «اليوم يجب أن أقوم بعمل 50 طبيبًا».

أدخلنا سنويًّا نحو 1,000 طفل مريض جدًّا إلى المستشفى الوحيد الصغير في المنطقة، ما عنى ثلاثة مرضى تقريبًا كلّ يوم. لن أنسى أبدًا محاولة إنقاذي لحياة

أولئك الأطفال. عانى جميعهم من أمراض وخيمة مثل الإسهال، والالتهاب الرئوي، والمالاريا، المصحوبة غالبًا بمضاعفات فقر الدم وسوء التغذية. وبالرغم من جهودنا القصوى، كان واحدٌ من كلّ 20 طفلًا يفارق الحياة. عنى هذا طفلًا كلّ أسبوع، كان بوسعنا علاج معظمهم لو كان لدينا موارد وموظّفون أكثر وأفضل.

كانت العناية التي استطعنا توفيرها بدائية: محاليل ماء وملح وحُقَن عضلية. لم نعطِ قطرات وريدية: لم تكن لدى الممرّضات المهارات اللازمة لإعطائها وكان وضع ومراقبة التسريب الوريدي سيستهلك قدرًا كبيرًا من وقت الطبيب. نادرًا ما كان لدينا خزّانات أكسجين وكانت سعتنا محدودة لنقل الدم. كان هذا طبّ الفقر المدقع.

في إحدى نهايات الأسبوع، جاء صديق ليقيم معنا؛ طبيب أطفال سويدي كان يعمل في المستشفى الأفضل قليلًا في مدينة أكبر تبعد عنّا 200 ميل. في عصر أحد أيام السبت، اضطررت للذهاب إلى المستشفى بناءً على استدعاء طوارئ وجاء صديقي معي. عندما وصلنا، لاقتنا أمٌّ الخوف بادٍ في عينيها. كانت تحمل في ذراعيها رضيعها المصاب بإسهال شديد وكانت الأمّ ضعيفة جدًّا لا تستطيع أن ترضعه. أدخلت الطفل، وأقحمت أنبوب إطعام، وأمرت بأن يُعطى أملاح الإمهاء الفموي. جرّني صديقي طبيب الأطفال من ذراعي إلى الرواق. كان منزعجًا جدًّا واعترض بغضب على العلاج دون المستوى القياسي الذي وصفته، متّهمًا إياي بالتقتير كي أعود إلى البيت من أجل تناول العشاء. أرادني أن أعطي الرضيع قطرة في الوريد.

غضبت لعدم تفهّمه. شرحت قائلًا: «هذا هو العلاج القياسي هنا. سيتطلّب الأمر مني نصف ساعة لجعل قطرة تجري في وريد هذا الطفل ثمّ ستكون هناك مخاطرة كبيرة بأنّ الممرّضة ستفسد الأمر. ومعك حقّ، عليّ أن أرجع إلى البيت لتناول العشاء أحيانًا، وإلّا لن أصمد أنا وعائلتي أكثر من شهر إضافي هنا».

لم يستطع صديقي أن يتقبّل الأمر. وقرّر أن يبقى في المستشفى مكافحًا لساعات ليدخل إبرة في وريد صغير.

عندما عاد زميلي أخيرًا إلى البيت، استمرّ النقاش. احتجّ قائلًا: «يجب عليك أن تقوم بكلّ ما تقدر عليه لكلّ مريض يحضر إلى المستشفى».

قلت: «لا. ليس من الأخلاق في شيء أن أنفق وقتي ومواردي كلّها محاولًا أن

أنقذ أولئك الذين يأتون هنا. يمكنني أن أنقذ أطفالًا أكثر إذا حسّنت الخدمات خارج المستشفى. أنا مسؤول عن كلّ وفيّات الأطفال في هذه المنطقة: الوفيّات التي لا أراها بقدر الوفيّات التي تحدث أمام عينَيّ».

اعترض صديقي، كما يفعل معظم الأطباء وربما معظم الناس. «واجبك أن تقوم بكلّ شيء للمرضى تحت رعايتك. إدّعاؤك بأنك تستطيع أن تنقذ أطفالًا أكثر في مكان آخر مجرّد تخمين نظري قاس». كنت تعبًا جدًّا. توقّفت عن الجدال وذهبت إلى السرير، ولكني بدأت العدّ في اليوم التالي.

تعاونّا أنا وزوجتي، آغنتا، التي تدبّرت جناح الولادة، وقمت أنا بالحساب. كنّا نعرف أنّ ما مجموعه 946 طفلًا قد أُدخلوا إلى المستشفى في تلك السنة. كان كلّهم تقريبًا تحت سنّ الخامسة، و52 طفلًا منهم (5 بالمائة) فارقوا الحياة. احتجنا إلى مقارنة ذلك العدد بعدد وفيّات الأطفال في المنطقة بأكملها.

كان معدّل وفيّات الأطفال في موزمبيق في ذلك الوقت 26 بالمائة. لم يكن الوضع مختلفًا في ناكالا، ولهذا كان بإمكاننا أن نستخدم ذلك الرقم. يُحسَب معدّل وفيّات الأطفال بقسمة عدد وفيّات الأطفال في السنة على عدد الولادات في تلك السنة.

وهكذا إذا عرفنا عدد الولادات في المنطقة في تلك السنة، يمكننا أن نقدّر عدد وفيّات الأطفال، باستخدام معدّل وفيّات الأطفال البالغ 26 بالمائة. أخذنا عدد الولادات في المدينة من آخر إحصاء للسكّان في ذلك الحين: نحو 3,000 كلّ سنة. بلغ عدد سكّان المنطقة خمسة أضعاف عدد سكّان المدينة، ولهذا قدّرنا أنّ عدد الولادات كان على الأرجح مُضاعفًا خمس مرّات: 15,000. وهكذا، أخبرتني نسبة الـ26 بالمائة من ذلك العدد أنني كنت مسؤولًا عن محاولة منع 3,900 حالة وفاة طفل كلّ سنة، كان 52 منها يحدث في المستشفى. كنت أرى فقط 1.3 بالمائة من عملي.

الآن أصبح لديّ رقمٌ يدعم إحساسي الغريزي. إنّ تنظيم، ودعم، ومراقبة الرعاية الصحية المجتمعية الأساسية التي يمكنها معالجة الإسهال، والالتهاب الرئوي، والمالاريا قبل أن تصبح مهدِّدة للحياة سينقذ أرواحًا أكثر من وضع قطرات وريدية في المستشفى لأطفال يحتضرون. أنا أعتقد أنه من غير الأخلاقي حقًّا إنفاق

المزيد من الموارد في المستشفى قبل أن يحظى غالبية السكّان – و98.7 بالمائة من الأطفال المحتضرين الذين لا يصلون إلى المستشفى أبدًا – بشكلٍ ما من الرعاية الصحية الأساسية.

وهكذا شرعنا في تدريب عاملين صحيّين قرويين، لتلقيح أكبر عدد ممكن من الأطفال، ولمعالجة أهمّ أمراض الأطفال القاتلة في بداياتها في مرافق صحية صغيرة يمكن الوصول إليها حتى من قِبَل الأمّهات المضطرّات للمشي.

هذا هو الحساب القاسي للفقر المدقع. بدا من غير الإنساني أن أنظر بعيدًا عن طفل يحتضر أمام عينَيّ وباتجاه مئات الأطفال المجهولين المحتضرين البعيدين عن ناظرَي.

أتذكّر كلمات انغرد روث، التي عملت كممرّضة تبشيرية في كونغو وتانزانيا قبل أن تصبح مُرشدتي. كانت تقول لي دومًا: «في أشدّ صور الفقر إدقاعًا، لا ينبغي أبدًا أن تقوم بأي شيء بإتقان. إذا فعلت أنت تسرق الموارد من حيث يمكن استخدامها بشكلٍ أفضل».

إنّ إيلاء الكثير من الانتباه للضحية الفردية المنظورة بدلًا من الأعداد الكبيرة غير المنظورة يمكن أن يقود إلى إنفاق كلّ الموارد على جزء يسير من المشكلة، وبالتالي إنقاذ عدد أقلّ جدًّا من الأرواح. ينطبق هذا المبدأ على أي مكان نقوم فيه بترتيب أولويّات الموارد الشحيحة. من الصعب على الناس أن يتكلّموا عن الموارد عندما يتعلّق الأمر بإنقاذ الحياة، أو إطالتها، أو تحسينها. يُؤخَذ هذا غالبًا على أنه قساوة قلب. ولكن ما دامت الموارد محدودة – وهي دومًا كذلك – فإنّ من غاية الرحمة أن تستخدم دماغك وتجد طريقة للقيام بأقصى ما تستطيعه من الخير بما هو متوفّر لديك.

هذا الفصل حافلٌ بالبيانات حول الأطفال الموتى لأنّ إنقاذ حياة الأطفال هو أكثر ما أهتمّ بشأنه في العالم كلّه. أعرف أنه من القسوة وانعدام الشفقة أن أعدّ الأطفال الموتى وأن أتحدّث عن فعّالية التكلفة في الجملة نفسها كطفل محتضر. ولكن إذا فكّرت بالأمر، فإنّ إيجاد الطريقة الأكثر فاعليّة من حيث التكلفة لإنقاذ حياة أكبر عدد ممكن من الأطفال هو التمرين الأقلّ قسوة من بين جميع الخيارات.

تمامًا كما ألححت عليك لتنظر ما وراء الإحصاءات إلى القصص الفردية، ألحّ

عليك أيضًا أن تنظر ما وراء القصص الفردية إلى الإحصاءات. لا يمكن فهم العالم بدون أرقام. ولا يمكن فهمه بالأرقام وحدها.

غريزة الحجم

من شأنك أن تهوِّل الأمور. لا أقصد أن أبدو فظًّا. إنّ تهويل الأمور، أو عدم تقدير حجمها، هو شيء نقوم به نحن البشر بشكلٍ طبيعي. من الغريزي أن ننظر إلى رقمٍ وحيد ونخطئ في تقدير أهميّته. من الغريزي أيضًا – كما في مستشفى ناكالا – أن نخطئ في تقدير أهمية حالة فردية أو ضحية قابلة للتحديد. هاتان النزعتان هما الوجهان الرئيسيّان لغريزة الحجم.

وسائل الإعلام هي صديقة هذه الغريزة. من الواجب الاحترافي للصحفي إلى حدٍّ كبير أن يجعل أي حدث، أو حقيقة، أو رقم يبدو هامًّا أكثر ممّا هو فعلًا. ويعرف الصحفيّون إنه لأمرٌ غير إنساني أن نشيح ببصرنا عن فردٍ يتألّم.

غريزة الحجم بوجهَيها، مع غريزة السلبية، تجعلانا نقلّل بشكلٍ منهجي من قيمة التقدّم الحاصل في العالم. في أسئلة الاختبار المتعلّقة بالنسب العالمية، يقول الناس باستمرار أنّ نحو 20 بالمائة من الناس يتمّ الإيفاء باحتياجاتهم الأساسية. الإجابة الصحيحة في معظم الحالات قريبة إلى الـ80 بالمائة أو حتى الـ90 بالمائة. نسبة الأطفال الملقّحين: 88 بالمائة. نسبة الناس الذين لديهم وصول إلى الكهرباء: 8 بالمائة. نسبة الفتيات في المدرسة الابتدائية: 90 بالمائة. إنّ استخدام الأرقام التي تبدو هائلة، مع الصور المتواصلة للمعاناة الفردية المعروضة من قِبَل المؤسّسات الخيريّة ووسائل الإعلام، شوّهت نظرة الناس للعالم وجعلتهم يقلّلون بشكلٍ منهجي من قيمة كلّ هذه النسب وكلّ هذا التقدّم.

في الوقت نفسه، نحن نبالغ منهجيًّا في تقدير نِسَب أخرى. على سبيل المثال، في ما يتعلّق بنسبة المهاجرين في بلداننا، فإنّ تفسيراتنا، على الأقلّ في الولايات المتحدة وأوروبا، تكون دراماتيكية أكثر من الواقع.

توجّه غريزة الحجم انتباهنا المحدود ومواردنا باتجاه تلك الحالات الفردية أو الضحايا القابلين للتحديد، تلك الأشياء الملموسة مباشرةً أمام أعيننا. لدينا اليوم مجموعات بيانات متينة للقيام بأنواع المقارنات التي أجريتها في ناكالا على مقياس عالمي، وهي تُظهِر الشيء نفسه: ليس الأطباء ولا أسرّة المستشفى هم الذين

ينقذون حياة الأطفال في بلدان في المستويَين 1، و2. من السهل عدّ الأطباء والأسرّة، ويحبّ السياسيّون تدشين المباني. ولكن كلّ الزيادة في بقاء الأطفال هي نتيجة تدابير وقائية خارج المستشفيات من قِبَل ممرّضات وقابلات محلّيات، وآباء على قدر جيد من التعليم. خصوصًا الأمهات: تُظهر البيانات أنّ نصف الزيادة في بقاء الأطفال في العالم هي نتيجة قدرة الأمهات على القراءة والكتابة. يبقى المزيد من الأطفال اليوم على قيد الحياة لأنهم لا يمرضون في الدرجة الأولى. فالقابلات المدرَّبات يساعدن أمهاتهم خلال الحمل والولادة. والممرّضات يلقّحنهم ضدّ المرض. ولديهم ما يكفي من الطعام، وآباؤهم يحرصون على إبقائهم دافئين ونظيفين، والناس حولهم يغسلون أيديهم، ويمكن لأمهاتهم أن يقرأن التعليمات على قنينة الحبوب. ولهذا، إذا كنت تستثمر مالًا لتحسين الصحة في المستويَين 1، و2، يجب أن تضعه في المدارس الابتدائية، وتعليم الممرّضات، والتلقيح. يمكن للمستشفيات الكبيرة المبهِرة للنظر أن تنتظر.

كيفية السيطرة على غريزة الحجم

كي تتجنّب تهويل الأمور، أو وضعها في غير نطاقها الملائم، تحتاج فقط إلى أداتَين سحريّتَين: المقارنة والقسمة. ماذا قلت؟ أنت تعرفهما بالفعل؟ عظيم، كلّ ما تحتاجه إذن هو أن تبدأ في استخدامهما. اجعلها عادة! سأريك الطريقة.

قارِن الأعداد

الشيء الأهمّ الذي يمكنك أن تقوم به لتتجنّب الخطأ في تقدير أهميّة أمرٍ من الأمور هو أن تتفادى الأرقام الوحيدة. لا تترك أبدًا رقمًا لوحده. لا تصدّق أبدًا أنّ عددًا واحدًا في حدّ ذاته يمكن أن يكون ذا معنى. إذا قُدِّم إليك رقمٌ واحد، أطلب دومًا رقمًا آخر على الأقلّ. شيء لتقارنه به.

كن حذرًا على وجه التحديد بشأن الأرقام الكبيرة. إنه لشيءٌ غريب، ولكنّ الأرقام فوق حجمٍ معيّن، عندما لا تُقارَن بأي شيء آخر، تبدو دومًا كبيرة. وكيف يمكن لشيء كبير أن لا يكون هامًّا؟

4.2 مليون رضيع ميّت

في السنة الماضية، مات 4.2 مليون رضيع.

هذا هو الرقم الأحدث المسجَّل من قِبَل اليونيسف للوفيّات قبل عمر السنة، على مستوى العالم. نحن غالبًا ما نرى أرقامًا وحيدة ومشحونة عاطفيًّا مثل هذا الرقم في الأخبار ومواد مجموعات الناشطين أو المنظّمات. تولّد هذه الأرقام ردّ فعل.

من يستطيع حتى أن يتخيّل 4.2 مليون رضيع ميّت؟ الأمر رهيب جدًّا، وحتى أسوأ عندما نعرف أنّ معظمهم مات من أمراض يمكن الوقاية منها بسهولة. وكيف يمكن لأي أحد أن يجادل بأنّ 4.2 مليون ليس رقمًا ضخمًا؟ قد تظنّ أن لا أحد سيحاول حتى أن يجادل في ذلك، ولكنك ستكون مخطئًا. لهذا السبب بالضبط ذكرت هذا الرقم. لأنه ليس ضخمًا: إنه صغير بنحوٍ جميل.

إذا بدأنا حتى بالتفكير بشأن مدى مأساوية تلك الوفيّات بالنسبة إلى الأبوَين اللذَين انتظرا مولودهما ليبتسم، ويمشي، ويلعب، وبدلًا من ذلك كان عليهما أن يدفناه، فإنّ هذا الرقم يمكن أن يجعلنا نبكي لفترة طويلة. ولكن من سيستفيد من هذا البكاء؟ بدلًا من ذلك دعنا نفكّر بوضوح بشأن المعاناة البشرية.

الرقم 4.2 مليون هو للعام 2016. في العام الذي قبله، كان الرقم 4.4 مليون. والعام الذي قبل ذلك، كان 4.5 مليون. وفي العام 1950، كان 14.4 مليون. هذا يعني نحو 10 ملايين حالة وفاة إضافية بين الأطفال الرضّع في السنة، مقارنةً باليوم. على نحوٍ مفاجئ، يبدأ هذا الرقم الرهيب يبدو أصغر. الواقع أنّ الرقم لم يكن أبدًا أصغر.

بالطبع، أنا أوّل شخص يتمنّى لو أنّ الرقم كان حتى أصغر من ذلك ويتناقص بصورة أسرع. ولكن من أجل أن نعرف كيف نتصرّف، وكيف نرتّب أولويّات الموارد، لا يمكن لشيء أن يكون أكثر أهميّةً من إجراء العمليّات الحسابية الرزينة وإدراك ما ينجح وما لا ينجح. وهذا واضح: يتمّ إنقاذ المزيد والمزيد من الأرواح. لم نكن لندرك هذا أبدًا بدون مقارنة الأرقام.

حرب كبيرة

حرب فيتنام كانت حرب سوريا في جيلي.

قبل يومَين من عيد الميلاد في العام 1972، قتلت سبعُ قنابل 27 مريضًا وأعضاءً من هيئة الموظّفين في مستشفى باخ ماي في هانوي في فيتنام. كنت أدرس الطبّ في أوبسالا في السويد. كان لدينا الكثير من المعدّات الطبية

والبطانيّات الصفراء. نسّقت مع زوجتي، آغنتا، مجموعةً مشكّلة، قمنا بتوضيبها في صناديق وأرسلناها إلى باخ ماي.

بعد ذلك بخمس عشرة سنة، كنت في فيتنام لتقييم مشروع معونة سويدي. في أحد أوقات الغداء، كنت آكل الأرزّ بجانب واحد من زملائي المحلّيين، وهو طبيب اسمه نييم، وسألته عن تجربته السابقة. أخبرني أنه كان في مستشفى باخ ماي عندما سقطت القنابل. وفي ما بعد، قام بتنسيق تفريغ صناديق المؤن التي وصلت من كلّ أنحاء العالم. سألته إن كان يتذكّر بعض البطانيّات الصفراء وشعرت بقشعريرة في جسدي عندما وصف لي نمط القماش. بدا وكأننا كنّا أصدقاء منذ الأبد.

في نهاية الأسبوع، طلبت من نييم أن يريني النصب التذكاري لحرب فيتنام. قال: «أنت تعني حرب المقاومة ضدّ أمريكا». بالطبع، كان ينبغي عليّ أن أدرك أنه لن يدعوها حرب فيتنام. أخذني نييم بالسيارة إلى واحد من متنزّهات المدينة المركزية وأراني حجرًا صغيرًا مع صفيحة معدنية من النحاس الأصفر، بعلوّ ثلاث أقدام. ظننت أنها مزحة. كانت الاحتجاجات ضدّ حرب فيتنام قد وحّدت جيلًا من الناشطين في الغرب. لقد دفعتني إلى إرسال بطانيّات ومعدّات طبية. مات أكثر من 1.5 مليون فيتنامي و58,000 أمريكي. هل كانت هذه هي الطريقة التي أحيت بها المدينة ذكرى كارثة كتلك؟ شعرت بالخيبة. أخذني نييم لأرى نصبًا تذكاريًّا أكبر: حجر رخامي، بعلوّ 12 قدمًا، للاحتفال بذكرى الاستقلال من الحكم الاستعماري الفرنسي. لازمني الشعور بالخيبة.

ثمّ سألني نييم إن كنت مستعدًّا لأرى النصب التذكاري الملائم للحرب. قاد السيارة إلى مكان أبعد قليلًا، وأشار من النافذة. من فوق رؤوس الأشجار، استطعت أن أرى باغودا كبيرة، مغطّاة بالذهب. بدت بعلوّ 300 قدم تقريبًا. قال: «هنا حيث نحتفل بذكرى أبطالنا في الحرب. أليست جميلة؟» كان هذا النصب التذكاري لحروب فيتنام مع الصين.

دامت الحروب مع الصين، على نحوٍ متقطّع، لمدّة 2,000 سنة. دام الاحتلال الفرنسي لمدّة 200 سنة. استغرقت حرب المقاومة ضدّ أمريكا 20 سنة. وضعت حجوم الأنصاب التذكارية الأمور في نطاقها الملائم. لم يكن إلّا من خلال المقارنة بينها أن استطعت أن أفهم عدم الأهمية النسبية لحرب فيتنام بالنسبة إلى الناس

الذين يعيشون الآن في فيتنام.

الدببة والفؤوس

كانت ماري لارسون بعمر 38 سنة عندما قُتِلت بضربات متعدّدة على الرأس بفأس. كان ليل 17 أكتوبر، 2004. اقتحم الشريك السابق لماري منزلها في بلدة بيتيا الصغيرة في شمال السويد وانتظر قدومها إلى البيت. جريمة القتل المأساوية والوحشية هذه لأمّ لثلاثة أولاد بالكاد ذُكِرت في وسائل الإعلام الوطنية وحتى الصحيفة المحلّية غطّتها بشكلٍ خجول.

في ذلك اليوم نفسه، قُتِل رجلٌ بعمر 40 سنة، أبٌ لثلاثة أولاد، يعيش أيضًا في أقصى شمال السويد. قتله دبّ بينما كان خارج منزله يصطاد. كان جوهان فسترلوند أوّل شخص يُقتَل من قِبَل دبّ في السويد منذ العام 1902. هذا الحادث الوحشي، والمأساوي، والنادر بشكلٍ حاسم، تلقّى تغطيةً هائلة في جميع أنحاء السويد.

في السويد، يحدث مرّة في كلّ قرن أن يهجم دبّ على إنسان ويقتله. في غضون ذلك، تُقتَل إمرأة من قِبَل شريك حياتها كلّ 30 يومًا. هذا فارق في المقدار يبلغ 1,300 ضِعف. ومع ذلك، فإنّ جريمة القتل المنزلية هذه بالكاد سُجِّلت، بينما كان مقتل الصياد خبرًا هامًّا.

بالرغم ممّا قد تجعلنا التغطية الإعلامية نظنّ، فإنّ كِلا حادثَي الوفاة كان مأساويًّا ومروّعًا. بالرغم ممّا قد تجعلنا التغطية الإعلامية نظنّ، فإنّ الناس الذين يهتمّون بإنقاذ الأرواح يجب أن يهتمّوا بالعنف المنزلي أكثر من الدببة.

يبدو الأمر واضحًا عندما تقارن الأرقام.

السلّ وإنفلونزا الخنازير

ليست الدببة والفؤوس فقط هي الأمور التي لا تضعها وسائل الإعلام الإخبارية في نطاقها الصحيح.

في العام 1918، قتلت الإنفلونزا الأسبانية 2.7 بالمائة من سكّان العالم. إنّ خطر تفشّي إنفلونزا ليس لدينا تلقيح ضدّها يبقى تهديدًا ثابتًا، يجب أن نأخذه جميعًا بجدّية قصوى. في الأشهر الأولى من العام 2009، مات آلاف الناس من إنفلونزا

الخنازير. استحوذت أخبارها على وسائل الإعلام على مدى أسبوعَين. ومع ذلك، خلافًا للإيبولا في العام 2014، لم يتضاعف عدد الحالات. حتى أنه لم يزدد في خطّ مستقيم. استنتجت أنا وآخرون أنّ هذه الإنفلونزا لم تكن عدوانية كما أشار إنذارها الأوّل. ولكنّ الصحفيين أبقوا على الخوف مشتعلًا لعدّة أسابيع.

أخيرًا، تعبت من الهستيريا وقمت بحساب معدّل التقارير الإخبارية مقابل الوفيّات. في فترة أسبوعَين، مات 31 شخصًا بإنفلونزا الخنازير، بينما أظهر بحث غوغل وجود 253,442 مقالًا إخباريًّا بهذا الشأن، أي 8,176 مقالًا لكلّ وفاة. في فترة الأسبوعَين نفسها، تبيّن من حساباتي أنّ نحو 63,066 شخصًا ماتوا بالسلّ. كان كلّ هؤلاء الناس تقريبًا في المستويَين 1 و2، حيث يبقى السلّ قاتلًا رئيسيًّا بالرغم من إمكانية علاجه الآن. ولكنّ السلّ معدٍ ويمكن للسلالات أن تصبح مقاوِمة وتقتل العديد من الناس في المستوى 4. كان معدّل تغطية أخبار السلّ هو 0.1 مقال لكلّ وفاة. وهذا يعني أنّ التغطية الإعلامية لكلّ وفاة بإنفلونزا الخنازير كانت أكثر بـ82,000 مرّة من تلك لكلّ وفاة بالسلّ مأساوية بنفس القدر.

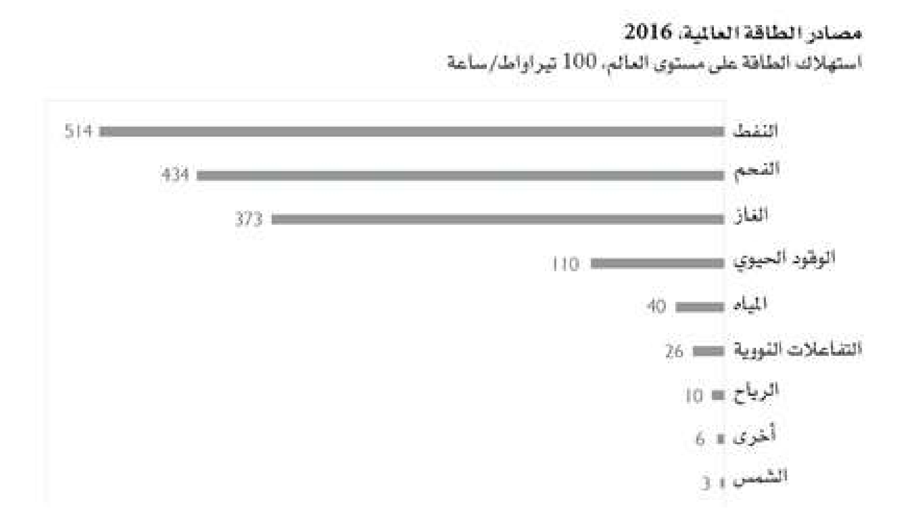
قاعدة 80/20

من السهل جدًّا تهويل الأمور، ولكن لحسن الحظّ أنّ هناك أيضًا بعض الحلول السهلة. متى ما احتجت إلى مقارنة الكثير من الأرقام واكتشاف أيّها أهمّ، أستخدم أبسط أداة تفكير على الإطلاق. أبحث عن أكبر الأرقام.

هذا هو كلّ ما يتعلّق بقاعدة 80/20. من شأننا أن نفترض أنّ كلّ البنود المدرجة في قائمة متساوية في الأهميّة، ولكن عادةً ما يكون بضعةٌ منها فقط أكثر أهميّة من كلّ البنود الأخرى مجتمعة. سواء أكانت أسبابَ وفاة أو بنودًا في ميزانية، أُركِّز أوّلًا ببساطة على فهم تلك البنود التي تشكّل 80 بالمائة من المجموع الإجمالي. قبل أن أُنفق وقتًا على البنود الأصغر، أسأل نفسي: أين تقع الـ80 بالمائة؟ لماذا هي كبيرة جدًّا؟ ما هي الآثار المترتّبة؟

على سبيل المثال، إليك قائمة مصادر الطاقة في العالم: الوقود الحيوي، الفحم، الغاز، باطن الأرض، المياه، التفاعلات النووية، النفط، الشمس، الرياح. مُقدَّمةً بهذا الشكل، تبدو جميعها على نفس المستوى من الأهميّة. إذا رتّبناها وِفقًا لعدد وحدات الطاقة التي تولّدها للبشرية، فإنّ ثلاثة منها تفوق كلّ البقية، كما يُظهِر

هذا الرسم البياني.



كي أتمكّن من رؤية الصورة الكبيرة، أستخدم قاعدة 80/20، التي تخبرنا أنّ النفط + الفحم + الغاز تزوّدنا بأكثر من 80 بالمائة من الطاقة المتوفّرة لدينا:87 بالمائة في الواقع.

اكتشفت لأوّل مرّة مدى فائدة قاعدة 80/20 عندما بدأت في مراجعة مشاريع المعونة للحكومة السويدية. في معظم الميزانيّات، يشكّل نحو 20 بالمائة من البنود أكثر من 80 بالمائة من المجموع الإجمالي. يمكنك أن توفّر الكثير من المال إذا تأكّدت أنك تفهم هذه البنود أوّلًا.

إنّ القيام بهذا هو ما جعلني أكتشف أنّ نصف ميزانية المعونة لمركز صحّي صغير في فيتنام الريفية كانت على وشك أن تُنفَق على 2,000 سكين جراحي من النوع الخطأ. وجعلني أكتشف أيضًا أنّ 100 ضِعف الكمية المقرّرة – 4 ملايين ليتر – من حليب الأطفال الرضّع كانت على وشك أن تُرسَل إلى مخيّم للّاجئين في الجزائر. وجعلني أُوقِف إرسال 20,000 بدلة خصويّة إلى عيادة صغيرة للشباب في نيكاراغوا. في كلّ حالة، بحثت ببساطة عن أكبر البنود الفردية المشكِّلة لـ80 بالمائة من الميزانية، ثم نقّبت فيها بحثًا عن أي شيء غريب. في كلّ حالة، كانت المشكلة نتيجة لالتباسٍ بسيط أو خطأ صغير جدًّا مثل فاصلة عشرية ناقصة.

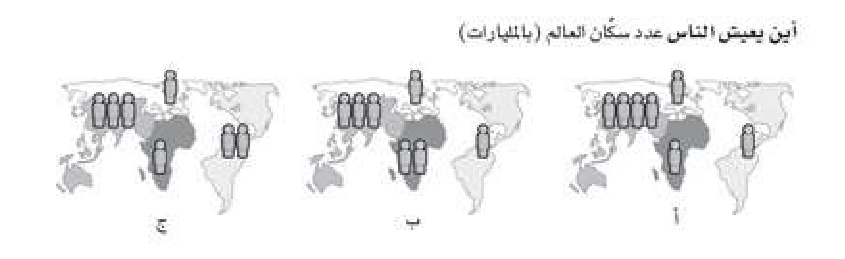
قاعدة 80/20 سهلة بقدر ما تبدو. عليك فقط أن تتذكّر أن تستعملها. إليك مثالٌ آخر.

رمز التعريف الشخصي للعالم

يمكننا أن نفهم العالم بشكلٍ أفضل، ونتّخذ قرارات أفضل بشأنه، إذا عرفنا أين تعيش أكبر جمهرة سكّانية الآن وأين ستعيش في المستقبل. أين هو السوق العالمي؟ أين هم مستخدمو الإنترنت؟ من أين سيأتي السيّاح في المستقبل؟ ما هي وجهة معظم سفن الشحن؟ وهكذا.

سؤال الحقيقة الثامن

هناك 7 مليارات نسمة تقريبًا في العالم اليوم. أي خريطة تُظهِر بشكلٍ أدقّ أين يعيشون؟ (كلّ شكل بشري يمثّل مليار شخص)



هذا واحد من أسئلة الحقائق التي يُحرز فيها الناس أفضل نتيجة. أداؤهم جيد تقريبًا بقدر أداء قرود الشمبانزي. إجاباتهم جيدة بقدر جودة الإجابات العشوائية. عند هذه النقطة من الكتاب، يبدو هذا مثل إنجاز كبير. كما ترى، يعتمد الأمر كلّه على الطريقة التي تقارن بها!

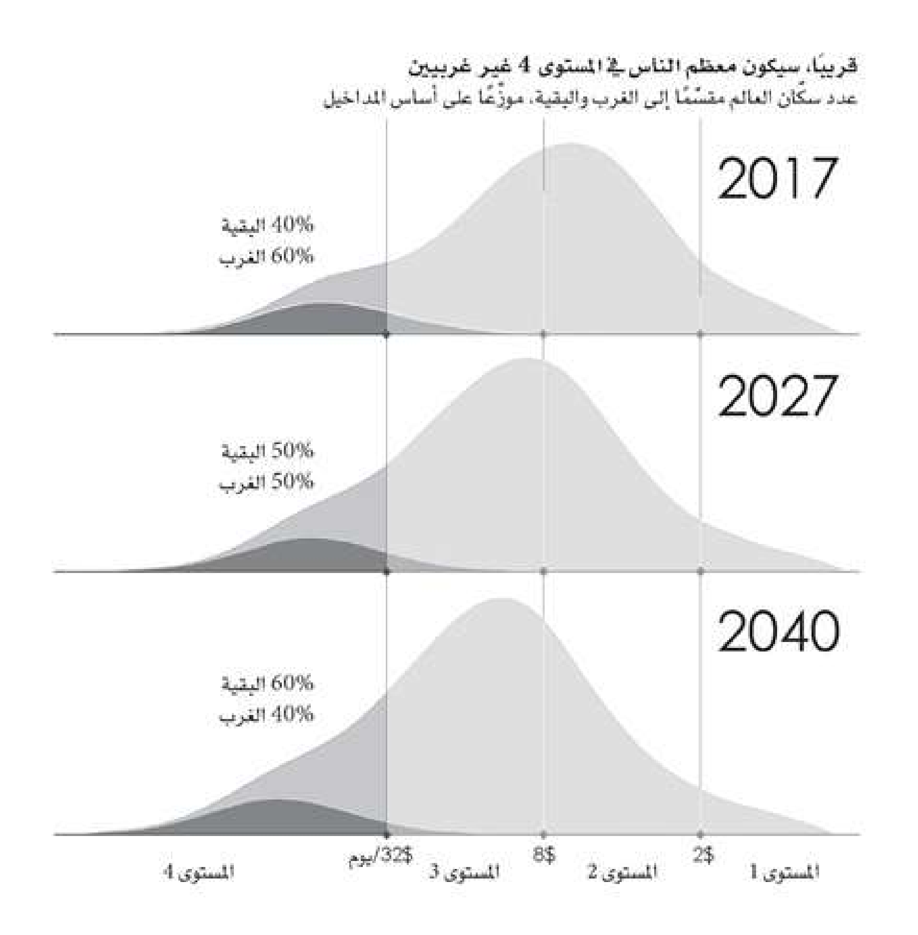
لا يزال سبعون بالمائة من الناس يختارون واحدةً من الخريطتَين الخاطئتَين. سبعون بالمائة من الناس لا يعرفون أنّ غالبية الجنس البشري تعيش في آسيا. إذا كنت تهتمّ حقًّا بشأن مستقبل مُستدام أو بالنهب الحاصل لموارد كوكبنا الطبيعية أو بالسوق العالمي، كيف يمكنك أن تتحمّل فقدان أثر مليار شخص؟

الخريطة الصحيحة هي أ. رمز التعريف الشخصي للعالم هو 1-1-1-4. تلك هي

الطريقة لتذكّر الخريطة. من اليمين إلى اليسار، عدد المليارات، كرمز تعريف شخصي. الأمريكيّتان: 1، أوروبا: 1، أفريقيا: 1، آسيا: 4 (قمت بتدوير الأعداد). مثل كلّ رموز التعريف الشخصي، سيتغيّر هذا الرقم. في نهاية هذا القرن، تتوقّع الأمم المتحدة أنه لن يكون هناك تغيير تقريبًا في الأمريكيّتَين وأوروبا، بينما سيكون هناك 3 مليارات شخص إضافي في أفريقيا ومليار شخص إضافي في آسيا. في العام 2100، سيكون رمز التعريف الشخصي الجديد للعالم هو 1-1-3-5. سيعيش أكثر من 80 بالمائة من سكّان العالم في أفريقيا وآسيا.

إذا كانت تنبّؤات الأمم المتحدة للنموّ السكّاني صحيحة، وإذا استمرّت المداخيل في آسيا وأفريقيا بالنموّ كما تفعل الآن، فسينتقل مركز ثقل السوق العالمي على مدى الـ20 سنة التالية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي. اليوم، يشكّل الناس الذين يعيشون في البلدان الغنية حول المحيط الأطلسي الشمالي، الذين يمثّلون 11 بالمائة من عدد السكّان، ما نسبته 60 بالمائة من سوق المستوى 4 الاستهلاكي. في العام 2027، إذا استمرّت المداخيل بالنموّ على مستوى العالم كما تفعل الآن، فإنّ تلك النسبة ستنخفض إلى 50 بالمائة. في العام 2040، سيعيش 60 بالمائة من المستهلكين في المستوى 4 خارج الغرب. نعم، أظنّ أنّ الهيمنة الغربية على الاقتصاد العالمي ستنتهي قريبًا.

ينبغي للناس في أمريكا الشمالية وأوروبا أن يفهموا أنّ معظم سكّان العالم يعيشون في آسيا. في ما يتعلّق بالعضلات الاقتصادية، سنصبح «نحن» الـ20 بالمائة، وليس الـ80 بالمائة. ولكنّ العديد «منّا» لا يستطيع أن يجد محلًّا لهذه الأرقام في عقله الحنينيّ. نحن لا نخطىء فقط في تقدير كم يجب أن يكون حجم أنصابنا التذكارية في فيتنام، بل نخطئ أيضًا في تقدير حجم أهميّتنا في السوق العالمي المستقبلي. ينسى العديد منّا أن يتصرّف بشكلٍ ملائم مع أولئك الذين سيسيطرون على المعاملات التجارية المستقبلية.



إقسِم الأرقام

غالبًا ما يكون أفضل شيء يمكننا القيام به لجعل رقم كبير أكثر جدوى هو أن نقسمه على رقم إجمالي. في ما يتعلّق بعملي، غالبًا ما يكون هذا الرقم الإجمالي هو التعداد الكلّي للسكّان. عندما نقسم مقدارًا (مثلًا، عدد الأطفال في هونغ كونغ) على مقدار آخر (مثلًا، عدد المدارس في هونغ كونغ)، نحصل على معدّل (عدد الأطفال لكلّ مدرسة في هونغ كونغ). من الأسهل إيجاد المقادير لأنّ إنتاجها أسهل. يحتاج أحدهم فقط إلى عدّ شيء. ولكنّ المعدّلات غالبًا ما تكون أكثر جدوى.

الاتجاه تحت خطّ القسمة

أريد أن أرجع إلى الـ4.2 مليون رضيع ميّت. في أوائل هذا الفصل، قارنّا

الـ4.2 مليون رضيع بالـ14.4 مليون رضيع الذين ماتوا في العام 1950. ماذا لو كان عدد الأطفال المولودين كلّ سنة يتناقص، وبذلك يكون عدد الأطفال الرضّع الذين يموتون أقلّ؟ عندما ترى عددًا ما يقلّ، فهذا يرجع أحيانًا إلى أنّ عددًا آخر في الخلفية يقلّ أيضًا. كي نتحقّق، علينا أن نقسم العدد الإجمالي لوفيّات الأطفال على العدد الإجمالي للولادات.

في العام 1950، وُلِد 97 مليون طفل ومات 14.4 مليون طفل. للحصول على معدّل وفيّات الأطفال، نقسم عدد الوفيّات (14.4 مليون) على عدد الولادات (97 مليون). نتيجة القسمة كنسبة مئوية هي 15 بالمائة. إذن في العام 1950، مات 15 طفلًا من كلّ 100 طفل مولود قبل أن يبلغوا عامهم الأوّل.

والآن دعنا ننظر إلى أحدث الأرقام. في العام 2016، وُلِد 141 مليون طفل ومات 4.2 مليون طفل. بقسمة عدد الوفيّات على عدد الولادات، تكون النتيجة 3 بالمائة فقط. من كلّ 100 طفلٍ مولود عبر العالم، مات ثلاثة أطفال فقط قبل أن يبلغوا سنة من العمر. يا سلام! تغيّر معدّل وفيّات الرضّع من 15 بالمائة إلى 3 بالمائة. عندما نقارن المعدّلات، تبدو أحدث الأرقام فجأة منخفضة بشكلٍ مذهل.

يشعر بعض الناس بالخجل عندما يقومون بهذا النوع من الحسابات المتعلّقة بأرواح الناس. أنا أشعر بالخجل عندما لا أقوم بذلك. الرقم الوحيد يجعلني دومًا مرتابًا في أني سأخطئ في تفسيره. أمّا الرقم الذي أقارنه وأقسمه، فبإمكانه، بدلًا من ذلك، أن يملأني بالأمل.

لكلّ شخص

«تُظهِر التنبّؤات أنّ الصين، والهند، وغيرهما من الاقتصادات الناشئة التي تزيد انبعاثاتها من ثاني أكسيد الكربون بسرعة هي الي ستسبّب تغيّرًا خطيرًا في المناخ. في الواقع، انبعاثات الصين حاليًّا من ثاني أكسيد الكربون أكثر من الولايات المتحدة، وانبعاثات الهند أكثر من ألمانيا».

صدر هذا البيان الصريح من وزير للبيئة من دولة في الاتحاد الأوروبي كان عضوًا في هيئة تناقش تغيُّر المناخ في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس في شهر يناير من العام 2007. أدلى بتصريحه اللائم لدُولٍ بعينها بنبرة صوت محايدة، كما لو كان يصرِّح بحقيقة بديهيّة. لو كان يراقب وجوه أعضاء الهيئة من الصينيين

والهنود، لأدرك أنّ نظرته لم تكن بديهيّة على الإطلاق. بدا الخبير الصيني غاضبًا ولكنه استمرّ بالتحديق إلى الأمام مباشرةً. وعلى نحوٍ متباين، لم يستطع الخبير الهندي أن يجلس ساكنًا. لوّح بذراعه وبالكاد استطاع أن ينتظر إشارة رئيس الجلسة للبدء بالكلام.

انتصب واقفًا. كانت هناك فترة صمت قصيرة بينما نظر في وجه كلّ عضو من أعضاء الهيئة. أكّدت عمامته الأنيقة ذات اللون الأزرق الداكن وبذلته الرمادية الداكنة الغالية الثمن والطريقة التي كان يتصرّف بها في لحظة غضبه مكانته كواحد من أعلى موظّفي الخدمة المدنية في الهند مرتبةً مع سنوات عديدة من التجربة كخبير رائد في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. أومأ باتجاه أعضاء الهيئة من البلدان الغنية ثمّ قال بصوتٍ عالٍ متّهِمًا: «لقد كنتم أنتم، الدول الأغنى، الذين وضعتمونا جميعًا في هذا الوضع الدقيق. لقد دأبتم على حرق كميّات متزايدة من الفحم والنفط لأكثر من قرن. أنتم وأنتم فقط من دفعنا إلى حافّة تغيّر المناخ». ثمّ غيّر فجأةً من وِقفته، ووضع راحتَي يديه معًا في تحية هندية، وانحنى احترامًا، وهمس بصوت لطيف للغاية، «ولكننا نسامحكم، لأنكم كنتم تجهلون ما تفعلون. لا يجب أبدًا أن نلوم أحدًا بأثرٍ رجعي لضرر لم يكن مُدركًا له». ثمّ انتصب ثانيةً وعلّق تعليقه الأخير كقاضٍ يصدر حكمه، مشدِّدًا على كلّ كلمة بتحريك سبّابته المرفوعة ببطء. «ولكن من الآن فصاعدًا نحن نحسب انبعاث ثاني أكسيد الكربون لكلّ شخص».

وافقته الرأي تمامًا. كنت لفترة من الوقت منزعجًا بإلقاء تبعة تغيّر المناخ بشكلٍ مُمنهَج على الصين والهند استنادًا إلى الانبعاثات الكليّة لكلّ دولة. بدا الأمر مثل ادّعاء أنّ البدانة في الصين أسوأ منها في الولايات المتحدة لأنّ وزن الجسم الإجمالي للشعب الصيني أعلى من ذاك لشعب الولايات المتحدة. إنّ الجدال بشأن الانبعاثات لكلّ دولة هو عديم الجدوى عندما يكون هناك مثل هذا التفاوت الهائل في الحجم السكّاني. بهذا المنطق، يمكن للنرويج، بتعدادها السكّاني البالغ 5 ملايين، أن تكون مسؤولة عن انبعاث أي كميّة من ثاني أكسيد الكربون لكلّ شخص.

في هذه الحالة، لا بدّ من قسمة الأرقام الكبيرة – الانبعاثات الكليّة لكلّ دولة – على عدد سكّان الدولة للحصول على قياسات ذات معنى وقابلة للمقارنة. سواء

أكنّا نقيس فيروس نقص المناعة البشرية، أو إجمالي الناتج المحلّي، أو مبيعات الهاتف النقّال، أو مستخدمي الإنترنت، أو انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، فإنّ القياس لكلّ فرد – يعني، المعدّل لكلّ شخص – سيكون دومًا تقريبًا أكثر جدوى.

الوضع خطير هناك

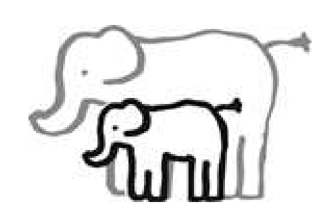
الحياة الأكثر أمانًا يعيشها اليوم الناس في المستوى 4. تمّ القضاء على معظم المخاطر القابلة للمنع. ومع ذلك، لا يزال الكثيرون يشعرون بالقلق.

هم يقلقون بشأن كلّ أنواع الأخطار «هناك». تقتل الكوارث الطبيعية الكثير جدًّا من الناس، والأمراض تنتشر، والطائرات تتحطّم. كلّ هذه الأمور نحدث طوال الوقت هناك، ما وراء الأفق. غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟ مثل هذه الأمور المرعبة نادرًا ما تحدث «هنا»، في هذا المكان الآمِن حيث نعيش. ولكن هناك، يبدو أنها تحدث كلّ يوم. ولكن تذكّر أنّ «هناك» هو مجموع ملايين الأمكنة، بينما تعيش أنت في مكان واحد فقط. بالطبع يحدث المزيد من الأمور السيئة هناك: فهناك أكبر بكثير من هنا. ولهذا حتى لو كانت كلّ الأماكن هناك آمنة تمامًا مثل المكان الذي أنت فيه، فإنّ مئات الأشياء الرهيبة ما زالت ستحدث هناك. إذا استطعت أن تراقب باستمرار كلّ مكان، ستتفاجأ كيف أنّ معظمها ينعم بالسلام. يظهر كلٌّ منها على شاشتك فقط في ذلك اليوم الوحيد عندما يحدث شيء رهيب. في كلّ الأيام الأخرى، أنت لا تسمع عنها.

قارِن واقسِم

عندما أرى رقمًا وحيدًا في تقرير إخباري، أشعر دومًا بالقلق: بماذا ينبغي أن نقارن هذا الرقم الوحيد؟ كم كان هذا الرقم قبل سنة؟ قبل عشر سنوات؟ كم هو هذا الرقم في بلد أو منطقة قابلة للمقارنة؟ وعلى ماذا يجب أن نقسمه؟ ما هو المجموع الإجمالي الذي يمثّل هذا الرقم جزءًا منه؟ كم سيكون هذا الرقم لكلّ شخص؟ أقارن المعدّلات، وحينها فقط أقرر ما إذا كان رقمًا هامًّا.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن تميّز متى يكون رقمًا وحيدًا مُبهِرًا (صغيرًا أو كبيرًا)، وأن تتذكّر أنك تستطيع أن تحصل على الانطباع المعاكس إذا ما قارنته أو قسمته على رقم آخر ذي صلة به.

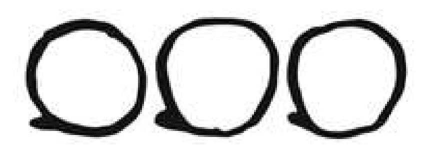
من أجل التحكّم بغريزة الحجم، **ضع الأمور في نطاقها الصحيح**.

* **قارِن**. الأرقام الكبيرة تبدو دومًا كبيرة. الأرقام المفردة مضلِّلة في حدّ ذاتها ويجب أن تثير ارتيابك. إسعَ دومًا للمقارنة. نموذجيًّا، اقسِم على شيء.

* **80/20**. هل أُعطِيت يومًا قائمة طويلة؟ ابحث عن البنود الأكبر القليلة وتعامل معها أوّلًا. من المرجّح جدًّا أن تكون أكثر أهميّة من كلّ البنود الأخرى مجتمعة.

* **اقسِم**. يمكن للكميّات والمعدّلات أن تخبر قصصًا مختلفة تمامًا. المعدّلات أكثر جدوى، خصوصًا عند المقارنة بين مجموعتَين مختلفتَين في الحجم. تحديدًا، ابحث عن المعدّلات لكلّ شخص عندما تقارِن بين البلدان أو المناطق.

الفصل السادس
غريزة التعميم



لماذا اضطررت إلى الكذب بشأن الدانمركيّين،
وكيف يمكن أن يكون من الذكاء بناء نصف منزل

العشاء جاهز

كانت الشمس البرتقالية تغرب خلف أشجار السنط على السهل العشبي لمنطقة باندوندو جنوب نهر الكونغو، على مسافة نصف يوم مشيًا على الأقدام من نهاية الطريق المعبّد. هنا حيث تجد الناس الذين يعيشون في فقر مدقع: هم عالقون خلف ذلك الجبل، وراء النقطة التي ينتهي عندها الطريق. كنت قد قضيت اليوم أنا وزميلي ثوركيلد ونحن نجري مقابلات مع الناس في هذه القرية النائية حول تغذيتهم، والآن أرادوا أن يقيموا لنا حفلة. لم يمشِ أحدٌ أبدًا هذه المسافة الطويلة ليسألهم عن مشاكلهم.

كما كان القرويّون السويديّون سيفعلون قبل مئة عام، كانوا يعبّرون عن امتنانهم واحترامهم بتقديم أكبر قطعة من اللحم يمكنهم إيجادها لضيوفهم. اجتمعت القرية بأكملها في دائرة حولنا، أنا وثوركيلد، حيث قدّموا لكل منّا طبق طعام. على ورقتَين خضراوَين كبيرتَين، وُضِع جرذان كاملان مشويّان منزوعا الجلد!

ظننت أني سأتقيّأ. ثمّ لاحظت أنّ ثوركيلد قد بدأ يأكل بالفعل: كنّا جائعَين جدًّا

بعد عمل يومٍ كامل بدون طعام. نظرت حولي إلى القرويّين الذين كانوا يبتسمون لي منتظرين. كان عليّ أن آكل، وقد فعلت. لم يكن فعليًّا بهذا السوء: كان مذاقه شبيهًا بالدجاج بعض الشيء. لأسباب تتعلّق بالتهذيب، حاولت أن أبدو سعيدًا وأنا أبتلعه.

ثمّ حان وقت التحلية: طبقٌ آخر مليء بيرقات بيضاء كبيرة من شجرة جوز النخيل. وأنا أعني بالفعل أنها كبيرة؛ كلّ يرقة منها أطول وأسمك من إبهام يدي، وقد قُلِيت بشكلٍ خفيف في نفس دهنها. ولكني تساءلت إن كانت قد قُلِيت بشكل خفيف جدًّا؟ لأنها بدت تتحرّك. كان القرويّون فخورين بتقديم مثل هذه الوجبة اللذيذة لنا.

تذكّر، أنا مبتلع للسيوف. يجب أن أكون قادرًا على دفع أي شيء إلى أسفل حلقي. وأنا عادةً لست نيّقًا في الأكل: أكلت مرّة عصيدة مصنوعة من البعوض. ولكن لا. هذا الشيء، لم أستطع أكله. بدت رؤوس اليرقات مثل حبّات جوز بنيّة صغيرة وأجسادها السميكة مثل خطمية (مارشميلو) متغضّنة شفّافة، أمكنني رؤية أمعائها من خلالها. أومأ القرويّون بأني يجب أن أقضمها إلى جزءَين، وأمصّ محتوياتها. إذا حاولت فِعل ذلك سأتقيّأ الجرذ. لم أُرِد الإساءة إليهم.

فجأة، لاحت لي فكرة. ابتسمتُ بلين وقلت متأسِّفًا، «أتعلمون، أنا آسف، ولكني لا أستطيع أن آكل اليرقات».

التفت إليّ ثوركيلد، متفاجئًا. كان قد تناول إثنَين منها بالفعل. لقد أحبّ فعلًا تلك اليرقات. كان قد عمل سابقًا كمبعوث في الكونغو، حيث كانت اليرقات الأكلة البارزة كلّ أسبوع لمدّة سنة كاملة.

قلت، محاوِلًا أنا أبدو مقنعًا، «كما ترون، نحن لا نأكل اليرقات». نظر القرويّون إلى ثوركيلد.

قالوا، مُستفهِمين، «ولكنه يأكلها؟». نظر ثوركيلد إليّ مُحدِّقًا.

قلت، «حسنًا. كما ترون، هو من قبيلة مختلفة عن قبيلتي. أنا من السويد، وهو من الدانمارك. في الدانمارك، يحبّون أكل اليرقات. ولكن في السويد الأمر مخالفٌ لثقافتنا». ذهب مدرِّس القرية وأحضر خريطة العالم وأشرت إلى الماء الذي يفصل بين بلدَينا. قلت، «لى هذا الجانب من الماء يأكلون اليرقات، وعلى هذا الجانب لا

نفعل». لقد كانت فعليًّا واحدةً من أكثر الأكاذيب التي تفوّهت بها في حياتي سماجةً ولكنها نجحت. كان القرويّون سعداء بتقاسم التحلية بينهم. كلّ أحد، في كلّ مكان يعرف أنّ الناس من قبائل مختلفة لهم عادات مختلفة.

غريزة التعميم

الجميع يصنّف ويعمّم بشكلٍ تلقائي طوال الوقت. لاشعوريًّا. ليست مسألة كوننا متحاملين أو متنوّرين. الفئات ضرورية لنا حتمًا لنقوم بوظائفنا، لأنها تعطي هيكلًا لأفكارنا. تخيّل لو أننا رأينا كلّ بند وكلّ سيناريو على أنه فريدٌ حقًّا؛ لن يكون لدينا حتى لغة لنصف العالم حولنا.

يمكن لغريزة التعميم الضرورية والمفيدة، مثل كلّ الغرائز الأخرى في هذا الكتاب، أن تشوّه أيضًا نظرتنا العالمية. يمكنها أن تجعلنا نصنّف بشكلٍ خاطئ أشياءً، أو أناسًا، أو بلدانًا في مجموعة واحدة رغم وجود اختلافات واضحة بينها. يمكنها أن تجعلنا نفترض أنّ كلّ شيء أو كلّ أحد في فئة ما متشابهون. وربما الأسوأ من كلّ شيء أنها يمكن أن تجعلنا نقفز إلى استنتاجات عن فئة بأكملها استنادًا إلى بضعة أمثلة استثنائية، أو حتى مثال واحد فقط.

من جديد، وسائل الإعلام هي صديقة للغريزة. تعمل التعميمات والقوالب النمطية المضلّلة كنوع من المواجز لوسائل الإعلام، مزوِّدةً بطرق سريعة وسهلة للتواصل. إليك بضعة أمثلة فقط من صحيفة اليوم: الحياة الريفية، الطبقة المتوسطة، الأم الخارقة، عضو العصابة.

عندما يصبح الكثير من الناس مدركين لتعميمٍ إشكالي، يُسمّى هذا التعميم بالقالب النمطي. في معظم الأحوال، يتحدّث الناس عن القولبة العِرقية والجنسانيّة. يسبّب هذان العديد من المشاكل الهامّة جدًّا، ولكنها ليست المشاكل الوحيدة الناتجة عن التعميمات الخاطئة. التعميمات الخاطئة هي مانعات عقلية لكلّ أنواع الفهم.

غريزة الفجوة تقسم العالم إلى «نحن» و«هم»، وغريزة التعميم تجعلنا «نحن» نفكّر بـ«هم» كما لو كانوا جميعًا متشابهين.

هل تعمل لدى شركة تجارية في المستوى 4؟ هناك احتمالٌ كبير بأنك غافلٌ عن غالبية المستهلكين والمنتجين المحتمَلين بسبب تعميماتك. هل تعمل في

الشؤون الماليّة في مصرف كبير؟ هناك احتمال كبير بأنك تستثمر أموال عملائك في الأماكن الخاطئة، لأنك تضع أناسًا مختلفين بدرجة هائلة في مجموعة واحدة.

سؤال الحقيقة التاسع

ما نسبة الأطفال البالغ عمرهم سنة واحدة الذين تمّ تلقيحهم ضدّ أمراض معيّنة في العالم اليوم؟

أ: 20 بالمائة

ب: 50 بالمائة

ج: 80 بالمائة

لم تستطع شركات استطلاعات الرأي العام العادية أن تساعدني في مقارنة الجهل بين أنواع مختلفين من الخبراء. ليس لدى هكذا شركات وصولٌ إلى هيئة الموظّفين في الشركات الكبيرة والمنظّمات الحكومية. لهذا السبب وغيره بدأتُ في استطلاع رأي جمهوري في بداية محاضراتي. لقد اختبرت 12,596 شخصًا في 108 محاضرة على مدى السنوات الخمس الماضية. يحصد هذا السؤال أسوأ النتائج. أنظر إلى الجدول على الصفحة التالية، حيث رتّبت 12 مجموعة من الخبراء وِفقًا لعدد الأشخاص منهم الذين اختاروا الإجابة الأكثر بُعدًا عن الصواب.



جاءت أسوأ النتائج من تجمُّع سنوي لمديرين ماليّين عالميّين في المركز الرئيسي لواحد من أكبر عشرة مصارف في العالم. لقد زرت ثلاثة منها. لا أستطيع أن أخبرك أي مصرف منها سجّل هذه النتيجة، لأني وقّعت على ورقة. من بين المصرفيّين الـ71 المهندمين في القاعة، اعتقد ما نسبته 85 بالمائة منهم أنّ أقليّةً من أطفال العالم قد تمّ تلقيحهم. إجابة خاطئة للغاية.

يجب أن تُحفَظ اللقاحات باردة على طول الطريق من المصنع إلى ذراع الطفل. يتمّ شحنها في حاويات مُبرّدة إلى الموانئ حول العالم، حيث يتمّ تحميلها في شاحنات مبرّدة. تأخذها هذه الشاحنات إلى عيادات الصحة المحلّية، حيث يتمّ تخزينها في برّادات. يُطلَق على مسارات التوزيع السَّوقيّة هذه السلاسل الباردة. من أجل أن تنجح السلاسل الباردة، لا بدّ أن تكون كلّ البنى التحتية الأساسية للنقل، والكهرباء، والتعليم، والرعاية الصحية في موضعها الصحيح. هذه هي بالضبط البنية التحتية نفسها اللازمة لإنشاء مصانع جديدة. إنّ حقيقة أنّ 88 بالمائة من أطفال العالم ملقّحون ولكنّ المستثمرين الماليّين الرئيسيّين يعتقدون أنّ النسبة 20 بالمائة فقط تشير إلى وجود احتمال كبير بأنهم يفشلون في أعمالهم بإضاعة فرص استثمار ضخمة (ربما أكثر الفرص ربحًا في أسرع أنحاء العالم نموًّا).

أنت تقوم بهذا النوع من الافتراض الخاطئ عندما تحتفظ في رأسك بفئة «هم»، التي تضع فيها غالبية البشر. ما هي الصور التي تستخدمها لتتخيّل نوع الحياة في هذه الفئة؟ لعلّك تتذكّر أكثر الصور الحيّة إزعاجًا من الأخبار؟ أظنّ أنّ هذا بالضبط هو ما يحدث عندما يجيب الناس في المستوى 4 بهذه الدرجة من السوء على هذا النوع من أسئلة الحقيقة. إنّ الحرمان البالغ الذي نراه في الأخبار يقولب في النهاية أفكار غالبية البشر.

ينتج عن كلّ حملٍ سنتان تقريبًا تنقطع فيهما الدورة الشهرية. إذا كنت مُنتِجًا لفوط صحية نسائية، فهذا سيئ لعملك. ولهذا يجب أن تعرف عن الانخفاض في عدد الأطفال لكلّ امرأة عبر العالم، وتكون سعيدًا جدًّا بشأنه. يجب أن تعرف وتسعد أيضًا بالنموّ في عدد النساء المتعلّمات العاملات خارج بيوتهنّ، لأنّ هذه التطوّرات خلقت سوقًا متفجِّرًا لمنتجاتك على مدى العقود القليلة الماضية بين مليارات النساء اللواتي يعشن الآن في المستويَين 2 و3.

ولكن، كما أدركت عندما حضرت اجتماعًا داخليًّا في واحدة من أكبر الشركات

المنتجة للّوازم الصحية، فإنّ معظم المنتجين الغربيين قد غفلوا كليًّا عن هذه النقطة. بدلًا من ذلك، عندما يفتّشون عن زبائن جدد، تراهم عالقين غالبًا في التفكير بالاحتياجات الجديدة للـ300 مليون امرأة تحت سنّ الخمسين في المستوى 4. ولكن، كما في معظم الأسواق الاستهلاكية الغنية، فإنّ الاحتياجات الرئيسية قد تمّ الإيفاء بها بالفعل، وتذهب جهود المنتجين سُدى لإحداث الطلب في قطاعات تصبح أصغر فأصغر.

في غضون ذلك، هناك 2 مليار امرأة تقريبًا تحت سنّ الخمسين في المستويَين 2 و3، يطلبن منتَجًا قليل التكلفة يلبّي الاحتياجات الرئيسية ويكون موثوقًا طوال اليوم. وعندما يجدن مثل هذا المنتَج، يُرجَّح أن يلتزمن بشرائه طوال حياتهن وأن يقترحنه لبناتهنّ.

المنطق نفسه ينطبق على العديد من المنتجات الاستهلاكية الأخرى، وقد ألقيت مئات المحاضرات على مسامع قادة الأعمال موضِّحًا هذه النقطة نفسها. يتحرّك غالبية سكّان العالم بانتظام إلى أعلى سلّم المستويات. سيزداد عدد الناس في المستوى 3 من مليارَين إلى أربعة مليارات من الآن حتى العام 2040. كلّ من في العالم تقريبًا يصبح مُستهلِكًا. إذا كنت تعاني من المفهوم الخاطئ بأنّ العالم لا يزال فقيرًا جدًّا لشراء أي شيء على الإطلاق، فأنت تخاطر بتضييع أكبر فرصة اقتصادية في تاريخ العالم. يحتاج مخطّطو الأعمال الاستراتيجيون إلى نظرة عالمية مستندة إلى الحقيقة لإيجاد زبائنهم المستقبليّين.

لدغات الواقع

أنت بحاجة لغريزة التعميم لتعيش حياتك اليومية، ويمكنها بين الحين والآخر أن تنقذك من أكل شيء مقزّز. نحن بحاجة إلى الفئات دومًا. يكمن التحدّي في إدراك أي من فئاتنا البسيطة مضلِّلة - مثل الدول «المتقدّمة» و«النامية» – واستبدالها بفئات أفضل، مثل المستويات الأربعة.

إحدى أفضل الطرق للقيام بهذا هي أن تسافر، إذا استطعت. لهذا السبب جعلت طلّابي الذين يدرسون الصحة العالمية في معهد كارولنسكا، في جامعة الطبّ في ستوكهولم، يذهبون في زيارات دراسية إلى بلدان في المستويات 1، و2، و3، حيث حضروا مقرّرات جامعية، وزاروا مستشفيات، ومكثوا مع عائلات محلّية. لا

شيء يتفوّق على التجربة المستقاة من المصدر مباشرةً.

عادةً ما يكون هؤلاء الطلّاب شبابًا سويديّين متميّزين يريدون أن يفعلوا الخير في العالم ولكنهم لا يعرفون العالم فعلًا. يقول بعضهم أنه قد سافر: غالبًا ما تناولوا الكابوتشينو في مقهى مجاور لوكالة سياحة بيئية، ولكنهم لم يدخلوا أبدًا بيتًا عائليًّا واحدًا.

في اليوم الأوّل من رحلة إلى ثيروفانانثابورام في كيرالا في الهند، أو كامبالا في أوغندا، يعبّرون عادةً عن دهشتهم بأنّ المدينة منظّمة بشكلٍ جيد. هناك إشارات مرور وأنظمة صرف صحيّ ولا أحد يموت في الشارع.

في اليوم الثاني، نزور عادةً مستشفىً عامًّا. عندما يرون أنّ الجدران غير مدهونة ولا يوجد تكييف للهواء وهناك 60 شخصًا في الغرفة، يتهامس طلّابي في ما بينهم بأنّ هذا المكان لا بدّ أن يكون فقيرًا للغاية. ويكون عليّ أن أشرح بأنّ الناس الذين يعيشون في فقر مدقع ليس لديهم مستشفيات على الإطلاق. تلد المرأة التي تعيش في فقر مدقع على أرضية من الطين، بمساعدة قابلة غير مدرّبة مشت حافية القدمين في الظلام. تساعدنا مديرة المستشفى. تشرح لنا بأنّ عدم طلي الجدران يمكن أن يكون قرارًا استراتيجيًّا في البلدان في المستويَين 2، و3. ليست المسألة أنهم لا يستطيعون تحمّل نفقات الدهان. الجدران المتقشّرة تُبعِد المرضى الأغنى ومتطلّباتهم المستغرقة وقتًا طويلًا للعلاجات المكلفة، ما يسمح للمستشفيات أن تستخدم مواردها المحدودة لمعالجة المزيد من الناس بطرق فعّالة التكلفة أكثر.

ثمّ علم طلّابي أنّ أحد المرضى لا يقدر على شراء الأنسولين الذي وُصِف له كعلاج لمرض السكّري الذي أظهر التشخيص إصابته به. الطلّاب لا يستوعبون: لا بدّ أن تكون هذه مستشفى متقدّمة إذا كان بإمكانها تشخيص الإصابة بالسكّري. ولكن كم هو عجيب إذا كان المريض لا يقدر على نفقات العلاج. ومع ذلك، هذا شائع جدًّا في المستوى 2: يمكن لنظام الصحة العامة أن يدفع نفقات بعض التشخيص، والرعاية الطارئة، والعقاقير غير المكلِفة. يقود هذا إلى تحسينات كبيرة في معدّلات البقاء على قيد الحياة. ولكن ليس هناك ببساطة مالٌ كاف (إلّا إذا انخفضت التكاليف) للعلاجات المكلِفة للحالات المستمرّة مدى الحياة مثل السكّري.

في إحدى المناسبات، كاد الفهم الخاطئ لإحدى الطالبات للحياة في البلدان ذات المستوى 2 أن يكلّفها غاليًا جدًّا. كنّا في زيارة لمستشفىً خاصّ جميل وحديث في كيرالا، في الهند، يبلغ ارتفاعه ثمانية طوابق. وقفنا بعض الوقت في الردهة في انتظار طالبة في مجموعتنا كانت متأخّرة. بعد 15 دقيقة، قرّرنا أن لا ننتظرها أكثر ومشينا على طول الرواق ودخلنا مصعدًا كبيرًا، يتّسع لعدّة من أسرّة المستشفى. ضغط مضيفنا، رئيس وحدة العناية المركّزة، على زرّ الطابق السادس. في اللحظة التي بدأ فيها مصراعا الباب ينزلقان للإغلاق، رأينا الشابّة السويديّة الشقراء تندفع مسرعة إلى ردهة المستشفى. صاحت صديقتها من داخل المصعد، «تعالي، أسرعي»، ومدّت الشابّة رِجلها لتمنع مصراعَي الباب من الانطباق. حدث كلّ شيء بعد ذلك بسرعة. استمرّ المصراعان في الانزلاق ليطبقا بإحكام على رِجل طالبتي، التي صرخت بألم وخوف. بدأ المصعد بالتحرّك للأعلى، وعلا صوت صراخها. في اللحظة التي أدركتُ فيها أنّ رِجل هذه الشابة ستُسحَق مع تحرُّك المصعد، قفز مضيفنا وضرب زرّ التوقّف الطارئ الأحمر. أشار إليّ غاضبًا لأساعده، ودفعنا مصراعَي الباب بعيدًا عن بعضهما بما يكفي لتحرير الرِّجل النازفة لطالبتي.

بعدئذٍ، نظر مضيفنا إليّ وقال، «لم أرَ أبدًا مثل هذا من قبل. كيف يمكنكم أن تقبلوا طلّابًا أغبياء بهذا الشكل في كليّة الطبّ؟» شرحت له بأنّ كلّ المصاعد في السويد مزوّدة بمحسّات على الأبواب. إذا وُضِع أي شيء بين مصراعَي الباب، سيتوقّفان فورًا عن الانغلاق وينفتحان بدلًا من ذلك. بدا الطبيب الهندي متشكّكًا. «ولكن ما الذي يضمن لكم أنّ هذه الآليّة المتقدّمة تعمل في كلّ لحظة؟» شعرت بالغباء لجوابي: «إنها كذلك دومًا. أظنّ بسبب وجود قوانين سلامة صارمة وفحص دوري». لم يبدُ مقتنعًا. «هممم. لقد أصبح بلدك آمنًا جدًّا إلى حدّ أنك إذا سافرت يكون العالم خطرًا عليك».

يمكنني أن أؤكّد لك أنّ الشابة لم تكن غبيّة على الإطلاق. الأمر فقط أنها عمّمت ببساطة، وبنحوٍ يفتقر إلى الحكمة، تجربتها الخاصة بالمصاعد في المستوى 4 على كلّ المصاعد في كلّ البلدان.

في اليوم الأخير، نقيم احتفالًا وداعيًّا صغيرًا أتعلّم فيه أحيانًا شيئًا عن التعميمات التي يفترضها الآخرون بشأننا. في هذه المناسبة الخاصة في الهند، وصلت طالباتي في الوقت المحدّد، مرتديات السواري الملوّنة الجميلة التي

اشترينها من السوق المحلّي (شُفِيَت إصابة حادثة المصعد على نحوٍ جميل). وبعدهنّ بعشر دقائق وصل طلّابي الذكور، مرتدين بناطيل جينز ممزّقة وقمصان (تي شيرت) غير نظيفة. أحنى بروفيسور الهند الرائد في الطبّ الشرعي رأسه نحوي وهمس قائلًا، «أسمع أنّ الزيجات في بلدكم قائمة على الحبّ، ولكن لا بدّ أنّ هذه كذبة. أنظر إلى هؤلاء الرجال. أي إمرأة ستتزوّج منهم إن لم يربّهم آباؤهم؟».

عند زيارة الواقع في البلاد الأخرى، وليس فقط مقاهي السائحين، تدرك أنّ التعميم انطلاقًا ممّا هو طبيعي في موطنك يمكن أن يكون عديم الفائدة أو حتى خطرًا.

مَرّتي الأولى

أنا لا أقصد أن أبدو إنتقاديّا بشأن طلّابي. ولكني فعليًّا لست أفضل منهم.

في العام 1972، كطالب طبّ في السنة الرابعة، درست في كليّة الطبّ في بنغالور. اشتمل الدرس الأوّل الذي حضرته على فحص صور أشعة إكس لكُلْية. ناظرًا إلى الصورة الأولى، أدركت أنّ هذا قطعًا سرطان الكلية. قرّرت أن أنتظر قليلًا قبل أن أخبر بقية الصفّ، بدافع الاحترام. لم أرِد أن أبرز نفسي. رُفِعت عدّة أيدي بعد ذلك وشرح الطلّاب الهنود واحدًا تلو الآخر الطريقة الأفضل لتشخيص هذا السرطان، وكيف وأين ينتشر عادةً، والطريقة الفضلى لعلاجه. واستمرّوا على مدى 30 دقيقة في الإجابة على أسئلة ظننت أنّ الأطباء المتمرّسين وحدهم يعرفون الإجابة عليها. أدركت خطئي المحرِج. لا بدّ أني أتيت إلى الغرفة الخطأ. لا يمكن أن يكون هؤلاء طلّاب السنة الرابعة. لا بدّ أنهم متخصّصون. لم يكن لدي ما أضيفه إلى تحليلهم.

في طريقنا للخروج، أخبرت زميلًا لي في الدراسة أنه كان من المفترض بي أن أكون مع طلّاب السنة الرابعة. قال: «هذا نحن». ذُهِلت. كانت علامات الطائفة على جباههم وعاشوا حيث تنمو أشجار النخيل العجيبة. كيف يمكن أن يعرفوا أكثر مني؟ في الأيام القليلة التالية، علمت أنّ كتابهم الدراسي المقرّر كان أسمك بثلاثة أضعاف من كتابي، وقد قرأوه ثلاث مرّات.

أتذكّر هذه التجربة بأكملها على أنها المرّة الأولى في حياتي التي اضطررت فيها فجأة إلى تغيير نظرتي العالمية: افتراضي بأني أعلى منزلة بسبب كوني من بلدٍ ما، وفكرة أنّ الغرب كان الأفضل وأنّ البقية لن تلحق به أبدًا. في تلك اللحظة، قبل 45 سنة، فهمت أنّ الغرب لن يهيمن على العالم لفترة طويلة بعد الآن.

كيفية السيطرة على غريزة التعميم

إذا كنت لا تستطيع السفر، لا تقلق رجاءً. هناك طرق أخرى لتجنُّب استخدام الفئات الخاطئة.

جِد فئاتٍ أفضل

أصرّت آنا دومًا على أنّ الرحلات التي قمت بها مع طلابي لم تكن سوى طريقة ساذجة وغير واقعية لتعليم معظم الناس عن العالم. قلّة من الناس ستنفق ما جنته من مال لتسافر إلى بلدان بعيدة من أجل تجربة حفرة مرحاضية واختبار الحياة اليومية البسيطة في المستويات 1، أو 2، أو 3، بعيدًا عن الشاطئ، والأطعمة المطهوّة الرائعة، والحياة البريّة الأشبه بحكايات الجنّ.

معظم الناس أيضًا لا يكترثون بدراسة البيانات حول الاتجاهات والنسب العالمية. وعلى كلّ حال، حتى عند النظر إلى البيانات، من الصعب جدًّا فهم ما تعنيه للحياة اليومية عند مستويات مختلفة.

هل تذكر الصور الفوتوغرافية المستخدمة لوصف المستويات في الفصل الذي يتناول غريزة الفجوة؟ كلّ هذه الصور مصدرها شارع الدولارات، وهو مشروع طوّرته آنا لشرح العالم لأولئك الذين يتعرّفون على البلدان والأماكن من خلال مشاهدة برامج التلفاز، والبحث في الإنترنت، وقراءة الكتب. يمكنك الآن أن تفهم كيف يعيش الناس بدون أن تغادر بيتك.

تخيّل أنّ كلّ البيوت في العالم مصطفّة على طول شارع واحد طويل، وِفقًا للدخل. يعيش أفقر الناس في الطرف الأيسر للشارع ويعيش أغناهم في الطرف الأيمن. والآخرون؟ بالطبع أنت تعرف الجواب الآن: يعيش معظم الناس في مكانٍ

ما في المنتصف. رقم منزلك في هذا الشارع يمثّل دخلك. جيرانك في شارع الدولارات هم أناس من كلّ أنحاء العالم لهم نفس دخلك.

بعثت آنا حتى الآن مصوّرين فوتوغرافيّين لزيارة نحو 300 عائلة في أكثر من 50 بلدًا. توثِّق صوَرهم كيف يأكل الناس، وينامون، وينظّفون أسنانهم، ويحضّرون الطعام. هم يلتقطون صورًا تبيّن ممّا صُنِعت بيوتهم، وكيف يدفّئونها ويضيئونها، وأدواتهم اليومية مثل المراحيض والمواقد، وإجمالًا أكثر من 130 وجهًا مختلفًا من أوجه حياتهم اليومية. يمكننا أن نملأ كتابًا بأكمله بصور تُظهِر التشابهات الصارخة بين حياة الناس الذين يعيشون بالمداخيل نفسها في بلدان مختلفة، والاختلافات الهائلة في طريقة حياة الناس ضمن البلدان. لدينا أكثر من 40,000 صورة.[3]

ما توضّحه الصور هو أنّ العامل الرئيسي الذي يؤثّر في طريقة حياة الناس ليس دينهم، أو ثقافتهم، أو البلد الذي يعيشون فيه، وإنّما دخلهم.



هنا بعض فُرَش الأسنان من عائلات ذات مستويات دخل مختلفة. في المستوى 1، أنت تنظّف أسنانك بإصبعك أو بعود. في المستوى 2، تحصل على فرشاة بلاستيكية. في المستوى 3، يحصل كلّ فرد في العائلة على فرشاة. وفي المستوى 4، الفُرَش مألوفة لديك بالفعل.

تبدو غرف النوم (أو المطابخ أو غرف المعيشة) لعائلات من المستوى 4 متشابهة جدًّا في الولايات المتحدة، وفيتنام، والمكسيك، وجنوب أفريقيا، أو في أي مكان آخر في العالم.



طريقة تخزين وتحضير الطعام لعائلة تعيش في المستوى 2 في الصين شبيهة جدًّا بطريقة تخزين وتحضير الطعام لعائلة تعيش في المستوى 2 في نيجيريا.



في الواقع، عندما تكون واحدًا من الثلاثة مليارات شخص الذين يعيشون في المستوى 2، سواء أكنت تعيش في الفلبين، أو كولومبيا، أو ليبيريا، فإنّ الحقائق الأساسية المتعلّقة بحياتك متشابهة إلى حدّ كبير.

سطح منزلك مرقّع، ولهذا إذا كانت تمطر، فمن المرجّح أن تبلّلك المياه وتشعر بالبرد.



عندما تذهب إلى المرحاض في الصباح، عادة ما يكون كريه الرائحة ومليء بالذباب، ولكن على الأقلّ هناك بعض الجدران لتمنحك شيئًا من الخصوصيّة.



تأكل نوع الطعام نفسه لكلّ وجبة تقريبًا، كلّ يوم من كلّ أسبوع. أنت تحلم بطعام يكون متنوِّعًا أكثر ولذيذًا أكثر.

الضوء يتذبذب لأنّ الكهرباء غير ثابتة. عليك أن تعتمد على ضوء القمر في الليالي التي تكون فيها الكهرباء مقطوعة. أنت تُحكِم إغلاق الباب باستخدام قفل.

عندما تذهب إلى السرير في المساء يُحتمَل أن تنظّف أسنانك بنفس فرشاة الأسنان التي يستخدمها بقية أفراد العائلة. أنت تحلم باليوم الذي لا تعود مضطرًا فيه إلى التشارك مع جدّتك في نفس الفرشاة.

في وسائل الإعلام، نحن نرى صورًا للحياة اليومية في المستوى 4 وللأزمات

في المستويات الأخرى طوال الوقت. ابحث في غوغل عن مرحاض، أو سرير، أو موقد. ستحصل على صور من المستوى 4. إذا أردت أن ترى كيف هي الحياة اليومية في المستويات الأخرى، لا جدوى من البحث في غوغل.

تحقّق من فئاتك

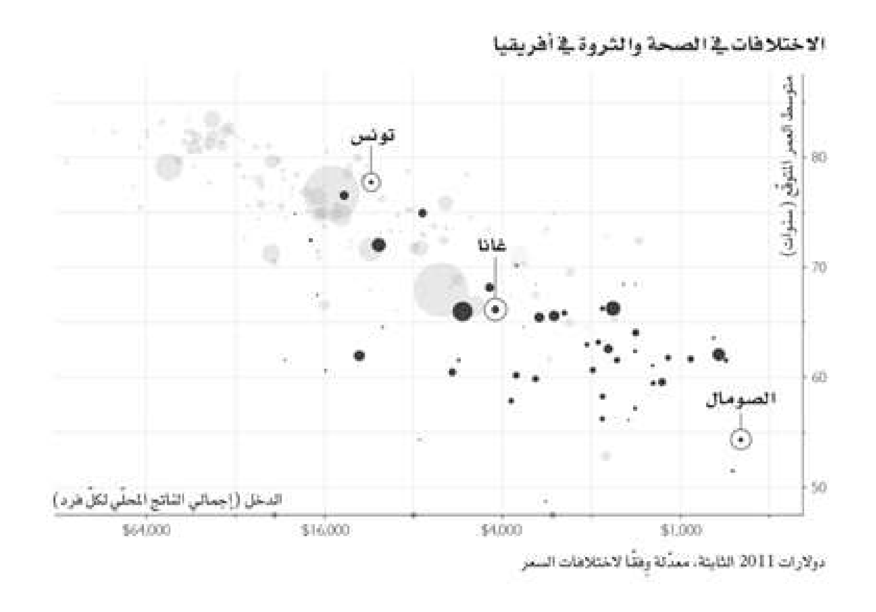
سيكون من المفيد لك أن تفترض دومًا أنّ فئاتك مُضلِّلة. إليك خمس طرق فعّالة لتستمرّ في التحقّق من فئاتك المفضّلة: ابحث عن الاختلافات ضمن المجموعات والتشابهات عبر المجموعات، واحذر من «الأغلبية»، واحذر من الأمثلة الاستثنائية، وافترض أنك لست «طبيعيًّا»، واحذر من التعميم من مجموعة إلى أخرى.

ابحث عن الاختلافات ضمن المجموعات والتشابهات عبر المجموعات

تنهار القوالب النمطيّة للبلدان ببساطة عندما تنظر إلى الاختلافات الهائلة ضمن البلدان والتشابهات الهائلة بنفس القدر بين البلدان التي لها نفس مستوى الدخل، بغضّ النظر عن الثقافة أو الدين.

هل تذكر التشابهات بين قدور الطهي للعائلات في المستوى 2 في نيجيريا والصين؟ إذا رأيت صورة الصين فقط، فستفكّر على الأرجح، «أوه، تلك هي الطريقة التي يسخّنون بها الماء في الصين. في قدر حديدي على حامل ثلاثي القوائم فوق النار. تلك هي ثقافتهم». لا. إنها طريقة شائعة لتسخين الماء في المستوى 2، في جميع أنحاء العالم. إنها مسألة تتعلّق بالدخل. وفي الصين، كما في أي مكان آخر، يطبخ الناس أيضًا بعدّة طرق أخرى، اعتمادًا على مستوى دخلهم، وليس على «ثقافتهم».

عندما يقول أحدهم أنّ فردًا فعل شيئًا لأنه ينتمي إلى مجموعة ما – شعب، أو ثقافة، أو دين – إنتبه. هل هناك أمثلة لسلوك مختلف في المجموعة نفسها؟ أو للسلوك نفسه في مجموعات أخرى؟



أفريقيا قارة ضخمة تضمّ 54 بلدًا ومليار شخص. نجد في أفريقيا أفرادًا يعيشون في كلّ مستويات التطوّر: في المخطّط الفقّاعي أعلاه، أبرزتُ كلّ البلدان الأفريقية. أنظر إلى الصومال، وغانا، وتونس. لا معنى لأن نتحدّث عن «البلدان الأفريقية» و«مشاكل أفريقيا»، ولكن هذا ما يفعله الناس طوال الوقت. يقود هذا إلى نتائج سخيفة مثل الإيبولا في ليبيريا وسيراليون تؤثّر على السياحة في كينيا، التي تبعد مسافة 100 ساعة قيادة بالسيارة عبر القارة. هذا أبعد من لندن إلى طهران.

احذر من «الأغلبية»

عندما يقول أحدهم أنّ الأغلبية في مجموعة ما تتّصف بصفة ما، قد يبدو الأمر كما لو كان معظمهم مشتركًا في تلك الصفة. تذكّر أنّ الأغلبية تعني فقط أكثر من النصف. يمكن أن تعني 51 بالمائة. ويمكن أن تعني 99 بالمائة. إذا كان ممكنًا، اسأل عن النسبة المئوية.

على سبيل المثال، إليك حقيقة: في جميع بلدان العالم، تقول أغلبية من النساء أنه تتمّ تلبية احتياجاتهن من موانع الحمل. ماذا يخبرنا هذا؟ هل يعني الجميع تقريبًا؟ أو هل يعني أعلى من النصف قليلًا؟ تختلف الحقيقة بشكلٍ واسع من بلدٍ إلى آخر. في الصين وفرنسا، يقول 96 بالمائة من النساء أنّ احتياجاتهن من موانع الحمل تتمّ تلبيتها. النسبة هي 94 بالمائة في المملكة المتحدة، وكوريا الجنوبية،

وتايلاند، وكوستاريكا، ونيكاراغوا، والنرويج، وإيران، وتركيا. ولكن في هايتي وليبيريا، فإنّ «الأغلبية» تعني 69 بالمائة فقط، وفي أنغولا تعني 63 بالمائة فقط.

احذر من الأمثلة الاستثنائية

احترز من الأمثلة الاستثنائية المستخدمة للتأكيد على نقطة ما بشأن مجموعة كاملة. تُقاد الكيموفوبيا، أو الخوف من الكيماويات، بتعميمات من بضعة أمثلة حيّة ولكن استثنائية حول المواد المؤذية. يصبح بعض الناس خائفين من كلّ «المواد الكيميائية». ولكن تذكّر أنّ كلّ الأشياء مصنوعة من مواد كيميائية، كلّ الأشياء «الطبيعية» وكلّ المنتجات الصناعية. إليك بعض الأشياء المفضّلة لديّ التي لا يمكنني العيش بدونها: الصابون، والإسمنت، والبلاستيك، ومنظّف الغسيل، وورق المرحاض، والمضادّات الحيوية. إذا قدّم لك أحدهم مثالًا وحيدًا وأراد أن يصل منه إلى استنتاجات بشأن مجموعة بأكملها، أطلب المزيد من الأمثلة أو اعكس الأمر: يعني، اسأل ما إذا كان مثالٌ معاكس سيجعلك تصل إلى استنتاج معاكِس. إذا كنت سعيدًا باستنتاج أنّ كلّ المواد الكيميائية غير آمنة استنادًا إلى مادة كيميائية واحدة غير آمنة، هل ستكون مستعدًّا لأن تستنتج أنّ كلّ المواد الكيميائية آمنة استنادًا إلى مادة كيميائية واحدة آمنة؟

افترض أنك لست «طبيعيًّا» وأنّ الآخرين ليسوا «أغبياء»

كي تتجنّب أن تُسحَق رِجلك في مصعد وغير ذلك من الأخطاء المؤذية، إبقَ منفتِحًا إلى إمكانية أن تكون تجربتك غير «طبيعية». كن حذرًا بشأن تعميم تجارب المستوى 4 على بقية العالم. خصوصًا إذا كان ذلك يقودك إلى الاستنتاج بأنّ الآخرين أغبياء.

إذا قُدِّر لك أن تزور تونس، وهو بلدٌ يعيش فيه الناس في جميع المستويات من 1 إلى 4، قد تمرّ بمنازل نصف مبنيّة؛ مثل هذا، لعائلة صالحي، التي تعيش في العاصمة، تونس. قد تستنتج أنّ التونسيين كسالى أو يفتقرون إلى التنظيم.

يمكنك أن تزور عائلة صالحي في شارع الدولارات وترى كيف يعيشون. مباركٌ بستاني له من العمر 52 سنة. زوجته، جميلة، تبلغ من العمر 44 سنة وتدير مخبزًا من المنزل. يملك معظم جيرانهم منازل مشابهة، حيث الطابق الثاني منها نصف مبنيّ. ترى هذا المشهد في كلّ مكان في المستويَين 2 و3 عبر العالم. في

السويد، إذا بنى أحدهم منزله بهذا الشكل، سنظنّ أنّ لديه مشكلة كبيرة في التخطيط، أو أنّ البنّائين قد فرّوا. ولكن لا يمكنك أن تعمّم من السويد إلى تونس.



وجدت عائلة صالحي، والكثير غيرهم ممّن يعيشون في ظروف مشابهة، طريقة ذكية لحلّ عدّة مشاكل في آنٍ واحد. في المستويَين 2 و3، لا يكون لدى العائلات في معظم الأحيان وصولٌ إلى مصرف لوضع مدّخراتهم ولا يستطيعون الحصول على قرض. وهكذا، من أجل أن يدّخروا لتحسين منازلهم، لا بدّ أن يراكموا المال. ولكنّ المال يمكن أن يُسرَق أو يفقد قيمته بسبب التضخّم. ولهذا، متى ما كان بمقدورهم، تشتري عائلة صالحي طوبًا فعليًّا، لن يفقد قيمته. ولكن ليس لديهم متّسعٌ في البيت لتخزين الطوب ولا يمكنهم تركه خارج البيت خشية أن يُسرَق. من الأفضل أن يُضاف الطوب إلى البيت حال شرائه. لا يستطيع اللصوص أن يسرقوه. ولن يغيّر التضخّم قيمته. لا حاجة لأحد لأن يتحقّق من تصنيفك الائتماني. وعلى مدى 10 أو 15 سنة، أنت تبني لعائلتك ببطء بيتًا أفضل. بدلًا من افتراض أنّ عائلة صالحي كُسالى أو غير منظّمين، افترض أنهم أذكياء واسأل نفسك، كيف يمكن لهذا أن يكون حلًّا ذكيًّا إلى هذه الدرجة؟

احذر من التعميم من مجموعة إلى أخرى

اعتقدت في ما مضى بتعميم خاطئ على نحوٍ فادح أودى بحياة 60,000 شخص، وروّجت له أيضًا. كان من الممكن إنقاذ بعضِ من تلك الأرواح لو أنّ مجتمع

الصحة العامة كان أكثر فطنةً ليتحقّق من تعميماته المضلِّلة.

في مساء أحد الأيام في العام 1974، كنت أبتاع خبزًا في سوبرماركت في مدينة سويدية صغيرة عندما اكتشفت فجأة طفلًا رضيعًا في وضعٍ يهدّد حياته، في عربة أطفال في الجناح الخاص بالخبز. كانت الأم قد أدارت ظهرها وانشغلت في انتقاء الرغيف الذي تريده. ما كان لعين غير مدرّبة أن ترى الخطر، ولكن كطبيب متخرّج حديثًا من كليّة الطبّ، سمعت أجراس الإنذار تُقرَع في رأسي. أمسكتُ نفسي عن الركض كي لا أُفزِع الأم، ومشيت إلى العربة مسرعًا قدر الإمكان ورفعت الطفل الذي كان نائمًا على ظهره. قلبته ووضعته على بطنه. بقي الطفل نائمًا.

التفتت الأم نحوي وبيدها رغيف، مستعدّةً للهجوم. شرحت لها بسرعة أني طبيب وأخبرتها بما يُعرَف بمتلازمة موت الرضيع الفجائي والنصيحة الجديدة في الصحة العامة للآباء: لا تضعوا الأطفال على ظهورهم وهم نائمون خشية أن يختنقوا من القيء. كان طفلها آمنًا الآن. وكانت الأم فزعة مع شعور بادٍ بالارتياح. برِجلَين مرتجفتَين أكملت تسوّقها. فخورًا بعملي، أكملت ابتياع مشترياتي الخاصة، غير مدرك لخطئي الجسيم.

خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية، اكتشف الأطباء والممرّضات أنّ الجنود الغائبين عن الوعي المحمولين على نقّالات من ساحات القتال غالبًا ما كانوا ينجون من الموت إذا ما وُضِعوا على بطونهم وليس على ظهورهم. عند وضعهم على ظهورهم، كانوا في معظم الأحيان يختنقون بقيئهم. أمّا على بطونهم، فكان بإمكان القيء أن يخرج وتبقى مجاريهم الهوائية مفتوحة. أنقذت هذه الملاحظة ملايين عديدة من الأرواح، ليس فقط من الجنود. ومنذ ذلك الحين أصبح «وضع الإفاقة» ممارسة عالمية فضلى، يتمّ تعليمها في جميع دورات الإسعافات الأوّلية على الأرض (جميع عمّال الإنقاذ المنقذون للأرواح بعد زلزال نيبال 2015 تعلّموا هذه الممارسة).

ولكن يمكن بسهولة لاكتشاف جديد أن يُعمَّم بشكلٍ واسع جدًّا. في ستينيّات القرن الماضي، استحثّ نجاح وضع الإفاقة نصيحة جديدة في الصحة العامة، ضدّ أكثر الممارسات تقليديةً: عند إخلاد الأطفال الرضّع إلى النوم، ينبغي وضعهم على بطونهم. وكأنّ جميع الأشخاص العاجزين النائمين على ظهورهم يحتاجون بالضبط

إلى المساعدة نفسها.

غالبًا ما يكون من الصعب اكتشاف الخرق العقلي لتعميم كهذا. تبدو سلسلة المنطق صحيحة. عندما يُجمَع المنطق المنيع ظاهريًّا مع نوايا طيّبة، يصبح من المستحيل تقريبًا اكتشاف خطأ التعميم. فعلى الرغم ممّا أظهرته البيانات بأنّ الموت الفجائي للأطفال الرضّع قد ازداد بدل أن ينقص، إلّا أنه لم يكن حتى العام 1985 أن اقترحت مجموعة من أطباء الأطفال في هونغ كونغ أنّ الوضع المنبطح قد يكون فعليًّا هو السبب. وحتى حينها، لم يسترعِ الأمر الانتباه اللازم من الأطباء في أوروبا. استغرق الأمر من السُّلطات السويدية سبع سنوات أخرى لتقبُّل خطئها وعكس السياسة. كان الجنود الفاقدون للوعي يموتون على ظهورهم عندما كانوا يتقيّأون. ولكن خلافًا للجنود الفاقدين للوعي، فإنّ الأطفال الرضّع النائمين لديهم ارتكاسات وظيفية كاملة ويستديرون إلى الجانب إذا تقيّأوا وهم على ظهورهم. ولكن عندما يكونون على بطونهم، فإنّ بعض الأطفال قد لا يكونون بعد أقوياء بما يكفي لإدارة رؤوسهم الثقيلة إلى الجانب لإبقاء مجاريهم الهوائية مفتوحة (حتى الآن، لا يزال السبب وراء كون الوضع المنبطح أكثر خطورة غير مفهوم بالكامل).

من الصعب أن نرى كيف كان من الممكن للأم في جناح الخبز أن تدرك أني كنت أعرِّض رضيعها للخطر. كان من الممكن أن تطلب مني دليلًا. كنت سأخبرها عن الجنود الغائبين عن الوعي. كان من الممكن أن تسأل، «ولكن عزيزي الطبيب، هل يصحّ هذا التعميم هنا؟ أليس الاختلاف كبيرًا بين رضيع نائم وجندي فاقد للوعي؟» حتى لو واجهتني بهذا الكلام، أشكّ بقوّة أني كنت سأتمكّن من التمعّن فيه.

بيديّ هاتَين، على مدى عقد من الزمن أو نحو ذلك، قلبت العديد من الأطفال الرضّع النائمين من الظهر إلى البطن لمنع الاختناق وإنقاذ الأرواح. وكذلك فعل العديد من الأطباء الآخرين والآباء في كامل أنحاء أوروبا والولايات المتحدة، إلى أن عُكِست النصيحة أخيرًا، بعد 18 شهرًا من نشر دراسة هونغ كونغ. مات الآلاف من الأطفال الرضّع بسبب تعميم شامل، والبعض منهم فارق الحياة خلال الأشهر التي كان الدليل خلالها متوفِّرًا بالفعل. يمكن للتعميمات الشاملة أن تختبئ بسهولة خلف النوايا الطيّبة.

لا يسعني إلّا الرجاء بأن يكون الرضيع في جناح الخبز قد بقي على قيد الحياة.

ولا يسعني إلّا الرجاء بأن يكون الناس مستعدّين للتعلّم من هذا الخطأ الجسيم في الصحة العامة في الأزمان الحديثة. يجب علينا جميعًا أن نجتهد في عدم التعميم عبر مجموعات لا تصلح المقارنة بينها. يجب علينا جميعًا أن نجتهد في اكتشاف التعميمات الشاملة في منطقتنا. من الصعب جدًّا أن تُكتشَف. ولكن عندما يُقدَّم لنا دليلٌ جديد، يجب أن نكون دومًا مستعدّين لأن نتحقّق من افتراضاتنا السابقة ونعيد تقييمها ونعترف بأننا كنّا مخطئين.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن نميّز متى ما كانت فئةٌ ما تُستخدَم في شرح أو تفسير شيء، وأن نتذكّر أنّ الفئات يمكن أن تكون مضلِّلة. لا يمكننا أن نمنع التعميم ولا يجدر بنا حتى أن نحاول. ما يجب علينا أن نحاول فعله هو أن نتجنّب التعميم الخاطئ.

من أجل التحكّم بغريزة التعميم، تحقّق من فئاتك.

* **ابحث عن الاختلافات ضمن المجموعات**. خصوصًا عندما تكون المجموعات كبيرة، ابحث عن طرق لتقسيمها إلى فئات أصغر وأدقّ. و...

* **ابحث عن التشابهات عبر المجموعات**. إذا وجدت تشابهات صارخة بين مجموعات مختلفة، أنظر في ما إذا كانت فئاتك ملائمة. ولكن أيضًا...

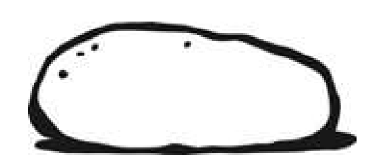
* **ابحث عن الاختلافات عبر المجموعات**. لا تفترض أنّ ما ينطبق على مجموعة ما (مثلًا، أنت وغيرك من الناس الذين يعيشون في المستوى 4 أو الجنود الغائبون عن الوعي) ينطبق على مجموعة أخرى (مثلًا، الناس الذين لا يعيشون في المستوى 4 أو الأطفال الرضّع النائمون).

* **احذر من "الأغلبية"**. الأغلبية تعني فقط أكثر من النصف. اسأل ما إذا كانت تعني 51 بالمائة، أو 99 بالمائة، أو شيئًا بينهما.

* **احذر من الأمثلة الحيّة**. يسهل تذكّر الصور الحيّة ولكنها قد تكون الاستثناء وليس القاعدة.

* **افترض أنّ الناس أذكياء**. عندما يبدو شيئًا غريبًا، كن فضوليًّا ومتواضعًا، وفكِّر. بأي طريقة يُعَدّ هذا حلًّا ذكيًّا؟

الفصل السابع
غريزة القَدَر



عن الصخور التي تتحرّك والشيء الذي لم يتحدّث عنه جدّي أبدًا

الفرصة معدومة

دُعِيت منذ فترة قريبة إلى فندق بالموورال خمس نجوم في إدنبرة كي أقدّم محاضرةً إلى جمعٍ من مديري رؤوس الأموال وعملائهم الأثرى. عندما جهّزت معدّاتي في قاعة الرقص الفخمة ذات السقف العالي، لم أملك نفسي عن الشعور بالصغر قليلًا، وسألت نفسي لماذا تريد مؤسّسة ماليّة ثريّة من عملائها أن يستمعوا إلى بروفيسور سويدي في الصحة العامة. كان قد تمّ إطلاعي قبل ذلك بأسابيع على الهدف من المؤتمر، ولكن من أجل الاطمئنان، طرحت السؤال مرّة ثانية على منظّم المؤتمر أثناء صعودي إلى خشبة المسرح من أجل «بروفة» أخيرة. كان تفسيره واضحًا صريحًا. كان يواجه صعوبة في إفهام عملائه أنّ الاستثمارات ذات الربح الأقصى لم تعد موجودة في العواصم الأوروبية التي تتباهى بقلاع القرون الوسطى والشوارع المرصوفة بالحصى، وإنما في الأسواق الناشئة في آسيا وأفريقيا. قال، «يعجز معظم عملائنا عن رؤية أو قبول التقدّم الحاصل في العديد من البلدان الأفريقية. يضعون في أذهانهم أنّ أفريقيا قارة لن تتحسّن أبدًا. أريد من مخطّطاتك المتحرّكة أن تغيّر نظرتهم الجامدة إلى العالم».

بدا أنّ محاضرتي تمضي على ما يُرام. أوضحت كيف أنّ بلدانًا آسيوية مثل

كوريا الجنوبية، والصين، وفيتنام، وماليزيا، وإندونيسيا، والفلبين، وسنغافورة، التي أدهشت العالم بتقدّمها الاقتصادي على مدى العقود الماضية، قد حقّقت بالفعل تقدُّمًا اجتماعيًّا مطّردًا خلال العقود التي سبقت النموّ الاقتصادي. أوضحت كيف أنّ العملية نفسها كانت الآن تتكشّف في أجزاء من أفريقيا. قلت أنّ أفضل الأماكن للاستثمار حاليًّا هي على الأرجح تلك البلدان الأفريقية التي شهدت لتوّها عقدًا من التحسينات السريعة في التعليم وبقاء الأطفال. ذكرت نيجيريا، وأثيوبيا، وغانا. استمع الجمهور بإنصات، وعيون مفتوحة، وطرحوا بعض الأسئلة الجيدة.

بعد ذلك، بينما كنت أضع حاسوبي النقّال في الحقيبة لأغادر، تقدّم رجلٌ أشيب يرتدي بذلة من ثلاث قطع مخطّطة بمربّعات خفيفة وصعد ببطء إلى المسرح. ابتسم بلطف، وقال، «حسنًا، لقد رأيت أرقامك، وسمعت ما قلت، ولكني أخشى أنّ الفرصة معدومة في نجاح أفريقيا. أعرف هذا لأني خدمت في نيجيريا. إنها ثقافتهم، كما تعرف. لن تسمح لهم بخلق مجتمع حديث. أبدًا. أبــ..دًا». فتحت فمي، ولكن قبل أن أجد جوابًا يستند إلى الحقيقة، كان قد ربّت على كتفي تربيتة صغيرة ورحل من أجل كوب من الشاي.

غريزة القَدَر

غريزة القدر هي الفكرة بأنّ الخصائص المتأصّلة تحدّد أقدار الناس، أو البلدان، أو الثقافات. إنها الفكرة بأنّ الأشياء هي كما هي واقعًا لأسباب حتميّة لا مفرّ منها: لقد كانت دائمًا هكذا ولن تتغيّر أبدًا. تجعلنا هذه الغريزة نصدّق أنّ تعميماتنا الخاطئة من الفصل السادس، أو الفجوات المغرية من الفصل الأوّل، ليست صحيحة فحسب، ولكن حتميّة: لا تتغيّر، وغير قابلة للتغيّر.

من السهل أن نرى كيف ساهمت هذه الغريزة في دعم هدفٍ تطوّري. تاريخيًّا، عاش البشر في بيئات لم تتغيّر كثيرًا. إنّ تعلُّم كيفية عمل الأشياء ومن ثمّ افتراض أنها ستستمرّ في العمل بتلك الطريقة بدلًا من إعادة التقييم باستمرار كان بمثابة استراتيجية بقاء ممتازة.

من السهل أيضًا أن نفهم كيف أنّ ادّعاء مصيرٍ محدَّد لمجموعتك يمكن أن يكون مفيدًا في توحيد تلك المجموعة حول هدفٍ يُفترَض أنه لا يتغيّر أبدًا، وربما في خلق إحساس بالتفوّق على المجموعات الأخرى. لا بدّ أنّ هكذا أفكار كانت هامّة

لبسط نفوذ القبائل، والمشيخات، والأمم، والإمبراطوريّات. ولكنّ هذه الغريزة لرؤية الأشياء غير متغيِّرة، هذه الغريزة لعدم تحديث معرفتنا، تعمي أعيننا اليوم عن التحوّلات التطوّرية في المجتمعات، الحادثة حولنا في كلّ مكان.

ليست المجتمعات والثقافات مثل الصخور، لا تتغيّر وغير قابلة للتغيّر. إنها تتحرّك. المجتمعات والثقافات الغربية تتحرّك، والمجتمعات والثقافات غير الغربية تتحرّك؛ غالبًا بسرعة أكبر بكثير. الأمر فقط أنّ كلّ شيء باستثناء التغيّرات الثقافية الأسرع – مثل انتشار الإنترنت، والهواتف الذكية، ووسائل التواصل الاجتماعي – من شأنه أن يحدث ببطء شديد إلى حدّ ما لأن يكون جديرًا بالملاحظة أو بالإخبار.

أحد التعبيرات الشائعة لغريزة القدر هي فكرة ذلك السيّد في مؤتمر أدنبرة بأنّ أفريقيا ستكون دومًا عاجزة ولن تتمكّن أبدًا من مواكبة أوروبا. وتعبيرٌ آخر هو أنّ «العالم الإسلامي» مختلف جوهريًّا عن «العالم المسيحي». هذه أو تلك القارة أو الثقافة أو الأمّة لن (أو لا يجب) أن تتغيّر أبدًا، بسبب «مفاهيمها» التقليدية وغير المتغيّرة: مرارًا وتكرارًا، إنها الفكرة نفسها في قوالب مختلفة. يبدو للوهلة الأولى أنّ هناك تحليلًا ما وراء هذه الأفكار. وعند الفحص الدقيق، يتبيّن غالبًا أنّ غرائزنا قد خدعتنا. هذه الأفكار السامقة هي في أغلب الأحيان مجرّد مشاعر متقنِّعة بشكل حقائق.

سؤال الحقيقة العاشر

على مستوى العالم، أمضى الرجال البالغ عمرهم 30 سنة ما معدّله 10 سنوات في المدرسة. ما عدد السنوات التي أمضتها النساء من نفس العمر في المدرسة؟

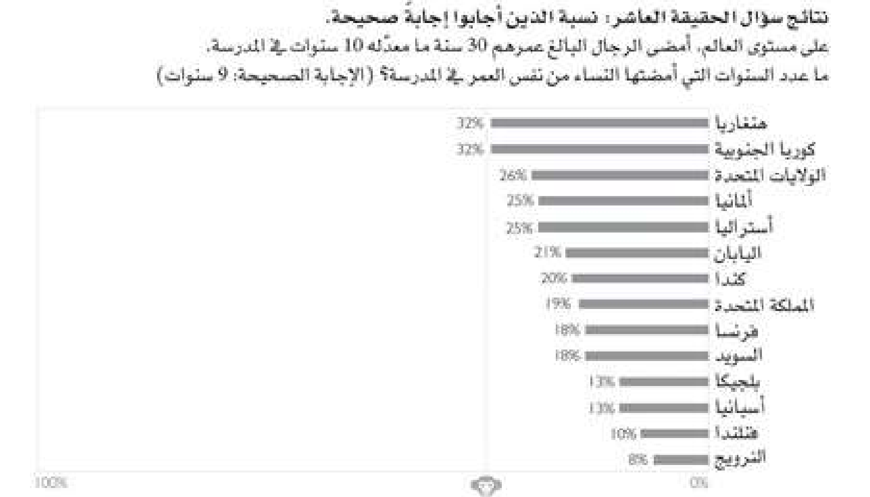
أ: 9 سنوات

ب: 6 سنوات

ج: 3 سنوات

أرجو عند هذه النقطة أن تكون قد اكتشفت أنّ الطريقة الأسلم في هذا الكتاب هي اختيار الإجابة الأكثر إيجابية. أمضت النساء البالغ عمرهنّ ثلاثون سنة ما معدّله تسع سنوات في المدرسة، أقلّ بسنة واحدة فقط من الرجال.

لدى العديد من زملائي الأوروبيين اعتبارٌ متنفِّجٌ للذات يستند إلى وهم مفاده أنّ الثقافة الأوروبية متفوّقة، ليس فقط على الثقافتَين الأفريقية والآسيوية، بل أيضًا على الثقافة الاستهلاكية الأمريكية. ولكن، عندما يتعلّق الأمر بالدراما، أتساءل أيّهم أكثر استهلاكًا. اختار 26 بالمائة من جمهور الولايات المتحدة الإجابة الصحيحة، مقارنةً بـ13 بالمائة في أسبانيا وبلجيكا، و10 بالمائة في فنلندا، و8 بالمائة فقط في النرويج.



السؤال متعلّق بعدم المساواة بين الجنسَين، الذي تتمّ مناقشته حاليًّا في وسائل الإعلام الإسكندنافية على أساس يومي. نحن نرى أمثلة مستمرّة للعنف الوحشي المرتكَب ضدّ النساء، على الأغلب في أماكن أخرى، في بقية العالم، بالإضافة إلى تقارير من أماكن مثل أفغانستان، حيث العديد جدًّا من الفتيات لا يذهبن إلى المدرسة. تؤكّد هذه الصورة على فكرة شائعة في إسكندنافيا بأنّ المساواة بين الجنسَين في الأماكن الأخرى لم تتحسّن؛ أنّ معظم الثقافات الأخرى عالقة.

كيف تتحرّك الصخور

ليست الثقافات، والأمم، والناس صخورًا. إنها في تحوّل مستمرّ.

أفريقيا ليست عاجزة عن المواكبة

فكرةُ أنّ أفريقيا مقدَّرٌ لها أن تبقى فقيرة شائعةٌ جدًّا ولكنها تبدو غالبًا مستندة إلى مجرّد شعور. إذا كنت تحبّ أن تكون خياراتك مستندة إلى حقائق، إليك ما تحتاج إلى معرفته.

نعم، أفريقيا متأخّرة بشكلٍ عام عن بقية القارات. متوسط العمر المتوقّع يوم لمولود حديث في أفريقيا هو 65 سنة. هذا أقلّ بـ17 سنة من ذاك لطفل مولود اليوم في أوروبا الغربية. تأخُّرٌ مربك!

ولكن، قبل كلّ شيء، أنت تعلم كم يمكن للمتوسطات أن تكون مضلّلة، والاختلافات ضمن أفريقيا هائلة. ليست كلّ البلدان الأفريقية متأخّرة عن العالم. هناك خمسة بلدان أفريقية – تونس، والجزائر، والمغرب، وليبيا، ومصر – متوسط العمر المتوقّع فيها أعلى من المتوسط العالمي البالغ 72 سنة. هذه البلدان اليوم هي حيث كانت السويد في العام 1970.

قد يكون أولئك اليائسين من أفريقيا غير مقتنعين بهذا المثال. قد يقولون أنّ كلّ هذه البلدان هي دول عربية على الساحل الشمالي لأفريقيا وبالتالي ليست أفريقيا التي في أذهانهم. عندما كنت صغيرًا، كان يُنظَر إلى هذه الدول كغيرها من الدول الأفريقية المشتركة في مصير واحد. لم يكن فقط إلّا عندما حقّقت تقدُّمًا أن نُظِر إليها بأنها استثنائية. ولكن، لأجل النقاش، دعنا نضع بلدان الشمال الأفريقي هذه جانبًا وننظر إلى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

في الـ60 سنة الأخيرة، انتقلت جميع الدول الأفريقية تقريبًا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى من كونها مستعمرات إلى دول مستقلّة. خلال تلك الفترة، توسّعت هذه البلدان في قطاع التعليم، والكهرباء، والمياه، والبنى التحتيّة الصحية بالسرعة المنتظمة نفسها المحقّقة من قِبَل البلدان الأوروبية حين قامت بمعجزاتها الخاصة. وكلّ بلد من البلدان الخمسين جنوب الصحراء الكبرى خفّض معدّله في وفيّات الأطفال بأسرع ممّا فعلت السويد أبدًا. كيف يمكن أن لا يُعَدّ هذا كتقدُّم لا يُصدَّق؟

ربما لأنه بالرغم من كون الأشياء أفضل بكثير، إلّا أنها لا تزال سيئة. إذا بحثت عن الناس الفقراء في أفريقيا، فسوف تجدهم بالطبع.

ولكن كان هناك فقرٌ مدقعٌ في السويد أيضًا قبل 90 سنة. وعندما كنت صغيرًا، قبل 50 سنة فقط، كانت الصين، والهند، وكوريا الجنوبية متأخّرة كثيرًا عن البلدان

الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى في معظم النواحي، وافتُرِض حينها أنّ قدر آسيا سيكون بالضبط كما هو مُفترَضٌ لقدر أفريقيا الآن: «لن يتمكّنوا أبدًا من إطعام 4 مليارات شخص».

هناك نصف مليار شخص تقريبًا في أفريقيا اليوم عالقون في الفقر المدقع. إذا كان قدرهم أن يبقوا كذلك، فلا بدّ أن يكون هناك شيء فريد بشأن هذه المجموعة بعينها من الناس الفقراء مقارنةً بالمليارات عبر العالم، بما في ذلك أفريقيا، الذين استطاعوا بالفعل الخروج من الفقر المدقع. لا أظنّ ذلك.

أظنّ أنّ آخر من سيخرج من الفقر المدقع هم المزارعون الأفقر العالقون في تُرَب قليلة الإنتاج فعلًا والمحاطون بنزاعات أو قريبون منها. يشكّل هؤلاء اليوم 2 مليون شخص تقريبًا، يعيش أكثر من نصفهم في أفريقيا. لا شكّ أنّ بانتظارهم زمنًا صعبًا بشكلٍ استثنائي؛ ليس بسبب ثقافتهم غير المتغيّرة وغير القابلة للتغيّر، بل بسبب التربة والنزاعات.

ولكن لا يزال لديّ أملٌ حتى لهؤلاء الناس الأفقر والأكثر بؤسًا في العالم، لأنّ هذه هي الصورة بالضبط التي بدا عليها دومًا الفقرُ المدقع اليائس. خلال مجاعاتهم ونزاعاتهم الرهيبة، بدا التقدّم في الصين، وبنغلادش، وفيتنام مستحيلًا. واليوم، أنتجت هذه البلدان على الأرجح معظم الألبسة في خزانة ثيابك. قبل خمس وثلاثين سنة، كانت الهند حيث موزمبيق الآن. من الممكن تمامًا أنه خلال 30 سنة ستحوِّل موزمبيق نفسها، كما فعلت الهند، إلى بلد في المستوى 2 وإلى شريك تجاري معتمَد. تملك موزمبيق ساحلًا طويلًا جميلًا على المحيط الهندي، المركز المستقبلي للتجارة العالمية. ما المانع من ازدهارها؟

لا يمكن لأحد أن يتنبّأ بما سيحدث في المستقبل بشكلٍ موثوق 100 بالمائة. لست مقتنعًا أنه سيحدث. ولكني «إمكانيّ» وهذه الحقائق تقنعني: إنه ممكن.

بسبب غريزة القدر هذه، يصعب علينا أن نتقبّل أنّ أفريقيا تستطيع مواكبة الغرب. يُرَى تقدُّم أفريقيا، إذا تمّت ملاحظته أساسًا، كضربة حظّ بعيدة الاحتمال، استراحة مؤقّتة من قدرها الفقير الممزّق بالحرب.

يبدو أنّ نفس غريزة القدر هذه تجعلنا نأخذ التقدّم الغربي المستمرّ كأمرٍ مسلَّم به، حيث يُصوَّر الركود الاقتصادي الحالي للغرب كحدث مؤقّت سيتعافى منه

قريبًا. بعد الانهيار العالمي في العام 2008، استمرّ صندوق النقد الدولي لسنوات في التنبّؤ بنموّ اقتصادي سنوي نسبته 3 بالمائة للبلدان في المستوى 4. في كلّ سنة، على مدى خمس سنوات، فشلت البلدان ذات المستوى 4 في تحقيق هذا التنبّؤ. في كلّ سنة، على مدى خمس سنوات، قال صندوق النقد الدولي، «في السنة القادمة ستعود ثانية إلى مسارها». أخيرًا، أدرك صندوق النقد الدولي أنه لم يكن هناك مسارٌ «قياسي» لتعود إليه، وخفّض توقّعات النموّ المستقبلي إلى 2 بالمائة. في الوقت نفسه، اعترف صندوق النقد الدولي أنّ النموّ السريع (أعلى من 5 بالمائة) خلال تلك السنوات حدث بدلًا من ذلك في بلدان في المستوى 2، مثل غانا، ونيجيريا، وأثيوبيا، وكينيا في أفريقيا، وبنغلادش في آسيا.

لماذا هذا مهمّ؟ أحد الأسباب هو التالي: النظرة العالمية للمتنبّئين في صندوق النقد الدولي لها تأثير قوي على اختيارك للمكان الذي ستستثمر فيه أموال تقاعدك. تُوُقِّع أنّ تختبر بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية نموًّا سريعًا وموثوقًا، ما جعلها جذّابةً للمستثمرين. عندما تبيّن أنّ هذه التنبّؤات خاطئة، وعندما لم تنمُ هذه البلدان بسرعة، لم تنمُ أموال التقاعد أيضًا. تبيّن أنّ البلدان التي افتُرِض أنها قليلة المخاطر ومرتفعة العائد هي في الواقع عالية المخاطر وقليلة العائد. وفي الوقت نفسه حُرِمت البلدان الأفريقية ذات إمكانية النموّ الكبيرة من الاستثمار فيها.

وسببٌ آخر، في حال كنت تعمل لشركة مقرّها في «الغرب» القديم، هو أنك على الأرجح تفوّت فرصًا في أكبر توسّع في التاريخ لسوق المستهلكين ذوي الدخل المتوسط، الذي يحدث الآن في أفريقيا وآسيا. تُرسِّخ العلامات التجارية المحلّية الأخرى موطئ قدمٍ لها بالفعل، مكتسبةً تعرُّفًا على علامتها التجارية، ومنتشرةً في جميع أنحاء تينك القارّتَين، بينما لا تزال تستيقظ من غفلتك لما يجري حولك. كان السوق الاستهلاكي الغربي مجرّد مثال تشويقي لما سيأتي تاليًا.

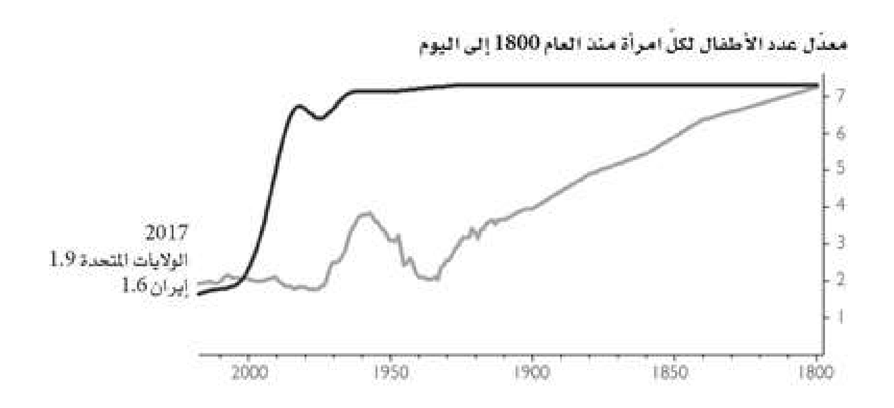
الأطفال الرضّع والديانات

في نهاية محاضرتي الافتتاحية في دورة العام 1998 حول الصحة العالمية، توجّه معظم الطلاب إلى آلة القهوة باستثناء طالبة. رأيتها تجول ببطء نحو صدر الغرفة والدموع في عينيها، ثمّ، عندما فهمت أني لاحظتها، توقّفت وأشاحت بوجهها، ونظرت من النافذة. من الواضح أنها كانت متأثّرة. توقّعت منها أن تخبرني مشكلة شخصية حزينة ستمنعها من المشاركة في الدورة. قبل أن أتمكّن من

التفوّه بأي شيء لتسليتها، التفتت، وسيطرت على انفعالاتها، وقالت بصوت ثابت شيئًا غير متوقَّع أبدًا:

«ائلتي من إيران. ما قلته لتوّك عن التحسّنات السريعة في الصحة والتعليم في إيران كان أوّل شيء إيجابي أسمع أحدًا من السويد يقوله عن الشعب الإيراني».

قالت طالبتي هذا بلغة سويدية متقنة مع لكنة واضحة من ستوكهولم: من الواضح أنها عاشت في السويد طوال حياتها. ذُهِلت. كان كلّ ما فعلته هو أني عرضت باختصار بيانات الأمم المتحدة عن إيران حول الزيادة في متوسط العمر المتوقّع والانخفاض في عدد الأطفال لكلّ امرأة. ذكرت أيضًا أنه كان إنجازًا كبيرًا؛ الواقع أنه أسرع انخفاض مُسجَّل، من أكثر من ستّة أطفال لكلّ امرأة في العام 1984 إلى أقلّ من ثلاثة أطفال لكلّ امرأة بعد 15 سنة فقط.



كان واحدًا من عدّة أمثلة غير معروفة كثيرًا، كنت قد عرضتها حول التغيّرات السريعة في البلدان ذات الدخل المتوسط في تسعينيّات القرن الماضي.

قلت: «لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا».

«إنه كذلك. لقد قلتَ أنّ الانخفاض السريع في عدد الأطفال لكلّ امرأة في إيران هو انعكاس للتحسّنات في الصحة والتعليم، خصوصًا للنساء الإيرانيّات. قلتَ أيضًا بحقّ أنّ معظم الشباب الإيراني اليوم لديه مفاهيمُ حديثة بشأن حجم الأسرة واستعمال موانع الحمل. لم أسمع أبدًا أحدًا في السويد يقول شيئًا حتى قريبًا من

ذلك. حتى السويديون المتمتّعون بدرجة عالية من التعليم غير مدركين نهائيًّا للتغيّرات التي حدثت. التحسّنات. الحداثة. هم يظنّون أنّ إيران في نفس مستوى أفغانستان».

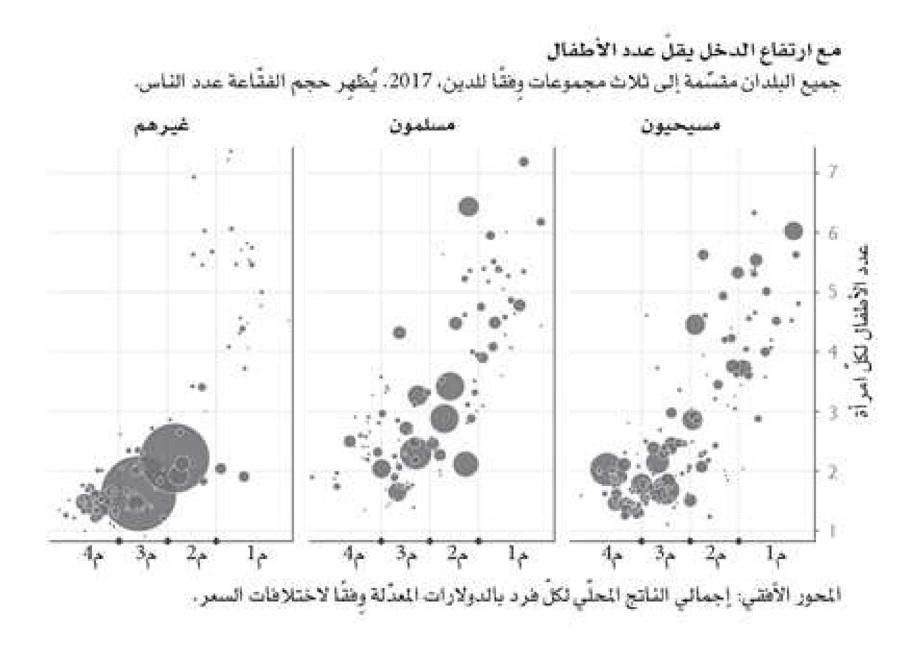
أسرع انخفاض في عدد الأطفال لكلّ إمرأة في تاريخ العالم مرّ دون أدنى ذكرٍ له في وسائل الإعلام الغربية الحرّة. تتميّز إيران – التي كانت في تسعينيّات القرن الماضي مقرًّا لأكبر مصنع للواقي الذكري في العالم، والمتباهية بدورة تعليم جنسي إجبارية سابقة للزواج للعرائس والعرسان على حدّ سواء – بمجتمع عالي التعليم لديه وصولٌ ممتاز إلى نظام رعاية صحية عامة متقدّمة. يستخدم الأزواج موانع الحمل لبناء أُسَر صغيرة ولديهم وصولٌ إلى عيادات العقم إذا تعذّر الحمل. على الأقلّ هكذا كان الوضع عندما زرت هكذا عيادة في طهران في العام 1990، مُستضافًا من قِبَل البروفيسور المتحمّس مالك أفضلي، الذي صمّم معجزة تخطيط الأسرة في إيران.

كم من الناس في الغرب سيخمّنون أنّ النساء في إيران اليوم يقرّرن إنجاب عدد أقلّ من الأطفال مقارنةً بالنساء في الولايات المتحدة أو السويد؟ هل نحبّ نحن الغربيون حرّية التعبير كثيرًا بحيث تجعلنا نعمى عن أي تقدّم في بلد لا نحبّ نظامه؟ من الواضح، على الأقلّ، أنّ وسائل الإعلام الحرّة ليست ضمانًا بأنّ التغيّرات الثقافية الأسرع في العالم سيُؤتَى على ذكرها.

يشتمل كلّ تقليد ديني تقريبًا على قوانين خاصة بالجنس، ولهذا من السهل أن نفهم لماذا يفترض الكثير جدًّا من الناس أنّ النساء في بعض الديانات ينجبن عددًا أكبر من الأطفال. ولكنّ الصلة بين الدين وعدد الأطفال لكلّ امرأة مُبالَغٌ فيها في أغلب الأحيان. ومع ذلك، هناك صلة قوية بين الدخل وعدد الأطفال لكلّ امرأة.

بالعودة إلى العام 1960، لم يبدُ هذا واضحًا جدًّا. في العام 1960، كان هناك 40 بلدًا بلغ فيها معدّل عدد الأطفال لكلّ امرأة أقلّ من 3.5، وكانت جميعها بلدانًا ذات غالبية مسيحية، باستثناء اليابان. بدا أنّ من ينجب أطفالًا أقلّ، يجب أن يكون إمّا مسيحيًّا أو يابانيًّا (القليل من التأمّل عند هذه المرحلة سيقترح بعض المشاكل بخطّ التفكير هذا: في العديد من البلدان ذات الغالبية المسيحية، مثل المكسيك وأثيوبيا، أنجبت النساء أيضًا عددًا كبيرًا من الأطفال).

كيف يبدو الوضع اليوم؟ في الرسوم البيانية الفقّاعية على الصفحة التالية، قسّمتُ العالم إلى ثلاث مجموعات استنادًا إلى الدين: مسيحيون، أو مسلمون، أو غيرهم. ثمّ بيّنت عدد الأطفال لكلّ امرأة والدخل لكلّ مجموعة. كالعادة، يعكس حجم الفقّاعة حجم السكّان. أنظر كيف أنّ الجمهرة السكّانية المسيحية منتشرة في كلّ مستويات الدخل. أنظر كيف أنّ الجمهرة السكّانية في المستوى 1 لديها أطفال أكثر. والآن أنظر إلى الرسمَين الآخرَين. النمط مشابه جدًّا: بغضّ النظر عن الدين، تنجب النساء أطفالًا أكثر إذا كنّ يعشن في فقر مدقع في المستوى 1.



اليوم، تنجب النساء المسلمات ما معدّله 3.1 طفل لكلّ امرأة، والنساء المسيحيّات 2.7 طفل لكلّ امرأة. ليس هناك اختلاف رئيسي بين معدّلات الولادة في أكبر ديانتَين في العالم.

في كلّ بيت تقريبًا، عبر القارات، والثقافات، والأديان – في الولايات المتحدة، وإيران، والمكسيك، وماليزيا، والبرازيل، وإيطاليا، والصين، وإندونيسيا، والهند، وكولومبيا، وبنغلادش، وجنوب أفريقيا، وليبيا، وأي بلد شئت – يهمس الأزواج في آذان بعضهم البعض أحلامهم في بناء أُسَر مستقبلية سعيدة.

الجميع يتحدّث عن الزواج والعائلة

الادّعاءات المبالَغ فيها بأنّ الناس من هذه الدِّين أو ذاك يبنون عائلات كبيرة

هي مثالٌ يوضّح كيف يميل الناس إلى الادّعاء بأنّ بعض المفاهيم أو السلوكات مرتبطة بالثقافة، لا تتغيّر وغير قابلة للتغيّر.

ليس هذا صحيحًا. المفاهيم تتغيّر طوال الوقت.

خذ، كمثال، بلدي الجميل، السويد. في ذاكرتي الحيّة، كانت المفاهيم السويدية بشأن العلاقة الزوجية تحفُّظيّة للغاية. على سبيل المثال، وُلِد جدّي لوالدي، غوستاف، عندما كانت السويد تخرج من المستوى 2، وأعتقد أنه كان رجلًا سويديًّا تقليديًّا في جيله. كان فخورًا للغاية بعائلته الكبيرة المؤلّفة من سبعة أولاد، ولكنه لم يغيّر أبدًا حِفاض طفل، أو يطبخ طعامًا، أو ينظّف المنزل، وكان لا يتكلّم أبدًا بأمور الإنجاب أو موانع الحمل. دعمت ابنته الكبرى الحركة النسوية التي بدأت بصورة غير قانونية تأييدَ استعمال موانع الحمل في ثلاثينيّات القرن الماضي. ولكن عندما أرادت أن تحدِّث والدها بعد ولادة طفله السابع بشأن موانع الحمل، ثار هذا الرجل اللطيف الهادئ غضبًا ورفض التحدّث في الأمر. كانت مفاهيمه تقليدية وسُلطوية. ولكن لم يتمّ تبنّيها من قِبَل الجيل التالي. تغيّرت الثقافة السويدية (بالمناسبة، أبغض جدّي أيضًا الكتب ورفض أن يستعمل الهاتف).

أصادف طوال الوقت أثناء رحلاتي في آسيا هذه المفاهيم لرجال مُسنّين متعصّبين مثل جدّي غوستاف. على سبيل المثال، لا يزال الكثير من الأزواج في كوريا الجنوبية واليابان يتوقّعون من زوجاتهم أن يقمن على رعاية أبوَي الزوج وأن يتحمّلن المسؤولية الكاملة للعناية بأي أطفال. لقد صادفت رجالًا كثيرين فخورين بهذه «المفاهيم الآسيوية»، كما يسمّونها. أجريت محادثات أيضًا مع العديد من النساء، اللواتي ينظرن إلى الأمر من منظور مختلف. أخبرنني بأنهن يجدن هذه الثقافة غير محتملة وبأنّ هذه المفاهيم تجعلهنّ أقلّ رغبةً في الزواج.

أحاول أن أُريح هؤلاء النسوة، أن أقنعهنّ بأنّ الأشياء ستتغيّر. ألقيت محاضرة مؤخّرًا إلى 400 شابّة في في الجامعة الآسيوية للنساء في بنغلادش. أخبرتهنّ كيف ولماذا تتحوّل الثقافات باستمرار، وكيف يؤدّي الخروج من الفقر المدقع ووصول النساء إلى التعليم وموانع الحمل إلى مزيد من الحوار الهادف بين الزوجين وأطفالٍ أقلّ. كانت محاضرة مؤثِّرة جدًّا. علت وجوه الشابّات المرتديات لحجابات ملوّنة ابتسامات عريضة.

وبعد ذلك، أرادت الطالبات الأفغانيّات أن يخبرنني عن بلدهنّ. أخبرنني أنّ هذه التغيّرات كانت تحدث بالفعل في أفغانستان ولكن ببطء. قلن إنه «بالرغم من الحرب، وبالرغم من الفقر، إلّا أنّ العديد منّا، نحن الشابّات، يخطّط لحياة حديثة. نحن أفغانيّات، نحن نساء مسلمات. ونحن نريد رجلًا كما وصفت. رجلًا يستمع إلينا ويخطّط معنا، ثمّ نريد طفلَين يذهبان إلى المدرسة».

المفاهيم الخاطئة الموجودة اليوم في العديد من البلدان الآسيوية والأفريقية، ليست مفاهيم آسيوية، أو مفاهيم أفريقية. ليست مفاهيم إسلامية. وليست مفاهيم شرقية. مع التقدّم الاجتماعي والاقتصادي ستتلاشى. ليست غير قابلة للتغيير.

كيفية السيطرة على غريزة القدر

كيف يمكننا أن نساعد أدمغتنا على رؤية أنّ الصخور تتحرّك: أنّ الطريقة التي تجري بها الأمور الآن لم تكن كذلك دومًا ولن تبقى كذلك دون تغيير؟

التغيُّر البطيء لا يعني عدم وجود تغيير

المجتمعات والثقافات في حركة دائمة. حتى التغيّرات التي تبدو صغيرة وبطيئة تتراكم تدريجيًّا مع الوقت: النموّ بنسبة 1 بالمائة كلّ سنة يبدو بطيئًا، ولكنه يتراكم تدريجيًّا وصولًا إلى المضاعفة في 70 سنة. النموّ بنسبة 2 بالمائة كلّ سنة يعني التضاعف في 35 سنة. النموّ بنسبة 3 بالمائة كلّ سنة يعني التضاعف في 24 سنة.

في القرن الثالث قبل الميلاد، أُنشئت أوّل محميّة طبيعيّة في العالم من قِبَل الملك دِفانامبيا تيسا في سريلانكا عندما أعلن أنّ قطعة من الغابة ستكون تحت الحماية الرسمية. استغرق الأمر أكثر من 2,000 سنة كي يأتي أوروبي، من غرب يوركشاير، بفكرة مماثلة، و50 سنة أخرى قبل أن تُنشَأ حديقة يلوستون الوطنية في الولايات المتحدة. في العام 1900، كان 0.03 بالمائة من سطح الكرة الأرضية محميًّا. في العام 1930، بلغت النسبة 0.2 بالمائة. ببطء، ببطء، عقدًا بعد عقد، غابة واحدة في كلّ مرّة، تصاعد الرقم. كانت الزيادة السنوية صغيرة جدًّا بكلّ تأكيد، غير ملحوظة تقريبًا. واليوم، 15 بالمائة من سطح الأرض محميّ! ولا يزال الرقم في تصاعد.

من أجل التحكّم بغريزة القدر، لا تخلط بين التغيّر البطيء وعدم التغيّر. لا

تصرف النظر عن تغيُّر سنوي – حتى لو كان تغيّرًا سنويًّا نسبته 1 بالمائة فقط – لأنه يبدو صغيرًا جدًّا وبطيئًا.

كن مستعدًّا لتحديث معرفتك

من المريح أن نفكِّر أنّ المعرفة ليس لها تاريخ انتهاء: أنك متى ما تعلّمت شيئًا، فإنه سيبقى كما هو للأبد وليس عليك أن تتعلّمه ثانيةً. في العلوم مثل الرياضيات والفيزياء، وفي الفنون، هذا غالبًا صحيح. في تلك المواد، ما تعلّمناه في المدرسة (2 + 2 = 4) لا يزال على الأرجح قائمًا. ولكن في العلوم الاجتماعية، فحتى المعرفة الأكثر أساسيةً تندثر بسرعة جدًّا. كما هو الحال في الحليب أو الخضار، عليك دائمًا أن تحصل عليها طازجة. لأنّ كلّ شيء يتغيّر.

لقد اصطدمت بهذا حتى في عملي. بعد ثلاث عشرة سنة من طرحي الأسئلة على الناس لأوّل مرّة في العام 1998، خطّطنا أن نعيد طرح نفس الأسئلة لنرى إن كانت معرفة الناس قد تحسّنت. في هذه الأسئلة، عرضتُ خمسة أزواج من البلدان، وسألت أي بلد في كلّ زوج لديه المعدّل الأعلى في وفيّات الأطفال. في العام 1998، أجاب طلّابي السويديون بشكلٍ خاطئ لأنهم لم يستطيعوا أن يتخيّلوا أنّ البلدان الآسيوية كانت أفضل من البلدان الأوروبية.

عندما استرجعنا الأسئلة، بعد 13 سنة فقط، أدركنا أنه من المستحيل إعادة الاختبار لأنّ الإجابات الصحيحة تغيّرت. لأنّ العالم تغيّر. كم كان هذا توضيحيًّا؟ حتى أسئلة الحقائق لمؤسّسة غاب مايندر أصبحت قديمة.

من أجل التحكّم بغريزة القدر، ابقَ منفتِحًا للبيانات الجديدة وكن مستعدًّا للاستمرار في تحديث معرفتك.

تحدّث مع جدّك

إذا كنت تميل إلى الادّعاء بأنّ المفاهيم لا تتغيّر، حاول أن تقارن مفاهيمك الخاصة بتلك لأبوَيك، أو جدَّيك؛ أو أولادك أو أحفادك. حاول أن تطّلع على استطلاعات للرأي العام في بلدك منذ 30 سنة. سترى بكلّ تأكيد تغيُّرًا جذريًّا.

اجمع أمثلة للتغيُّر الثقافي

غالبًا ما يُميل الناس رؤوسهم ويقولون «إنها ثقافتنا» أو «إنها ثقافتهم»، ما

يعطي الانطباع بأنها كانت دومًا على هذا النحو وستبقى دومًا كذلك. ثمّ أنظر حولك وابحث عن أمثلة معاكِسة. إليك المثال التالي:

ينظر بعض الأمريكيين إلى السويد كبلد اشتراكي، ولكن يمكن للقِيَم أن تتغيّر. قامت السويد قبل بضعة عقود بما يمكن أن يكون أكثر قرارات رفع القيود حسمًا في نظام المدارس الرسمية، وتسمح الآن للمدارس التجارية بالكامل أن تتنافس وتحقّق أرباحًا (تجربة رأسمالية جريئة).

ليس لديّ أي رؤية

بدأت هذا الفصل بقصة عن رجلٍ جاهل حسن الهندام لم يمتلك الرؤية الكافية لرؤية ما كان ممكنًا في أفريقيا. أريد أن أختم بشيء مشابه (تنبيه محطِّم لعنصر التشويق: الرجل الجاهل هذه المرّة هو أنا).

في 12 مايو، 2013، كان لي عظيم الامتياز أن أخاطب 500 قائدة من جميع أنحاء القارة في مؤتمر للاتحاد الأفريقي بعنوان «النهضة الأفريقية وجدول الأعمال للعام 2063». يا له من شرف عظيم، يا لها من بهجة. كانت محاضرة حياتي. في فترتي الزمنية المحدّدة بـ30 دقيقة في قاعة الجلسات العامة في المركز الرئيسي الجميل للاتحاد الأفريقي في أديس أبابا، لخّصت عقودًا من الأبحاث حول النساء المزارِعات على نطاق ضيّق وشرحت لصانعات القرار النافذات هؤلاء كيف يمكن للفقر المدقع أن ينتهي في أفريقيا في غضون 20 سنة.

كانت نكوسازانا دلاميني-زوما، رئيسة الاتحاد الأفريقي، تجلس مباشرةً أمامي وبدا أنها تستمع بانتباه. بعد ذلك، قامت وشكرتني وسألتها عن رأيها بأدائي. كان جوابها صدمة.

قالت، «حسنًا، الرسوم البيانية جميلة، وأنت جيد في الكلام، ولكن ليس لديك أي رؤية». كانت نبرة صوتها لطيفة، ما جعلني أُصدَم بكلامها أكثر.

سألتها مستنكِرًا باستياء، «ماذا؟! أنت تعتقدين أني أفتقر إلى الرؤية؟ ولكني قلت أنّ الفقر المدقع في أفريقيا يمكن أن يكون تاريخًا في غضون 20 سنة».

جاء جواب نكوسازانا بصوت منخفض وتكلّمت بدون انفعالات أو إيماءات. «آه، نعم، لقد تحدّثت عن استئصال الفقر المدقع، وهذا بداية، ولكنك توقّفت هناك.

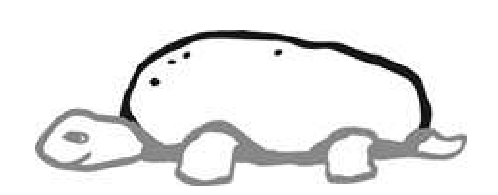
هل تظنّ أنّ الأفريقيين سيستقرّون بالتخلّص من الفقر المدقع وسيكونون سعداء بالعيش في فقر عادي فقط؟» وضعت يدًا ثابتة على ذراعي ونظرت إليّ بدون غضب ولكن بدون ابتسامة أيضًا. رأيت إرادة قوية لجعلي أفهم أخطائي. «كملاحظة ختامية، قلت إنك ترجو أن يأتي أحفادك إلى أفريقيا كسيّاح ويسافروا في القطارات السريعة الجديدة التي نخطّط لبنائها. أي نوع من الرؤى هذا؟ إنها نفس الرؤية الأوروبية القديمة». نظرت نكوسازانا في عينيّ مباشرةً. «إنهم أحفادي الذين سيذهبون لزيارة قارّتك ويسافرون في قطاراتكم السريعة ويزورون ذلك الفندق الجليدي الخلّاب الذي سمعت أنه لديكم في شمال السويد. سيستغرق الأمر زمنًا طويلًا، نحن نعرف ذلك. سيتطلّب الأمر الكثير من القرارات الحكيمة والاستثمارات الكبيرة. ولكنّ رؤيتي للخمسين سنة القادمة هي أنّ الأفريقيين سيكونون سيّاحًا مرحّبًا بهم في أوروبا وليس لاجئين غير مرغوب بهم». ثمّ ابتسمت ابتسامة عريضة دافئة. «ولكنّ الرسوم البيانية كانت جميلة حقًّا. الآن دعنا نذهب ونتناول بعض القهوة».

تأمّلت في خطئي أثناء تناول القهوة. تذكّرت محادثة قبل 33 سنة مع أوّل صديق أفريقي لي، مهندس التعدين الموزمبيقي، نايهِرِوا ماسِلينا. كان قد نظر إليّ بنفس ذلك الوجه. كنت أعمل كطبيب في ناكالا في موزمبيق، وكان نايهِرِوا قد رافقنا في نزهة عائلية إلى الشاطئ. الشاطئ في موزمبيق جميل إلى حدّ لا يُصدَّق وكان بالكاد مُستغَلًّا وقد اعتدنا أن نكون هناك لوحدنا تقريبًا في كلّ نهاية أسبوع. ولهذا عندما رأيت أنّ هناك 15 أو 20 عائلة على الرمال الممتدّة لمسافة ميل قلت، «أوه، للأسف هناك العديد من العائلات على الشاطئ اليوم». أمسك نايهِرِوا بذراعي، تمامًا كما فعلت نكوسازانا بعد ذلك بسنوات، وقال، «هانس. ردّ فعلي هو العكس. أشعر بألم كبير وحزن عندما أرى هذا الشاطئ. أنظر إلى المدينة هناك في البعد. ثمانون ألفًا من الناس يعيشون هناك. إنها نهاية الأسبوع. 40 فقط منهم استطاعوا القدوم إلى الشاطئ. واحد من كلّ ألف. عندما تلقّيت دراستي في التعدين في ألمانيا الشرقية، ذهبت إلى شواطىء روستوك في نهاية الأسبوع، وكانت ممتلئة. الآلاف من الأطفال يقضون أوقاتًا ممتعة. أريد أن تكون ناكالا مثل روستوك. أريد كلّ الأطفال أن يذهبوا إلى الشاطئ أيام الآحاد بدلًا من العمل في حقول والدَيهم أو الجلوس في الأكواخ. سيستغرق هذا وقتًا طويلًا، ولكن هذا ما أريده». ثمّ ترك ذراعي وساعد أطفالي على إخراج عدّة السباحة خاصتهم من

السيارة.

بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة، مُخاطِبًا الاتحاد الأفريقي بعد عمرٍ احترافي من التعاون مع العلماء والمؤسّسات الأفريقية، كنت مقتنعًا تمامًا أني أشاركهم رؤيتهم الكبيرة. ظننت أني واحدٌ من الأوروبيين القلائل الذين استطاعوا أن يروا نوع التغيير الممكن. ولكن بعد إلقاء أعزّ محاضرة في حياتي، أدركت أني لا أزال عالقًا في توجّهي العقلي القديم، الجامد، والاستعماري. بالرغم من كلّ ما علّمني إياه أصدقائي وزملائي الأفريقيون على مدى السنوات، كنت لا أزال لا أتخيّل فعلًا أنّ «هم» يستطيعون أن يلحقوا بنا «نحن». كنت لا أزال أخفق في رؤية أنّ كلّ الناس، والعائلات، والأطفال سيكافحون بجدّ لتحقيق ذلك فقط، كي يستطيعوا هم أيضًا من الذهاب إلى الشاطئ.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... تمييز أنّ العديد من الأشياء (بما في ذلك الناس، والبلدان، والثقافات) تبدو ثابتة فقط لأنّ التغيير يحدث ببطء، وتذكُّر أنه حتى التغيّرات الصغيرة والبطيئة تتراكم تدريجيًّا إلى تغيّرات كبيرة.

من أجل التحكّم بغريزة القدر، **تذكّر أنّ التغيّر البطيء يظلّ تغيّرًا.**

* **تتبّع التحسّنات التدريجية**. يمكن لتغيُّر صغير كلّ سنة أن يُترجَم إلى تغيُّر ضخم على مدى العقود.

* **حدِّث معرفتك**. بعض المعارف ينتهي تاريخها بسرعة. التكنولوجيا، والبلدان، والمجتمعات، والثقافات تتغيّر باستمرار.

* **تحدّث إلى جدّك**. إذا كنت تريد أن تتذكّر كيف تغيّرت المفاهيم، فكِّر بتلك لأجدادك وكيف تختلف عن مفاهيمك.

* **اجمع أمثلة للتغيّر الثقافي**. تحدَّ فكرة أنّ ثقافة اليوم لا بدّ أن تكون هي نفسها ثقافة الأمس، وستكون ثقافة الغد.

الفصل الثامن
غريزة المنظور الفردي



لماذا لا ينبغي أن نحسب الحكومات مسامير
ولماذا تخبرك الأحذية وأحجار البناء أحيانًا أكثر من الأرقام

بمن نستطيع أن نثق؟

إنّ تشكيل نظرتك العالمية بالاعتماد على وسائل الإعلام ستكون مثل تشكيل نظرتك عنّي بالنظر فقط إلى صورة لقدمي. بالتأكيد، قدمي جزءٌ مني، ولكنها جزءٌ بشع. لدي أجزاء أفضل. ذراعاي لا تلفتان النظر ولكنهما جيدتان. وجهي لا بأس به. ليس الأمر أنّ صورة قدمي تكذب عمدًا بشأني. ولكنها لا تريك كلّ شيء عنّي.

من أين إذن يجب أن نحصل على المعلومات إن لم يكن من وسائل الإعلام؟ بمن نستطيع أن نثق؟ ماذا عن الخبراء؟ الناس الذين يكرّسون حياتهم العملية لفهم شريحتهم المختارة من العالم؟ حسنًا، يجب أن تكون حذرًا جدًّا هنا أيضًا.

غريزة المنظور الفردي

نحن نجد الأفكار البسيطة جذّابة جدًّا. نحن نستمتع بلحظة البصيرة تلك، نستمتع بالشعور بأننا فعليًّا نفهم أو نعرف شيئًا. ومن السهل أن نتّبع تصوُّرًا خاطئًا، من فكرة بسيطة آسِرة للانتباه إلى شعور بأنّ هذه الفكرة تشرح بصورة جميلة

الكثير من الأشياء الأخرى، أو أنها الحلّ الجميل لها. يصبح العالم بسيطًا. تنشأ كلّ المشاكل من سبب فردي؛ شيء يجب أن نكون دائمًا ضدّه. أو أنّ كلّ المشاكل لها حلّ فردي؛ شيء يجب أن نكون دومًا مؤيّدين له. كلّ شيء بسيط. هناك فقط مسألة واحدة صغيرة. نحن نخطئ كليًّا في فهم العالم. أنا أسمّي هذا التفضيل للأسباب الفردية والحلول الفردية غريزة المنظور الفردي.

على سبيل المثال، يمكن للفكرة البسيطة والجميلة للسوق الحرّ أن تقود إلى الفكرة المبسّطة بأنّ كلّ المشاكل لها سبب فردي هو التدخّل الحكومي، الذي يجب دومًا أن نعارضه، وأنّ الحلّ لكلّ المشاكل هو تحرير قوى السوق بتخفيض الضرائب وإزالة الأنظمة، الذي يجب دوماً أن ندعمه.

على نحوٍ بديل، يمكن للفكرة البسيطة والجميلة للمساواة أن تقود إلى الفكرة المبسّطة بأنّ كلّ المشاكل سببها عدم المساواة، الذي يجب دومًا أن نعارضه، وأنّ الحلّ لكلّ المشاكل هو إعادة توزيع الموارد، الذي يجب دومًا أن ندعمه.

التفكير بهذه الطريقة يوفِّر علينا الكثير من الوقت. يمكنك أن تحصل على آراء وإجابات دون أن تضطر إلى معرفة المشكلة من جذورها ويمكنك أن تستمرّ في استعمال دماغك لوظائف أخرى. ولكنها ليست طريقة مفيدة جدًّا إذا أردت أن تفهم العالم. كونك مؤيّدًا دومًا لفكرة معيّنة أو معارضًا لها يجعلك تعمى عن معلومات لا تتلاءم مع منظورك. هذه عادةً مقاربةٌ سيئة إذا كنت تحبّ أن تفهم الواقع.

بدلًا من ذلك، اختبِر أفكارك المفضّلة باستمرار لإيجاد نقاط الضعف فيها. كن متواضعًا بشأن مدى خبرتك. كن فضوليًّا بشأن المعلومات الجديدة التي لا تتلاءم مع منظورك، وتلك من حقولٍ أخرى. وبدلًا من أن تتحدّث فقط مع الناس الذين يتّفقون معك، أو تجمع أمثلة تتلاءم مع أفكارك، التقِ أناسًا يتعارضون معك، ولا يوافقونك الرأي، وقدِّم أفكارًا مختلفة كمورد عظيم لفهم العالم. كنت مخطئًا بشأن العالم في مرّات كثيرة جدًّا. في بعض الأحيان، تكون معارضة الواقع مفيدة لي في فهم أخطائي، ولكن في أغلب الأحيان ما يفيدني حقًّا هو محادثة ومحاولة فهم شخص لديه أفكارٌ مختلفة.

إذا كان هذا يعني أنك لا تملك الوقت لتشكيل العديد جدًّا من الآراء، ما المشكلة؟ ألا تفضّل أن يكون لديك آراء قليلة ولكن صحيحة بدلًا من آراء كثيرة ولكن خاطئة؟

لقد وجدت سببَين يجعلان الناس يركّزون غالبًا على منظور فردي عندما يتعلّق الأمر بفهم العالم. السبب الواضح هو الإيديولوجية السياسية، وسأتناوله لاحقًا في هذا الفصل. السبب الآخر هو الاحترافيّون.

الاحترافيّون: الخبراء والناشطون

أنا أحبّ الخبراء المتخصّصين، وكما يجب علينا جميعًا أن نفعل، أعتمد عليهم بشدّة لفهم العالم. على سبيل المثال، عندما أعرف أنّ كلّ خبراء التعداد السكّاني يتّفقون على أنّ عدد السكّان سيتوقّف عن النموّ في مكان ما بين 10 مليارات و12 مليارًا، أثق بتلك البيانات. وعندما أعرف، مثلًا، أنّ المؤرّخين، وعلماء الدراسة الإحصائية للسكّان في العصور القديمة وما قبل التاريخ، وعلماء الآثار قد استنتجوا جميعًا أنه حتى العام 1880، أنجبت النساء ما معدّله خمسة أطفال أو أكثر لكلّ امرأة ولكن لم يعش منهم إلّا اثنان، أثق بتلك البيانات. عندما أعرف أنّ علماء الاقتصاد يختلفون بالرأي بشأن ما يسبّب النموّ الاقتصادي، فهذا مفيد للغاية أيضًا، لأنه يخبرني أني يجب أن أكون حذرًا: ربما ليست هناك بيانات كافية بعد، أو ربما ليس هناك تفسير بسيط.

أنا أحبّ الخبراء، ولكنّ الخبراء لهم مواطن قصور. أوّلًا، الخبراء خبراء فقط ضمن حقلهم الخاص، وهذا شيء واضح جدًّا. يمكن أن يكون من الصعب على الخبراء (ونحن جميعًا خبراء في شيء ما) أن يعترفوا بذلك. نحن نحبّ أن نشعر بأننا مطّلعون ونحبّ أن نشعر بأننا مفيدون. نحبّ أن نشعر بأنّ مهاراتنا الخاصة تجعلنا أفضل عمومًا.

ولكن...

سجّل الناس البارعون في الحساب (مثل الجمهور الخارق الذكاء في الاجتماع المذهل، وهو اجتماع سنوي للناس الذين يحبّون التفكير المنطقي العلمي) نتيجة سيئة في أسئلتنا الحقائقية تمامًا مثل أي أحد آخر.

سجّل الناس ذوو التعليم العالي (مثل قرّاء نيتشر، إحدى أفضل المجلّات

العلمية في العالم) نتيجة سيئة في أسئلتنا الحقائقية تمامًا مثل أي أحد آخر، وحتى أسوأ في أغلب الأحيان.

سجّل الناس ذوو الخبرة الاستثنائية في حقل واحد نتيجة سيئة في أسئلتنا الحقائقية تمامًا مثل أي أحد آخر.

كان لي شرف حضور ملتقى لينداو الـ64 للحائزين على جائزة نوبل، ومخاطبة مجموعة كبيرة من العلماء الشباب الموهوبين والحائزين على جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء والطب. كانوا يمثّلون النخبة المفكِّرة المطّلعة في حقلهم، ومع ذلك، كانت نتيجتهم في السؤال المتعلّق بتلقيح الأطفال أسوأ من أي استطلاع عام: 8 بالمائة منهم أجاب إجابة صحيحة (بعد هذا لم أعد آخذه كأمرٍ مسلّم به أنّ الخبراء اللامعين سيعرفون أي شيء عن الحقول خارج تخصّصاتهم المرتبطة بها بشكلٍ وثيق).

أن يكون المرء ذكيًّا – بارعًا في الأرقام، أو على مستوىً عالٍ من التعليم، أو حتى حائزًا على جائزة نوبل – ليس طريقًا مختصرًا للمعرفة الحقائقية العالمية. الخبراء خبراءٌ فقط ضمن حقلهم.

وفي بعض الأحيان لا يكون «الخبراء» خبراءً حتى في حقولهم الخاصة. يقدّم الكثير من الناشطين أنفسهم كخبراء. لقد ألقيت محاضرات في كلّ أنواع مؤتمرات الناشطين لأني أعتقد أنّ الناشطين المتعلّمين يمكنهم أن يكونوا بكلّ تأكيد حاسمين في تحسين العالم. ألقيت محاضرة مؤخّرًا في مؤتمر حول حقوق المرأة. أنا أدعم قضيّتهنّ بقوّة. سافر مئتان واثنان وتسعون نصيرًا للحركة النسوية من الشبّان والشابّات الشجعان إلى ستوكهولم من جميع أنحاء العالم لتنسيق كفاحهم من أجل تحسين وصول النساء إلى التعليم. ولكن 8 بالمائة منهم فقط عرفوا أنّ النساء البالغ عمرهنّ 30 سنة قد أمضين في المدرسة عددًا من السنوات أقلّ بسنة واحدة من ذاك للرجال في نفس العمر.

أنا لا أقول أبدًا أنّ كلّ شيء على ما يُرام في ما يتعلّق بتعليم الفتيات. في المستوى 1، وخصوصًا في عددٍ قليل من البلدان، لا يزال العديد من الفتيات لا يذهبن إلى المدرسة الابتدائية، وهناك مشاكل ضخمة في وصول الفتيات والنساء إلى التعليم الثانوي والعالي. ولكنّ الواقع هو أنه في المستويات 2، و3، و4 حيث

يعيش 6 مليارات شخص، تذهب البنات إلى المدرسة بقدر ما يفعل الصبيان، أو حتى أكثر. هذا شيء مذهل! إنه شيء يجب على الناشطين في مجال تعليم المرأة أن يعرفوه ويحتفلوا به.

بإمكاني أن أنتقي أمثلة أخرى. ليس هذا عن الناشطين في مجال حقوق المرأة، تحديدًا. جميع الناشطين الذين التقيتهم تقريبًا، يبالغون، سواء عمدًا أو، على الأرجح، جهلًا، في حجم المشكلة التي كرّسوا أنفسهم من أجلها.

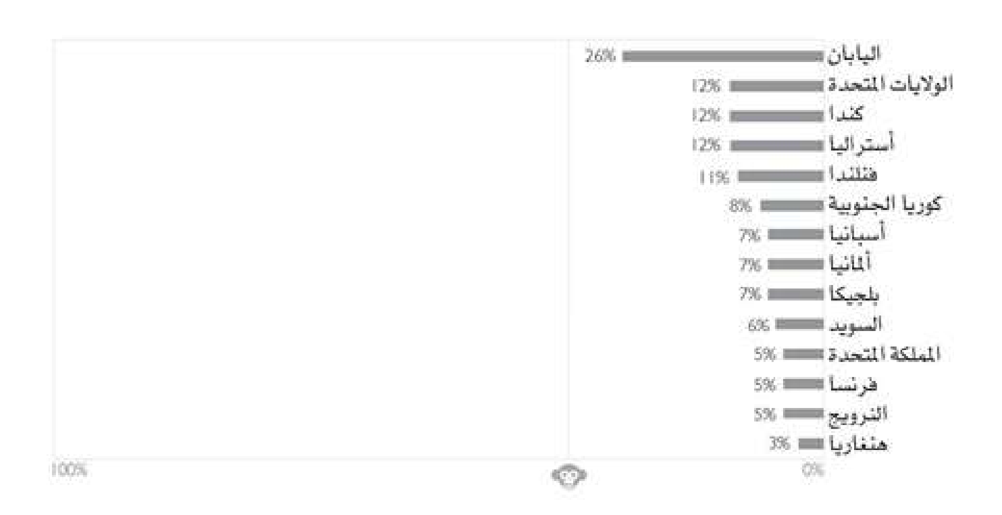
سؤال الحقيقة الحادي عشر

في العام 1996، أُدرِجت النمور، والباندات العملاقة، والخراتيت السوداء في قائمة الحيوانات المهدّدة بالانقراض. كم من هذه الأنواع الثلاثة اليوم مهدّد بشدّة بالانقراض؟

أ: اثنان منها

ب: واحد منها

ج: ولا واحد منها



نهب البشر الموارد الطبيعية في أنحاء الأرض. دُمِّرت المواطن الطبيعية واصطيد العديد من الحيوانات إلى حدّ الانقراض. هذا واضح. ولكنّ الناشطين الذين

يكرّسون أنفسهم لحماية الحيوانات ومواطنها المعرّضة للخطر من شأنهم أن يرتكبوا الخطأ نفسه الذي وصفته لتوّي: في محاولتهم اليائسة لاسترعاء اهتمام الناس، هم ينسون التقدّم الحادث بالفعل.

أي مشكلة جدّية تتطلّب قاعدة بيانات جدّية. أنا أوصي بشدّة بزيارة القائمة الحمراء، حيث يمكنك الوصول إلى وضع كلّ الأنواع المهدّدة بالانقراض في العالم، كما هو محدَّث من قِبَل مجتمع عالمي يضمّ باحثين رفيعي المستوى يتتبّعون التجمّعات البرّية لحيوانات مختلفة ويتعاونون لمراقبة الاتجاه. خمّن ماذا؟ إذا تحقّقت اليوم من القائمة الحمراء أو الصندوق العالمي للحياة البريّة، يمكنني أن أرى أنه بالرغم من الانخفاضات في بعض التجمّعات المحليّة وبعض الأنواع، إلّا أنّ إجمالي التجمّعات البريّة للنمور، والباندات العملاقة، والخراتيت السوداء قد ارتفع خلال السنوات الماضية. لقد استحقّت كلّ ملصقات الباندا تلك على الأبواب في كلّ نواحي ستوكهولم ما دُفِع لها من مال. ومع ذلك، فإنّ 6 بالمائة فقط من عامّة الناس في السويد يعرفون أنّ دعمهم كان له أي تأثير.

لقد حصل تقدّمٌ بالفعل في حقوق الإنسان، وحماية الحيوان، وتعليم النساء، والوعي المناخي، وإغاثات الكوارث، والعديد من المجالات الأخرى حيث يسعى الناشطون إلى إثارة الوعي من خلال قولهم أنّ الأمور تزداد سوءًا. ذلك التقدّم هو غالبًا بفضل هؤلاء الناشطين. ولكن، ربما يمكنهم تحقيق المزيد لو لم يكن عندهم منظور فردي بهذا الشكل؛ لو كان لديهم فهمٌ أفضل للتقدّم المنجَز، واستعدادٌ أكبر لإيصاله لأولئك الذين يلتمسون المشاركة. إنّ سماع دليلٍ عن التقدّم بدلًا من إعادة ذكر المشكلة باستمرار يمكن أن يثير حماسة السامعين. اليونيسف، ومنظّمة أنقذوا الأطفال، والعفو العام، وحركات حقوق الإنسان والبيئة تغفل عن هذه الفرصة مرّة بعد أخرى.

المطارق والمسامير

يرجَّح أنك تعرف القول المأثور، «أعطِ طفلًا مطرقة وكلّ شيء يبدو كمسمار».

عندما تملك خبرة قيّمة، تحبّ أن تراها مُستخدَمة. في بعض الأحيان سيبحث الخبراء عن طرق يمكن بها لمعرفتهم ومهاراتهم أن تُطبَّق خارج نطاق فائدتها

الفعلية. وهكذا، يمكن للناس ذوي المهارات الحسابية أن يركّزوا على الأرقام. ويجادل ناشطو المناخ من أجل الطاقة الشمسية في كلّ مكان. ويشجّع الأطباء المعالجة الطبيّة حيث يمكن للوقاية أن تكون أفضل.

يمكن للمعرفة الكبيرة أن تتعارض مع قدرة الخبير على رؤية ما يصلح فعليًّا. كلّ هذه الحلول رائعة لحلّ بعض المشاكل، ولكن لا شيء منها سيحلّ كلّ المشاكل. من الأفضل أن ننظر إلى العالم بالكثير من الطرق المختلفة.

الأرقام ليست الحلّ الوحيد

أنا لا أحبّ الأرقام. أنا مُعجَب بالبيانات جدًّا، جدًّا، ولكني لا أحبّها. للبيانات حدودها. أحبّ البيانات فقط عندما تساعدني على فهم الواقع خلف الأرقام، يعني، حياة الناس. احتجت إلى البيانات في أبحاثي لاختبار فرضيّاتي، ولكنّ الفرضيّات نفسها تنشأ في أغلب الأحيان من الحديث إلى الناس، والاستماع إليهم، وملاحظتهم. وبالرغم من أننا نحتاج قطعًا إلى الأرقام لفهم العالم، إلّا أننا يجب أن نكون متشكّكين للغاية بشأن الاستنتاجات المستمدّة تمامًا من العمليّات الحسابية.

في العام 2002، قام رئيس وزراء موزمبيق (1994-2004)، باسكول موكامبي، بزيارة إلى ستوكهولم، وأخبرني أنّ بلاده كانت تحقّق تقدّمًا اقتصاديًّا كبيرًا. سألته كيف عرف ذلك؛ لا تنسَ أنّ نوعية الإحصاءات الاقتصادية في موزمبيق لم تكن على الأرجح جيدة جدًّا. هل نظر إلى إجمالي الناتج العامّ لكلّ فرد؟

قال، «أنا أنظر بالفعل إلى هذه الأرقام، ولكنها ليست دقيقة جدًّا. ولهذا فقد اعتدت على مراقبة المسيرات في الأوّل من مايو في كلّ عام. إنها تقليد شعبي في بلدنا. وأنا أنظر إلى أقدام الناس، وأنواع الأحذية التي لديهم. أعرف أنّ الناس يفعلون ما بوسعهم ليظهروا بمظهر جيّد في ذلك اليوم. أعرف أنهم لا يستطيعون أن يستعيروا أحذية أصدقائهم لأنّ أصدقاءهم سيشاركون في المسيرات أيضًا. ولهذا أنا أنظر. وأستطيع أن أرى إن كانوا يمشون حفاة، أو إن كانت أحذيتهم رديئة، أو إن كانت أحذيتهم جيّدة. ويمكنني أن أقارن ما أراه بما رأيته في السنة السابقة.

«أيضًا، عندما أسافر عبر البلد، أنظر إلى أعمال البناء الجارية. إذا كانت الأعشاب تنمو فوق الأساسات الجديدة، فهذا سيء. ولكن إذا استمرّوا في وضع طوب جديد، أعرف أنّ الناس يملكون المال ليستثمروا، وليس فقط للاستهلاك

اليومي».

ينظر رئيس الوزراء الحكيم إلى الأرقام، ولكن ليس فقط إلى الأرقام.

وبالطبع، فإنّ بعضًا من أهمّ أوجه النموّ البشري وأكثرها قيمة لا يمكن أن يُقاس بالأرقام أبدًا. يمكننا أن نقدّر المعاناة من مرضٍ ما باستخدام الأرقام. يمكننا أن نقيس التحسّنات في ظروف الحياة المادية باستخدام الأرقام. ولكنّ الهدف النهائي للنموّ الاقتصادي هو الحرية الفردية والثقافة، وهاتان القيمتان يصعب قياسهما بالأرقام. تبدو فكرة قياس التقدّم البشري بالأرقام غريبة بالكامل للعديد من الناس. غالبًا ما أوافق. لن تحكي الأرقام أبدًا القصة الكاملة لكلّ أوجه الحياة على الأرض.

لا يمكن فهم العالم بدون الأرقام. ولكنّ العالم لا يمكن أن يُفهَم بالأرقام وحدها.

الطبّ ليس الحلّ الوحيد

يمكن لمحترفي الطبّ أن يصبحوا أحاديي التفكير بشأن الطبّ، أو حتى بشأن نوعٍ محدّد من الطبّ.

في خمسينيّات القرن الماضي، اقترح طبيب صحة عامة دانماركي، يُدعَى هالفدان ماهلر، على منظّمة الصحة العالمية طريقة للقضاء على السلّ. أرسل مشروعه حافلات صغيرة محتوية على آلات أشعة إكس لتجول بين القرى في الهند. كانت فكرة بسيطة: اقضِ على مرضٍ واحد، وسيختفي. اقتضت الخطّة أخذ صورة بآلة أشعة إكس لجميع السكّان، وإيجاد أولئك المصابين بالسلّ، ومعالجتهم. ولكنها فشلت لأنّ الناس غضبوا. كانوا جميعًا يعانون من أطنان من المشاكل الصحية الملِحّة، وأخيرًا جاءتهم حافلة بممرّضات وأطباء. ولكن بدلًا من إصلاح عظم مكسور، أو إعطاء سوائل لعلاج الإسهال، أو مساعدة امرأة في حالة وضع، أرادوا أن يصوّروا الجميع بآلات أشعة إكس للكشف عن مرض لم يسمعوا به في حياتهم.

كان فشل هذه المحاولة الهادفة إلى القضاء على مرضٍ واحد مُستحِثًّا لفكرة نيّرة بأنه بدلًا من محاربة هذا المرض أو ذاك المرض، سيكون من الأعقل توفير رعاية صحية أوّلية للجميع والعمل على تحسينها تدريجيًّا.

في قسمٍ آخر من العالم الطبي، تأخذ أرباح شركات صناعة الأدوية بالانخفاض. تركّز معظم هذه الشركات على تطوير دواء جديد، ثوري، مُطيل للحياة. أحاول أن أقنعهم بأنّ الزيادة الكبيرة التالية في متوسط العمر المتوقّع في العالم (وفي أرباحهم) ستأتي على الأرجح ليس من اختراق صيدلاني، بل من اختراق في نموذج إدارة الأعمال. تخفق صناعة الأدوية حاليًّا في الوصول إلى أسواق ضخمة في بلدان في المستويَين 2 و3، حيث مئات الملايين من الناس، مثل مريض السكّري الذي صادفناه في كيرالا، يحتاجون إلى أدوية قد تمّ اكتشافها بالفعل، ولكن بأسعار معقولة أكثر. إذا أحسنت الشركات الصيدلانية تعديل أسعارها وِفقًا للبلدان والزبائن، فبإمكانها أن تصنع ثروتها القادمة بما هو لديها بالفعل.

يمكن للخبراء في وفيّات الأمهات الذين يفهمون المغزى من مَثَل المطرقة والمسمار أن يروا أنّ المداخلة الأعلى قيمة لإنقاذ حياة الأمهات الفقيرات لا تكمن في تدريب المزيد من الممرّضات المحلّيات على إجراء عمليّات قيصرية، أو معالجة النزيف الحادّ أو الالتهابات بشكلٍ أفضل، بل في توفّر وسائل النقل إلى المستشفى المحلّي. ستكون المستشفيات ذات فائدة محدودة إذا لم تتمكّن النساء من الوصول إليها: إذا لم تتوفّر سيارات الإسعاف، أو الطرق التي ستسير عليها سيارات الإسعاف. على نحوٍ مماثل، يعرف التربويّون أنّ توفّر الكهرباء في الصفّ بدلًا من المزيد من الكتب الدراسية أو حتى المدرّسين له غالبًا التأثير الأكبر على عملية التعلُّم، حيث يمكن للطلّاب أن ينجزوا فروضهم بعد غروب الشمس.

الإيديولوجيّون

يمكن لفكرة كبيرة أن توحّد الناس أكثر من أي شيء آخر وأن تسمح لنا أن نبني مجتمع أحلامنا. أعطتنا الإيديولوجية ديمقراطيةً ليبرالية وتأمينًا للصحة العامة.

ولكن يمكن للإيديولوجيين أن يصبحوا مركّزين تمامًا مثل الخبراء والناشطين على فكرتهم الوحيدة أو حلّهم الوحيد، مع نتائج أكثر ضررًا.

إنّ النتائج اللامنطقية للتركيز المتعصِّب على فكرة وحيدة، مثل الأسواق الحرّة أو المساواة، بدلًا من قياس الأداء والقيام بما يصلح هي واضحة لأي شخص ينفق الكثير من الوقت في دراسة وقائع الحياة في كوبا والولايات المتحدة.

كوبا: الأكثر صحةً بين الفقراء

قضيت بعض الوقت في كوبا في العام 1993، مُستقصِيًا أسباب وباء مدمِّر أصاب 40,000 شخص. التقيت عدّة مرّات بالرئيس فيدل كاسترو شخصيًّا. كما التقيت بالعديد من المحترفين البارعين، المتفرّغين، المتمتّعين بمستوىً عالٍ من التعليم في وزارة الصحة، حيث كانوا يبذلون قصارى جهدهم ضمن نظام قمعي وغير عملي. بما أني عشت وعملت في بلد شيوعي (موزمبيق)، فقد ذهبت إلى كوبا بفضول كبير ولكن بدون أي أفكار رومانتيكية من أي نوع، ولم أطوِّر أيًّا منها أثناء وجودي هناك.

بإمكاني أن أخبرك عددًا لا ينتهي من القصص عن الهراء الذي رأيته في كوبا: الفنادق التي لم تخطّط لأي ضيوف ولهذا لم يكن فيها أي طعام، وهي مشكلة حللناها بالقيادة إلى دار للمسنّين وتناول بقايا طعامهم من الحصص الغذائية القياسية للراشدين؛ زميلي الكوبي الذي كان يعرف أنّ أولاده سيطردون من الجامعة إذا أرسل بطاقة تهنئة بعيد الميلاد لابن عمّه في ميامي؛ حقيقة أني اضطررت إلى شرح طُرُقي في البحث لفيدل كاسترو شخصيًّا للحصول على موافقة. سأكبح نفسي وأخبرك فقط لماذا ذهبت إلى هناك وما الذي اكتشفته.

في أواخر العام 1991، في مقاطعة بينار ديل ريو حيث يُزرَع التبغ، كان المزارعون الفقراء قد بدأوا يصابون بعمى الألوان المتبوع بمشاكل عصبية مع فقدان للإحساس في الأذرع والأرجل. تحرّى علماء الأوبئة الكوبيّون الأمر والتمسوا مساعدةً خارجية. مع انهيار الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت، لم تكن المساعدة ممكنة من ذلك الاتجاه، وعند البحث في منشورات الباحثين القلائل في العالم ذوي الخبرة في الأوبئة العصبية بين المزارعين الفقراء، وقع اختيارهم عليّ. استقبلني كونتشيتا هيورغو، وهو عضو في المكتب السياسي الكوبي، في المطار، وفي يومي الأوّل ظهر فيدل نفسه، برفقة حرّاس مسلّحين، للتحقّق مني. كان حذاؤه الأسود الرياضي يُصدِر صريرًا على الأرضية الإسمنتية بينما كان يدور حولي.

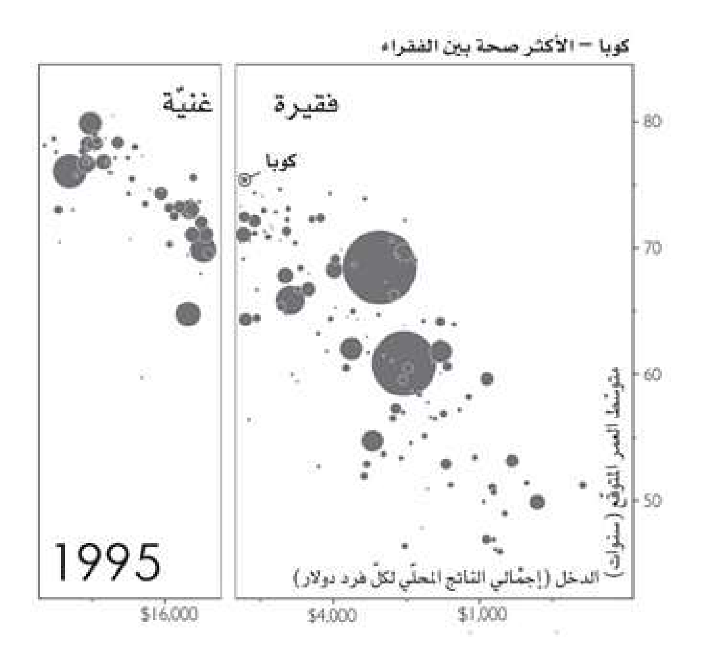
أمضيت ثلاثة شهور مُستقصِيًا الأسباب. استنتجت أنّ المزارعين الفقراء كانوا يعانون ليس من تسمّم جماعي من طعام السوق السوداء (كما أُشيع)، ولا من بعض الجراثيم المسبِّبة لمشاكل أيضيّة، وإنما من نقص غذائي بسيط ناتج عن الاقتصاد الكلّي العالمي. فالزوارق السوفييتيّة التي كانت حتى وقتٍ قريب تصل محمّلةً بالبطاطا وتغادر محمّلةً بالسكّر الكوبي والسيجار لم تأتِ هذه السنة. تمّ تقنين كلّ

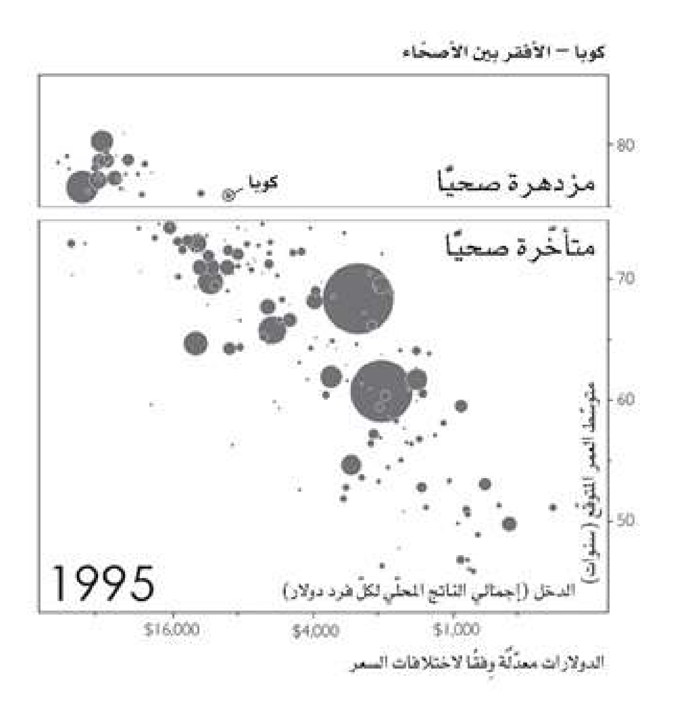
الطعام بشكلٍ صارم. أعطى الناس ما لديهم من الطعام المغذّي القليل إلى الأطفال، والحوامل، والمسنّين، بينما تناول الراشدون الأبطال الأرزّ والسكّر فقط. قدّمتُ كلّ هذا بمنتهى الحذر لأنّ المعنى الضمني الواضح هو أنّ المخطّط الحكومي فشل في توفير ما يكفي من الطعام للشعب. الاقتصاد المخطَّط باء بالفشل. تمّ شُكري وإرسالي إلى وطني.

بعد ذلك بسنة، تمّت دعوتي ثانيةً إلى هافانا من أجل عرضٍ تقديمي إلى وزارة الصحة حول «الصحة في كوبا في منظور عالمي». عند هذه النقطة، كانت الحكومة الكوبيّة قد استعادت قدرتها، بمساعدة الحكومة الفنزويلية، على إطعام الشعب الكوبي.

أريتهم موقع كوبا الخاص في مخطّطي الفقّاعي للصحة والثروة. كان معدّل بقاء الأطفال على قيد الحياة في كوبا مرتفعًا بقدر ذاك للولايات المتحدة، عند رُبع الدخل فقط. قفز وزير الصحة إلى خشبة المسرح مباشرةً بعد انتهائي من العرض ولخّص رسالتي. قال: «نحن الكوبيّون الأكثر صحة بين الفقراء». تلا ذلك وابلٌ من التصفيق وكان هذا ختام الجلسة.

ومع ذلك، لم تكن تلك هي الرسالة التي فهمها الجميع من عرضي التقديمي. عندما تحرّكت باتجاه المرطّبات، أمسك شابٌ بذراعي. سحبني بهدوء خارج الحشد المتدفّق، شارحًا أنه يعمل بالإحصاءات الصحيّة. ثمّ أحنى رأسه قريبًا من رأسي وهمس في أذني بشجاعة، «بياناتك صحيحة ولكنّ استنتاج الوزير خاطئ تمامًا». نظر إليّ كما لو كان امتحانًا قصيرًا، ثمّ أجاب بنفسه على سؤاله. «لسنا الأكثر صحة بين الفقراء. نحن الأفقر بين الأصحّاء».





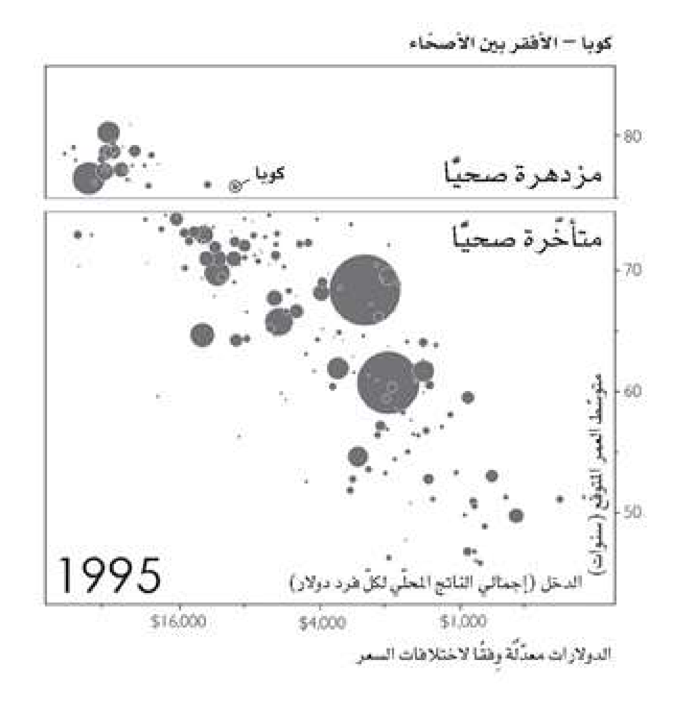
أفلت ذراعي ومشى بسرعة مبتعدًا، وهو يبتسم. بالطبع، كان محقًّا. وصف الوزير الكوبي الأمور من منظور الحكومة الأحادي التفكير، ولكن كانت هناك أيضًا طريقة أخرى للنظر إلى الأمور. ما الداعي إلى السرور بكون الكوبيّين الأكثر صحة بين الفقراء؟ ألا يستحقّ الشعب الكوبي أن يكون غنيًّا، وحرًّا تمامًا بقدر أولئك في الدول الأخرى المزدهرة صحيًّا؟

الولايات المتحدة: الأقلّ صحةً بين الأغنياء

وبهذا نصل إلى الولايات المتحدة. تمامًا كما أنّ كوبا هي الأفقر بين الأصحّاء بسبب التزامها بفكرة وحيدة، فإنّ الولايات المتحدة هي الأقلّ صحة بين الأغنياء.

سيدعوك الإيديولوجيّون إلى المقارنة بين الولايات المتحدة وكوبا. سيصرّون على أن تكون في صفّ أحدهما. إذا كنت تفضّل أن تعيش في الولايات المتحدة وليس في كوبا، سيقولون إنك يجب أن ترفض كلّ شيء تقوم به الحكومة في كوبا، ويجب أن تدعم ما ترفضه حكومة كوبا؛ السوق الحرّ. لأكون واضحًا، سأفضّل بالتأكيد أن أعيش في الولايات المتحدة وليس في كوبا، ولكني لا أجد التفكير على هذا النحو مفيدًا. إنه أحادي الاتجاه ومضلِّل جدًّا. إذا كانت طموحة، يجب على الولايات المتحدة أن تسعى إلى مقارنة نفسها ليس مع كوبا، البلد الشيوعي في المستوى 3، بل مع بعض البلدان الرأسمالية الأخرى في المستوى 4. إذا كان سياسيّو الولايات المتحدة يريدون أن يتّخذوا قرارات مستندة إلى الحقيقة، فلا يجب أن يكونوا مُقادين بالإيديولوجيا وإنما بالأرقام. وإذا كنت سأختار أين سأعيش، فإنّ اختياري لن يستند إلى الإيديولوجيا وإنما إلى ما يقدّمه البلد لشعبه.

تنفق الولايات المتحدة على الرعاية الصحية لكلّ فرد أكثر من ضِعف ما تنفقه الدول الرأسمالية الأخرى في المستوى 4؛ نحو 9,400$ مقارنةً بنحو 3,600$؛ وبهذا المال يمكن لمواطنيها أن يتوقّعوا حياةً أقصر بثلاث سنوات. تنفق الولايات المتحدة على الرعاية الصحية لكلّ فرد أكثر من أي بلد آخر في العالم، ولكنّ متوسط العمر المتوقّع فيها أقلّ من ذاك في 39 بلدًا.



بدلًا من مقارنة أنفسهم بالأنظمة الاشتراكية المتطرّفة، يجب على مواطني الولايات المتحدة أن يسألوا لماذا لا يستطيعون أن يصلوا إلى نفس مستويات الصحة، بنفس التكلفة، كما هو الحال في البلدان الاشتراكية الأخرى التي لديها موارد مماثلة. بالمناسبة، الإجابة ليست صعبة: إنه غياب التأمين الصحّي الأساسي العام الذي هو أمرٌ مسلَّم به عند مواطني معظم البلدان الأخرى في المستوى 4. تحت النظام الحالي للولايات المتحدة، يزور المرضى الأغنياء المؤمَّن عليهم الأطباء أكثر ممّا يحتاجون فعليًّا، رافعين التكاليف، بينما لا يستطيع المرضى الفقراء أن يتحمّلوا حتّى نفقات العلاجات البسيطة وغير المكلفة ويموتون في عمرٍ أبكر. ينفق الأطباء وقتًا، كان من الممكن استغلاله في إنقاذ الأرواح أو علاج الأمراض، للتزويد برعاية صحية غير ضرورية ولا قيمة لها. يا له من هدر مأساوي لوقت الطبيب.

في الواقع، كي أكون دقيقًا بالكامل، يجب أن أقول أنّ هناك عددًا صغيرًا من البلدان الغنية حيث متوسط العمر المتوقّع منخفض بقدر ذاك في الولايات المتحدة، كما هو الحال في بلدان الخليج الغنية: عمان، والمملكة العربية السعودية، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، والكويت. ولكنّ هذه البلدان لها تاريخ مختلف جدًّا. حتى ستينيّات القرن الماضي، عندما بدأت تغنى بالفعل بسبب النفط، كان سكّانها فقراء وغير متعلّمين. خلافًا للولايات المتحدة، فإنّ هذه الدول غير مقيّدة

بشبهة حكومية من أي نوع ولن أتفاجأ إذا حقّق أي منها في غضون سنتَين متوسط عمر متوقّع أعلى من ذاك في الولايات المتحدة. ربما ستكون الولايات المتحدة حينها أقلّ ممانعةً للتعلّم منها ممّا هي للتعلّم من البلدان الأوروبية الغربية.

إنّ النظام الشيوعي في كوبا هو مثالٌ على خطر التعلّق بمنظور فردي: الفكرة المعقولة ظاهرًا ولكن الغريبة فعليًّا بأنّ الحكومة المركزية يمكنها أن تحلّ كلّ مشاكل شعبها. يمكنني أن أفهم لماذا يكون من شأن الناس الذين ينظرون إلى كوبا وأوجه قصورها، وفقرها، وافتقارها إلى الحرية، أن يقرّروا بأنّ الحكومات لا يجب أن يُسمَح لها أبدًا بتخطيط المجتمعات.

يعاني نظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة أيضًا من التوجّه العقلي أحادي المنظور: الفكرة المعقولة ظاهرًا ولكن الغريبة فعليًّا بأنّ السوق يمكنه أن يحلّ كلّ مشاكل الشعب. يمكنني أن أفهم لماذا يكون من شأن الناس الذين ينظرون إلى الولايات المتحدة ونتائج رعايتها الصحية وتفاوتاتها أن يقرّروا بأنّ الأسواق الخاصة والمنافسة لا يجب أن يُسمَح لها أبدًا بالاقتراب من مستوى توفير المنافع العامة والخدمات.

كما هو الحال في معظم المناقشات حول القطاع الخاص مقابل القطاع العام، فإنّ الإجابة ليست «إمّا هذا أو ذاك». إنها «كلّ حالة على انفراد»، و«كلاهما». يكمن التحدّي في إيجاد التوازن الصحيح بين الأنظمة والحرية.

ليست الديمقراطية الحلّ الوحيد

هذا تصريح محفوف بالمخاطر، ولكني سأحاول أن أبرهنه على أي حال. أنا أعتقد بشدّة بأنّ الديمقراطية الليبرالية هي الطريقة الأفضل لإدارة بلد. غالبًا ما يُغرَى الناس الذين لديهم نفس اعتقادي لأن يجادلوا بأنّ الديمقراطية تقود إلى أشياء أخرى جيدة، مثل السلام، والتقدُّم الاجتماعي، والتحسّنات الصحية، والنموّ الاقتصادي، أو أنها حتى شرط أساسي لها. ولكن إليك الفكرة، ومن الصعب قبولها: الدليل لا يدعم هذا الموقف.

معظم البلدان التي تحقّق تقدُّمًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا كبيرًا ليست دولًا ديمقراطية. انتقلت كوريا الجنوبية من المستوى 1 إلى المستوى 3 أسرع ممّا فعل أي بلدٍ آخر (بدون إيجاد النفط)، طوال الوقت كدكتاتورية عسكرية. من بين البلدان

العشرة ذات النموّ الاقتصادي الأسرع في العام 2016، هناك تسعةً منها ذات مرتبة متدنّية في الديمقراطية.

أي شخص يدّعي أنّ الديمقراطية ضرورة للنموّ الاقتصادي والتحسّنات الصحية سيخاطر بمواجهة واقعٍ متضارب مع ادّعائه. من الأفضل مناقشة الديمقراطية كغاية في ذاتها وليس كوسيلة متفوّقة لغايات أخرى نريدها.

ليس هناك قياس وحيد – ليس إجمالي الناتج المحلّي لكلّ فرد، ولا معدّل وفيّات الأطفال (كما في كوبا)، ولا الحريّة الفرديّة (كما في الولايات المتحدة)، ولا حتى الديمقراطية – سيضمن تحسّنه إحراز تقدّم في كلّ البقيّة. ليس هناك مؤشّر وحيد يمكننا من خلاله قياس التقدّم لشعب من الشعوب. الواقع معقّد أكثر من ذلك.

لا يمكن فهم العالم بدون الأرقام، ولا من خلال الأرقام وحدها. لا يمكن لبلد أن يقوم بوظائفه بدون حكومة، ولكنّ الحكومة لا تستطيع أن تحلّ جميع المشاكل. ليس القطاع العام ولا القطاع الخاص هو الحلّ دومًا. لا يمكن لقياس وحيد لأي مجتمع جيّد أن يقود كلّ الأوجه الأخرى لنموّه. ليس الحلّ «إمّا هذا أو ذاك». إنه «كلاهما» وإنه «كلّ حالة على انفراد».

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن تميّز أنّ المنظور الفردي يمكن أن يحدّ من خيالك، وأن تتذكّر أنه من الأفضل أن تنظر إلى المشاكل من زوايا عديدة كي تحصل على فهمٍ أدقّ وتجد حلولًا عمليّة.

من أجل التحكّم بغريزة المنظور الفردي، **احصل على صندوق عدّة، وليس مطرقة**.

* **اختبر أفكارك**. لا تجمع أمثلةً فقط تُظهر مدى امتياز أفكارك المفضّلة. اجعل الناس الذين لا يتّفقون معك بالرأي يختبرون أفكارك وجِد نقاط الضعف فيها.

* **خبرة محدودة**. لا تدَّعِ الخبرة خارج نطاق اختصاصك: كن متواضعًا بشأن ما لا تعرفه. كن مدركًا أيضًا لحدود خبرة الآخرين.

* **مطارق ومسامير**. إذا كنت بارعًا بأداة ما، فربما ترغب باستعمالها في أغلب الأحيان. إذا حلّلت مشكلة تحليلًا عميقًا، يمكن أن ينتهي بك الأمر إلى المبالغة في أهميّة تلك المشكلة أو حلّها. تذكّر أنه ما من أداة واحدة جيدة لكلّ شيء. إذا كانت فكرتك المفضّلة هي مطرقة، فابحث عن زملاء بمفكّات، ومفاتيح، وأشرطة قياس. كن منفتحًا للأفكار من الحقول الأخرى.

* **الأرقام، ولكن ليس الأرقام وحدها**. لا يمكن فهم العالم بدون

الأرقام، ولا يمكن أن يُفهَم بالأرقام وحدها. أحِبّ الأرقام لما تخبرك به عن الحياة الحقيقية للناس.

* **احذر الأفكار البسيطة والحلول البسيطة**. التاريخ حافل بالحالمين الذين استخدموا رؤىً يوطوبية بسيطة لتبرير أفعال رهيبة. رحِّب بالتعقيد. اجمع بين الأفكار. اقبل بحلٍ وسط. حلّ المشاكل على أساس «كلّ حالة على انفراد».

الفصل التاسع
غريزة اللوم



عن الغسّالات السحرية وروبوتات كسب الأموال

دعنا نتفوّق على جدّتنا

كنت أحاضر في معهد كارولينسكا، شارحًا أنّ شركات الأدوية الكبيرة بالكاد تجري أي أبحاث حول الملاريا ولا شيء على الإطلاق حول مرض النوم أو الأمراض الأخرى التي تصيب الفقراء فقط.

قال طالبٌ يجلس في المقدّمة، «دعنا نلكمهم في الوجه». قلت، «آها، الحقيقة أني ذاهبٌ إلى نوفارتيس في الخريف (نوفارتيس هي شركة أدوية عالمية مقرّها في سويسرا، وقد دُعِيت لإلقاء محاضرة هناك). إذا شرحت لي ما الذي سأحقّقه ومن الذي سألكمه، يمكنني أن أحاول. من الذي يجب أن ألكمه في الوجه؟ هل هو فقط أي أحد يعمل هناك؟»

أجاب ذلك الشخص، «لا، لا، لا، لا. إنه المدير».

«آها. حسنًا. إنه دانييل فاسيلا». كان هذا اسم المدير في ذلك الوقت. «حسنًا، أنا أعرف بالفعل دانييل فاسيلا قليلًا. عندما أراه في الخريف، هل يجب أن ألكمه في الوجه؟ هل سيكون كلّ شيء على ما يُرام حينها؟ هل سيصبح مديرًا جيدًا

ويدرك أنه يجب أن يغيّر أولويّات البحوث في الشركة؟»

أجاب طالبٌ يجلس في الخلف، «لا، عليك أن تلكم أعضاء مجلس الإدارة في الوجه».

«حسنًا، الواقع أنّ هذا مثيرٌ للاهتمام لأني سأتكلّم على الأرجح أمام المجلس بعد الظهر. وهكذا سأبقى هادئًا في الصباح عندما أرى دانييل، ولكن عندما أدخل إلى قاعة اجتماع مجلس الإدارة سأجول بين الأعضاء وألكم منهم قدر ما أستطيع. لن يكون لدي الوقت بالطبع لأطرح الجميع أرضًا... لست خبيرًا في القتال وهناك حرّاس أمن، ولهذا سيتمّ إيقافي على الأرجح بعد أن أطرح ثلاثة أو أربعة منهم. ولكن، هل هذا ما ينبغي عليّ فعله؟ هل تظنّ أنّ هذا سيجعل مجلس الإدارة يغيّر سياسته في الأبحاث؟»

قال طالبٌ ثالث، «لا. نوفارتيس شركة عامة. القرار ليس بيد المدير أو مجلس الإدارة. القرار بيد المساهمين. إذا غيّر مجلس الإدارة أولويّاته، سيعمد المساهمون فقط إلى انتخاب مجلس إدارة جديد».

قلت، «هذا صحيح. المساهمون هم الذين يريدون من هذه الشركة أن تنفق أموالهم على البحث في أمراض الأغنياء. هكذا يحصلون على عائد جيّد من أسهمهم».

لا تتعلّق المشكلة إذن بالموظّفين، سواء المدير، أو أعضاء مجلس الإدارة.

نظرت إلى الطالب الذي اقترح بدايةً اللكم في الوجه، وقلت، «والآن، السؤال هو: من يملك الأسهم في شركات الأدوية الكبيرة تلك؟»

هزّ كتفيه استهجانًا وقال، «حسنًا، إنهم الأغنياء».

«لا. الأمر واقعًا مثيرٌ للاهتمام لأنّ الأسهم الدوائية مستقرّة جدًّا. عندما يحدث تذبذب في سوق الأوراق المالية، أو في أسعار النفط، تستمرّ الأسهم الدوائية في إعطاء عائد ثابت إلى حدّ كبير. يتبع العديد من الأنواع الأخرى لأسهم الشركات الاقتصاد – يكون أفضل أو أسوأ حالًا عندما ينفق الناس بكثرة أو يخفضون الإنفاق – ولكنّ مرضى السرطان بحاجة دومًا إلى علاج. إذن من يملك الأسهم في هذه الشركات المستقرّة؟»

نظر إليّ جمهوري الشابّ، ووجوههم مثل علامة استفهام كبيرة.

«إنها صناديق التقاعد».

صمت.

«إذن لستُ بحاجة ربما للقيام بأي لكم، لأني لن ألتقي المساهمين. إذا شعرتم أنكم تحتاجون أحدًا لإلقاء اللوم عليه ومعاقبته، فهم كبار السنّ المتقاعدون وحاجتهم الجشعة إلى أوراق مالية مستقرّة.

«وهل تذكرون الصيف الماضي، عندما ذهبتم في سفر حاملين حقائبكم على ظهوركم وأعطتكم جدّتكم مبلغًا إضافيًّا من المال؟ حسنًا. ربما يجب أن تردّوا ذلك لها، كي تعطيه ثانيةً إلى نوفارتيس وتطلب منهم أن يستثمروه في صحة الفقراء. أو ربما تكونون قد أنفقتموه بالفعل، وعليكم أن تلكموا أنفسكم في الوجه».

غريزة اللوم

غريزة اللوم هي غريزة إيجاد سبب واضح وبسيط وراء حدوث أمرٍ سيّء. اختبرت هذه الغريزة مؤخّرًا عندما كنت آخذ «دُشًّا» في فندق وأدرت مقبض المياه الساخنة إلى الحدّ الأقصى. لم يحدث شيء. ثمّ، بعد ثوان، كنتُ أُحرَق بمياه شديدة السخونة. في تلك اللحظات، سخطت على السمكري، ثمّ على مدير الفندق، ومن ثمّ على الشخص الذي يُحتمَل أنه كان يستخدم المياه الباردة في الغرفة المجاورة. ولكن لم يكن أحدٌ مُستحِقًّا للّوم. لم يسبِّب لي أحدٌ مُتعمِّدًا أي أذى ولم يكن مُهمِلًا، باستثنائي ربما، عندما لم أمتلك الصبر الكافي لإدارة مقبض المياه الساخنة بشكلٍ تدريجي أكثر.

يبدو أننا مجبولون على أن نقرِّر أنه عندما تجري الأمور بشكلٍ خاطئ، فإنّ هذا حتمًا بسبب شخصٍ سيّء ذي نوايا سيّئة. تجعلنا غريزة اللوم نبالغ في أهمية أفراد أو مجموعات محدّدة. هذه الغريزة لإيجاد الطرف المذنب تحرف قدرتنا عن مسارها الصحيح في تطوير فهمٍ صحيح للعالم مُستند إلى الحقيقة: إنها تسرق تركيزنا عندما تنتابنا الهواجس بشأن الشخص الذي نريد لومه، ثمّ تعيق تعلّمنا لأننا ما إن نكون قد قرّرنا من سنلكمه في الوجه، نكون قد توقّفنا عن البحث عن

تفسيرات في مكانٍ آخر. يُضعِف هذا قدرتنا على حلّ المشكلة، أو يمنعها من الحدوث ثانيةً، لأننا عالقون في توجيه أصابع الاتّهام بشكلٍ مفرط في التبسيط، ما يلهينا عن الحقيقة الأكثر تعقيدًا ويمنعنا من تركيز طاقتنا في الأماكن المناسبة.

على سبيل المثال، فإنّ إلقاء اللوم في حادث تحطّم طائرة على طيّار نَعِس لن يفيد في منع حوادث تحطّم مستقبليّة. للقيام بذلك، يجب أن نسأل: لماذا كان نعِسًا؟ كيف يمكننا أن ننظّم للحيلولة دون وجود طيّارين نِعاس في المستقبل؟ إذا توقّفنا عن التفكير عندما نجد الطيّار النَّعِس، لن نحقّق أي تقدّم. كي نفهم معظم مشاكل العالم الهامّة، علينا أن ننظر ما وراء الفرد المذنب إلى النظام.

تُستحَثّ الغريزة نفسها عندما تمضي الأمور على ما يُرام. نسارع إلى «الادّعاء» بنفس السهولة التي نسارع بها إلى «اللوم». عندما يمضي أمرٌ بشكلٍ جيّد، نكون سريعين جدًّا في عزو الفضل إلى فرد أو سبب بسيط، في حين أنه عادةً يكون أكثر تعقيدًا.

إذا كنت تريد حقًّا تغيير العالم، عليك أن تفهمه. إنّ اتّباع غريزة اللوم لن يفيد.

ممارسة لعبة اللوم

غالبًا ما تكشف لعبة اللوم تفضيلاتنا. من شأننا أن نبحث عن الأشخاص السيّئين الذين يؤكّدون معتقداتنا الراهنة. دعنا ننظر إلى بعض الناس الذين أكثر ما نحبّ أن نوجّه أصابع الاتّهام لهم: رجال الأعمال الأشرار، والصحفيين الكاذبين، والأجانب.

إدارة الأعمال

أحاول دومًا أن أكون تحليليًّا، ولكن بالرغم من ذلك، غالبًا ما أكون مبطّنًا بغرائزي. في هذه المرّة تحديدًا، ربما كنت أقرأ الكثير جدًّا من الرسوم المتحرّكة من بطولة العم دهب، العمّ الغني الجشع لبطوط. ربما كنت في ذلك الحين كسولًا في تفكيري بشأن الأدوية التجارية بقدر ما كان طلّابي بعد ذلك بسنوات عديدة. على كلّ حال، عندما طلبت مني اليونيسيف أن أستقصي مناقصة لعقد يتمّ بموجبه تزويد أنغولا بحبوب المالاريا، راودتني الشكوك. بدت الأرقام غريبة وكلّ ما استطعت التفكير به هو أنني كنت سأكشف عملية احتيال. هناك عملٌ غير نزيه يحاول أن يسرق اليونيسيف وسوف أكتشف الطريقة.

تدير اليونيسيف مناقصات تنافسية للشركات الدوائية لتزويدها بالأدوية على مدى فترة تمتدّ عشر سنوات. يجتذب طول العقود وحجمها الكثيرين ويكون من شأن المناقصين أن يقدّموا أسعارًا جيدة جدًّا. ولكن، في هذه المناسبة تحديدًا، قدّمت شركة تجارية عائلية صغيرة تُدعى ريفوفارم، قائمة في لوغانو في جبال الألب السويسرية، مناقصة منخفضة بشكلٍ لا يُصدَّق: في الواقع، كان السعر الذي أرادته الشركة لكلّ حبة أقلّ من تكلفة المواد الخامّ.

كانت وظيفتي أن أذهب إلى هناك وأكتشف ما كان يجري. سافرت بالطائرة إلى زيورخ، ثمّ ركبت طائرة صغيرة إلى المطار الصغير في لوغانو. كنت أتوقّع أن يستقبلني ممثِّل للشركة بسيارة مهترئة رديئة النوع ولكني أُخِذت سريعًا بسيارة ليموزين وأُنزِلت في أفخم فندق رأيته في حياتي. اتّصلت بآغنتا في منزلنا بالسويد وهمست لها، «بطانيّات من الحرير».

في صباح اليوم التالي أُخِذت بالسيارة إلى المصنع لمعاينته. صافحت المدير ثمّ بدأت على الفور بأسئلتي: «أنت تشتري المادة الخامّ من بودابست، وتحوّلها إلى حبوب، وتضع الحبوب في عبوات، وتضع العبوات في صناديق، وتضع الصناديق في حاوية شحن، وترسل الحاوية إلى جنوا. كيف يمكنك أن تقوم بكلّ ذلك بسعرٍ أقلّ من تكلفة المواد الخامّ؟ هل تحصل على سعر خاص من الهنغاريين؟»

قال، «نحن ندفع السعر نفسه إلى الهنغاريين مثل أي أحدٍ آخر».

«وقد أخذتني من المطار بسيارة ليموزين؟ كيف تكسب مالك؟»

ابتسم. «الأمر على هذا النحو. قبل بضع سنوات رأينا أنّ علم الروبوتات سيغيّر هذه الصناعة. بنينا هذا المصنع الصغير، مع أسرع آلة في العالم لصنع الحبوب، وهي من اختراعنا. كلّ عمليّاتنا الأخرى مؤتمتة أيضًا إلى حدّ كبير. تبدو مصانع الشركات الكبرى مثل وُرَش الحرفيين إذا ما قورنَت بمصنعنا. وهكذا، نطلب المؤن من بودابست. في يوم الإثنين الساعة السادسة صباحًا، يصل العنصر الفعّال كلوروكين إلى هنا بالقطار. وبعد ظهر يوم الأربعاء، يتمّ توضيب مؤونة سنة من حبوب المالاريا في صناديق إلى أنغولا جاهزةً للشحن. وفي صباح الخميس تكون في مطار جنوا. يعاين المشتري الخاص باليونيسيف الحبوب ويوقّع على أنه استلمها، ويتمّ دفع المال في ذلك اليوم في حسابنا في مصرف زيوريخ».

«ولكن مهلًا، أنت تبيعها بسعرٍ أقل ممّا اشتريتها».

«هذا صحيح. يمنحنا الهنغاريون فترة ائتمان 30 يومًا وتدفع لنا اليونيسيف بعد أربعة أيام فقط من تلك الأيام. يعطينا هذا 26 يومًا لاكتساب الفائدة بينما المال موجود في حسابنا».

يا سلام. عجزت عن إيجاد الكلمات. لم أفكّر حتى في هذا الخيار.

حُجِب عقلي بفكرة أنّ اليونيسيف كانت الطرف الخيّر وشركة الأدوية الطرف الشرير صاحب المكيدة. كنت جاهلًا تمامًا بشأن القوة المبدعة للأعمال التجارية الصغيرة. تبيّن أنهم أشخاص خيّرون أيضًا، مع قدرة مذهلة لإيجاد حلول أرخص.

الصحفيّون

إنها لعادة عصرية لدى المفكّرين والسياسيين أن يوجّهوا إصابع الاتّهام إلى وسائل الإعلام ويلوموها لعدم نقلها الحقيقة. ربما بدا أيضًا أني شخصيًّا كنت أفعل هذا في الفصول السابقة.

بدلًا من توجيه أصابع الاتّهام إلى الصحفيين، يجب أن نسأل: لماذا تقدّم وسائل الإعلام مثل هذه الصورة المشوّهة للعالم؟ هل يقصد الصحفيّون حقًّا أن يعطونا صورة مشوّهة؟ أو قد يكون هناك تفسير آخر؟

(أنا لا أدخل في مناظرة حول الأخبار الزائفة المفبركة عمدًا. وبالمناسبة، أنا لا أصدّق أنّ الأخبار الزائفة هي الجاني الرئيسي في نظرتنا المشوّهة للعالم: لم نبدأ لتوّنا في فهم العالم بشكلٍ خاطئ، أظنّ أننا دأبنا على فهم العالم بشكلٍ خاطئ).

في العام 2013، نشرنا نتائج من مشروع الجهل لمؤسّسة غاب مايندر على الإنترنت. أصبحت النتائج بسرعة حدثًا هامًّا على قناتَي BBC وCNN. نشرت القناتان أسئلتنا على موقعيهما على الإنترنت كي يتمكّن الناس من اختبار أنفسهم وحصلتا على آلاف التعليقات في محاولة لتحليل السبب وراء إحراز الناس لنتائج أسوأ من النتيجة العشوائية.

جذب أحد التعليقات انتباهنا: «أراهن على أن لا أحد من العاملين في وسائل الإعلام نجح في الاختبار».

تحمّسنا لهذه الفكرة وقرّرنا أن نحاول تجربتها، ولكنّ شركات الاستطلاع أخبرتنا أنه من المستحيل الوصول إلى مجموعات الصحفيين. رفض أرباب عملهم السماح باختبارهم. بالطبع، تفهّمت. لا أحد يحبّ أن يُشكَّك في إدارته، وسيكون من المحرج جدًّا لمنفذٍ إخباري جدّي أن يظهر بأنه يوظّف صحفيين لا يعرفون أكثر من قرود الشمبانزي.

عندما يخبرني الناس أنّ شيئًا مستحيل، يجعلني هذا أتحمّس جدًّا للمحاولة. كان في جدول أعمالي لتلك السنة مؤتمران لوسائل الإعلام، وهكذا أخذت أدوات الاستطلاع معي. لا شكّ أنّ محاضرة مدّتها 20 دقيقة ستكون قصيرة جدًّا لكلّ أسئلتي، ولكني أستطيع أن أطرح بعضها. إليك النتائج. أُشمِل في الجدول أيضًا نتائج مؤتمر لمنتجي الأفلام الوثائقية الرائدة؛ أناس من الـBBC، وPBS، وناشيونال جيوغرافيك، وقناة ديسكفري، وغيرها.

الصحفيّون ومنتجو الأفلام لا يتفوّقون على قرود الشمبانزي

	أطفال المستقبل	التلقيح	تعليم النساء
المملكة المتحدة	8%	15%	19%
الولايات المتحدة	10%	17%	26%
الصحفيّون الأوروبيّون	13%	6%	14%
صحفيّو الولايات المتحدة	33%	20%	4%
منتجو الأفلام الواقعيّون	21%	17%	11%

0% 100%

يبدو أنّ هؤلاء الصحفيين ومنتجي الأفلام لا يعرفون أكثر من عامة الناس، يعني، أقلّ من قرود الشمبانزي.

إذا كان هذا هو وضع الصحفيين والوثائقيين عمومًا – وليس لدي سبب يدعوني لأعتقد أنّ مستويات المعرفة ستكون أعلى بين مجموعات المراسلين الأخرى، أو أنّ نتيجتهم كانت ستكون أفضل في أسئلة أخرى – فهم غير مذنبين. الصحفيّون والوثائقيّون لا يكذبون – يعني، هم لا يضلّلوننا عمدًا – عندما ينتجون تقارير دراماتيكية لعالم منقسم، أو لـ «طبيعة تنتقم»، أو لأزمة سكّانية، تُناقَش بنبرة صوت جدّية مع موسيقى بيانو حزينة في الخلفية. ليست لديهم بالضرورة نوايا سيئة، ومن غير المجدي توجيه اللوم لهم، لأنّ معظم الصحفيين ومنتجي الأفلام الذين يخبروننا عن العالم هم أنفسهم مضلَّلون. لا تصوِّر الصحفيين كأشرار: لديهم

نفس المفاهيم الخاطئة الكبيرة كأي أحد آخر.

قد تكون صحافتنا حرّة، واحترافية، وباحثة عن الحقيقة، ولكنّ الصحافة الاستقلالية ليست هي نفسها الصحافة التمثيلية: حتى لو كان كلّ تقرير صحيح بالكامل، فلا يزال من الممكن أن نحصل على صورة مضلِّلة من خلال مجموع القصص الحقيقية التي يختار المراسلون أن ينقلوها لنا. وسائل الإعلام ليست محايدة، ولا يمكنها أن تكون كذلك، ولا ينبغي أن نتوقع منها ذلك.

نتائج استطلاع الصحفيين كارثيّة حقًّا. ولكن كما في مثال تحطّم الطائرة، فإنّ لوم الصحفيين لن يكون مفيدًا إلّا بقدر فائدة لوم طيّار نَعِس. بدلًا من ذلك، يجب أن نسعى لفهم السبب وراء امتلاك الصحفيين لنظرة عالمية مشوّهة (الجواب: لأنهم بشر، بغرائز دراماتيكية) ومعرفة العوامل الوظيفية التي تشجّعهم على إنتاج أخبار مُحرّفة ودراماتيكية بإفراط (على الأقلّ جزء من الإجابة: يجب أن يتنافسوا لجذب انتباه المستهلكين كي لا يخسروا وظائفهم).

عندما نفهم هذا، سندرك أنه من غير الواقعي أبدًا ومن غير الإنصاف أن نطالب وسائل الإعلام بأن تتغيّر بهذه الطريقة أو بتلك كي تستطيع أن تزوّدنا بصورة تعكس الواقع بشكلٍ أفضل. إنّ إعطاء صورة منعكسة للواقع ليس شيئًا يمكننا أن نتوقّعه من وسائل الإعلام. لا ينبغي أن تتوقّع من وسائل الإعلام أن تزوّدك بنظرة عالمية مستندة إلى الحقيقة، تمامًا كما لا ينبغي أن تفكّر أنه من المعقول أن تستخدم مجموعة الصور الفوتوغرافية الملتقَطة في العطلات في برلين كبديل عن نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) لمساعدتك على التجوال في أنحاء المدينة.

اللاجئون

في العام 2015، غرق 4,000 لاجئ في البحر الأبيض المتوسط بينما كانوا يحاولون الوصول إلى أوروبا في قوارب قابلة للنفخ. استثارت صور جثث الأطفال التي ألقاها الموج على الشواطئ المقصودة من قِبَل الناس في العطلات الرعبَ والشفقة. يا لها من مأساة. في حياتنا المريحة في المستوى 4 في أوروبا وأماكن أخرى، بدأنا نفكّر: كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ على من يقع اللوم؟

سرعان ما وجدنا الجواب. تبيّن أنّ الأوغاد كانوا المهرّبين القساة الجشعين الذين احتالوا على العائلات اليائسة لتدفع لهم 1,000 يورو لكلّ شخص يريد مكانًا

في قوارب الموت. توقّفنا عن التفكير وأرحنا أنفسنا بصور قوارب الإنقاذ الأوروبية وهي تنقذ الناس من المياه المائجة.

ولكن لماذا لم يسافر اللاجئون إلى أوروبا في طائرات مريحة أو قوارب عبّارة بدلا من السفر برًّا إلى ليبيا أو تركيا ومن ثمّ المخاطرة بحياتهم في هذه الطوّافات المطّاطية المتزعزعة؟ بالنتيجة، كانت كلّ الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي موقِّعةً على اتّفاقية جنيف، وكان واضحًا أنّ اللاجئين من سوريا التي أنهكتها الحرب سيكونون مخوّلين للمطالبة باللجوء وِفقًا لشروط الاتّفاقية. بدأت أطرح هذا السؤال على الصحفيين، والأصدقاء، والناس المعنيّين في استقبال ملتمسي اللجوء، ولكن حتى أكثرهم حكمة وعطفًا ابتدع أجوبة غريبة جدًّا.

ربما لم يستطيعوا تحمّل نفقات السفر؟ ولكننا عرفنا أنّ اللاجئين كانوا يدفعون 1,000 يورو لحجز مكان على قارب مطّاطي. بحثت في الإنترنت وتحقّقت وكان هناك الكثير من التذاكر من تركيا إلى السويد أو من ليبيا إلى لندن بسعرٍ يقلّ عن 50 يورو.

ربما لم يستطيعوا الوصول إلى المطار؟ غير صحيح. كان العديد منهم بالفعل في تركيا أو لبنان وكان بإمكانهم الذهاب بسهولة إلى المطار. كما أنهم قادرون على شراء تذكرة، والطائرات ليست مكتظّة. ولكن عند وصولهم إلى حاجز دخول المسافرين والتحقّق من أوراقهم، يتمّ إيقافهم من قِبَل موظّفي شركة الطيران ومنعهم من صعود الطائرة. لماذا؟ بسبب توجيه من المجلس الأوروبي من العام 20 يخبر الدول الأعضاء كيفية مكافحة الهجرة غير الشرعية. يقول هذا التوجيه أنّ كلّ شركة طيران أو شركة عبّارات تجلب شخصًا بدون أوراق ثبوتيّة صحيحة إلى أوروبا يجب أن تدفع كلّ تكاليف إعادة ذلك الشخص إلى مسقط رأسه. وبالطبع، يقول التوجيه أيضًا أنه لا ينطبق على اللاجئين الذين يريدون أن يأتوا إلى أوروبا استنادًا إلى حقّهم في اللجوء وِفقًا لاتّفاقية جنيف، بل فقط على المهاجرين غير الشرعيين. ولكنّ هذا الادّعاء فارغ: كيف يمكن لموظّف عند حاجز التحقّق من المسافرين على متن شركة طيران أن يتمكّن في 45 ثانية من معرفة ما إذا كان أحدهم لاجئًا أو ليس لاجئًا وِفقًا لاتّفاقية جنيف؟ هذا شيء سيستغرق من السفارة ثمانية أشهر على الأقلّ للتحقّق منه. الأمر مستحيل. وهكذا، فإنّ التأثير العملي للتوجيه المعقول ظاهرًا هو أنّ شركات الطيران التجارية لن تسمح لأي أحد بالسفر على متنها بدون

تأشيرة. والحصول على تأشيرة شبه مستحيل لأنّ السفارات الأوروبية في تركيا وليبيا لا تملك الموارد لمعالجة الطلبات. ولهذا، فإنّ اللاجئين السوريين، الذين لهم الحقّ في دخول أوروبا وِفقًا لاتّفاقية جنيف، عاجزون عمليًّا عن السفر جوًّا ومضطرون إلى المجيء بحرًا.

لماذا إذن يجب أن يأتوا في هكذا قوارب رديئة؟ الواقع أنّ سياسة الاتحاد الأوروبي هي السبب في ذلك أيضًا، لأنّ سياسة الاتحاد الأوروبي تقضي بمصادرة القوارب لدى وصولها. ولهذا يمكن استخدام القوارب لرحلة واحدة فقط. لا يستطيع المهرّبون تحمّل نفقات إرسال اللاجئين في قوارب آمنة، مثل قوارب الصيد التي جلبت 7,220 يهوديًّا من الدانمارك إلى السويد خلال فترة بضعة أيام في العام 1943، حتى لو أرادوا ذلك.

تدّعي حكوماتنا الأوروبية أنها تحترم اتّفاقية جنيف التي تخوِّل لاجئاً من بلد مزّقته الحرب بشدّة أن يقدّم طلبًا ويحصل على حقّ اللجوء. ولكنّ سياساتها الخاصة بالهجرة تجعل هذا الادّعاء محطّ سخرية عمليًّا وتخلق مباشرةً سوق النقل الذي يعمل فيه المهرّبون. لا شيء سرّي بهذا الشأن، والواقع أنّ عدم رؤيته يتطلّب الكثير من التفكير المشوّش أو المعاق بشدّة.

لدينا غريزة لإيجاد شخص نلومه، ولكننا نادرًا ما ننظر في المرآة. أعتقد أنّ الناس الأذكياء والعطوفين يفشلون غالبًا في الوصول إلى استنتاج رهيب مُشعِر بالذنب بأنّ سياساتنا المتعلّقة بالهجرة مسؤولة عن غرق اللاجئين.

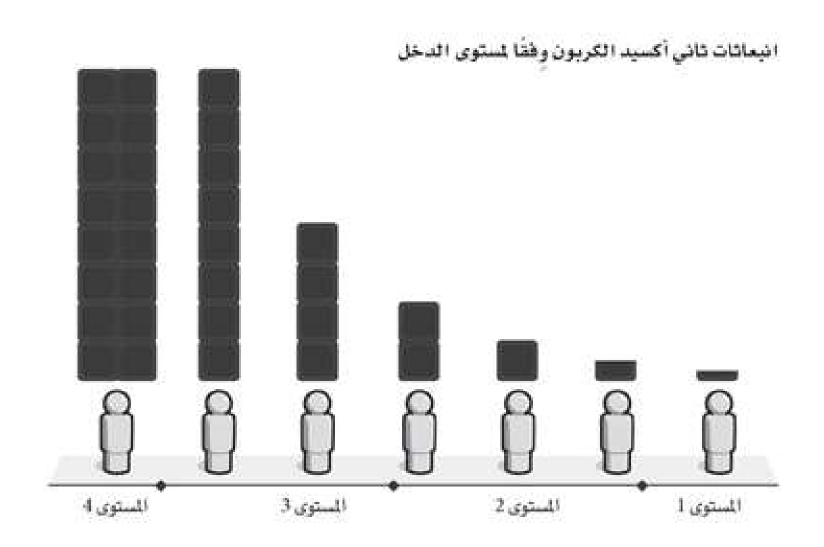
الأجانب

هل تذكر المسؤول الهندي في الفصل الخامس الذي رفض بشكلٍ مقنع الادّعاء بأنّ الهند والصين يجب أن يُلاما لتغيّر المناخ؟ استخدمت القصة حينها لأتحدّث عن أهميّة حساب المعدّلات لكلّ فرد، ولكنّ القصة تتعلّق أيضًا بحقيقة كيف أنّ إيجاد شخص لتوجيه اللوم إليه يمكن أن يلهينا عن النظر إلى كامل النظام.

إنّ فكرة أنّ الهند، والصين، وغيرهما من البلدان المتحرّكة صعودًا عبر مستويات الدخل يجب أن تُلام لتغيّر المناخ، وأنّ سكّانها يجب أن يُجبَروا على العيش حياةً أفقر من أجل معالجة المشكلة، هي فكرةٌ راسخة جدًّا، على نحوٍ صادم، في الغرب. أتذكّر، خلال محاضرة عن الاتجاهات العالمية في جامعة فانكوفر

التقنيّة، طالبةً صريحة تقول بصوت يشوبه اليأس، «لا يمكنهم أن يعيشوا مثلنا. لا يمكننا أن نجعلهم يتطوّرون هكذا. هذه الإنبعاثات ستقتل الأرض». إنه لأمرٌ صادم أن أسمع مرارًا وتكرارًا الغربيين يتحدّثون كما لو كانوا يحملون أجهزة تحكّم عن بعد في أيديهم ويمكنهم اتّخاذ قرارات بشأن مليارات الأرواح في الأماكن الأخرى، فقط بالضغط على زرّ. ناظرًا حولي، أدركت أنّ زملاءها الطلاب لم يُظهروا أي ردّ فعل. لقد وافقوها الرأي.

معظم ثاني أكسيد الكربون المنبعث بواسطة البشر والمتراكم في الجوّ على مدى الـ50 سنة الماضية مصدره دولٌ هي الآن في المستوى 4. لا تزال انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لكلّ فرد في كندا ضِعف تلك في الصين وثمانية أضعاف تلك في الهند. في الواقع، هل تعرف كم من إجمالي الوقود الأحفوري المحروق كلّ سنة يُحرَق من قِبَل المليار الأغنى في العالم؟ أكثر من نصفه. ثمّ يحرق ثاني أغنى مليار في العالم نصف المتبقّي، وهكذا، وصولًا إلى المليار الأفقر، المسؤول عن 1 بالمائة فقط.



سيستغرق الأمر عقدَين على الأقلّ من البلدان الأفقر لتكافح صعودًا من المستوى 1 إلى المستوى 2؛ رافعةً بذلك مساهمتها في انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية بنسبة 2 بالمائة. سيتطلّب الأمر عقودًا عدّة إضافية من هذه البلدان للوصول إلى المستويَين 3 و4.

في هذه الأحوال، إنها شهادة لغريزة اللوم تكشف مدى السهولة التي يبدو أننا في الغرب نلقي بها المسؤولية على الآخرين بعيدًا عنّا. نحن نقول أنّ «هُم» لا يمكن أن يعيشوا مثلنا. والصواب أننا يجب أن نقول، «نحن لا نستطيع أن نعيش مثلنا».

الداء الإفرنجي

أكبر عضوٍ في الجسم هو الجلد. قبل الطبّ الحديث، كان أحد أسوأ أمراض الجلد هو الزهري (الإفرنجي)، الذي سيبدأ كبثرات مُستحِكّة تمتدّ بعد ذلك إلى العظام إلى أن تكشف الهيكل العظمي. عُرِف الميكروب الذي سبّب هذا المنظر المقزِّز والألم الذي لا يُحتمَل بأسماء مختلفة في أماكن مختلفة. عُرِف في روسيا باسم الداء البولندي. وعُرِف في بولندا بالداء الألماني، وفي ألمانيا بالداء الفرنسي، وفي فرنسا بالداء الإيطالي. رد الإيطاليون اللوم على الفرنسيين وأسموه الداء الفرنسي.

إنّ غريزة إيجاد كبش فداء هي جوهر الطبيعة البشرية بحيث أنه من الصعب تخيُّل الشعب السويدي يطلق على القروح المفتوحة الداء السويدي، أو الشعب الروسي يدعوها الداء الروسي. ليست هذه هي الطريقة التي يتصرّف بها الناس. نحن بحاجة إلى أحد لنلومه وإذا جاء أجنبي واحد إلى هنا مصاب بالمرض، فسنكون سعداء لأن نلوم بلدًا بأكمله. ليست هناك حاجة لمزيد من التقصّي.

اللوم والادّعاء

تقودنا غريزة اللوم إلى أن ننسب إلى الأفراد قوةً ونفوذًا أكثر ممّا يستحقّون، للشرّ أو الخير. في أغلب الأحيان، يزعم القادة السياسيون والمديرون التنفيذيّون بشكلٍ خاص أنهم أكثر نفوذًا ممّا هم حقيقةً.

قادة نافذون؟

على سبيل المثال، كان ماو بلا شكّ شخصية نافذة على نحوٍ استثنائي، وكان

لأفعاله عواقب مباشرة على مليار شخص. ولكنّ سياسته القاضية بعدم إنجاب أكثر من طفلٍ واحد كان لها تأثير أقلّ على معدّلات الولادة ممّا هو متصوَّر في أذهان الناس عمومًا.

في كثيرٍ من الأحيان عندما أعرض معدّلات الولادة المنخفضة في آسيا، يقول أحدهم، «لا بدّ أن يكون الأمر كذلك بسبب سياسة الطفل الواحد لماو». ولكنّ الانخفاض الأوّل الضخم من ستّة إلى ثلاثة أطفال لكلّ امرأة حدث في السنوات العشر التي سبقت سياسة الطفل الواحد. وخلال الـ36 سنة التي كانت السياسة فيها قائمة، لم ينخفض الرقم أبدًا عن 1.5، رغم أنه فعل ذلك في العديد من البلدان الأخرى بدون إجبار، كما في أوكرانيا، وتايلاند، وكوريا الجنوبية. في هونغ كونغ، التي لم تُطبَّق فيها سياسة الطفل الواحد، انخفض الرقم حتى إلى أقلّ من طفل واحد لكلّ امرأة. يقترح كلّ هذا أنّ هناك عوامل أخرى مؤثّرة هنا – الأسباب التي أوجزتها بالفعل لرغبة الناس في الإنجاب – أكثر من الأمر الصارم لرجلٍ نافذ.

للبابا أيضًا تأثيرٌ هائل على السلوك الجنسي للمليار كاثوليكي في العالم. ومع ذلك، بالرغم من الإدانة الواضحة من قِبَل عدّة بابوات متعاقبين لاستعمال موانع الحمل، إلّا أنّ الإحصاءات تُظهِر أنّ نسبة استعمال موانع الحمل في البلدان ذات الغالبية الكاثوليكية هي 60 بالمائة، مقارنةً بـ58 بالمائة في بقية العالم. بتعبير آخر، الوضع مماثل. البابا واحد من أكثر قادة العالم الأخلاقيين بروزًا، ولكن يبدو أنه حتى القادة الذين لديهم نفوذ سياسي كبير أو سلطة أخلاقية ليس لديهم أجهزة تحكّم عن بعد يمكنها أن تتحكّم برغبة الناس في الإنجاب.

المزيد من المشبوهين المحتمَلين

جادلت أعلاه بأننا يجب أن ننظر إلى الأنظمة وليس إلى شخص نوجّه إليه اللوم عندما تمضي الأمور بشكلٍ خاطىء. يجب أيضًا أن نُرجِع المزيد من الفضل إلى نوعَين من الأنظمة عندما تمضي الأمور بشكلٍ صحيح. إنّ الممثّلين غير المنظورين خلف معظم النجاح البشري مملّون وباهتون مقارنةً

باب الراهبة ليندا من الداخل

في أفقر المناطق الريفية في أفريقيا، لا تزال الراهبات مسؤولات عن

العديد من الخدمات الصحية الأساسية. أصبح بعضٌ من هؤلاء النساء البارعات، المثابرات، العمليّات زميلات مقرّبات لي.

كانت الراهبة ليندا، التي عملت معها في تانزانيا، راهبة كاثوليكية مخلصة ترتدي السواد وتصلي ثلاث مرّات في اليوم. كان الباب إلى مكتبها مفتوحًا دومًا – تغلقه فقط خلال استشارات الرعاية الصحية – وعلى الباب من الخارج، كان أوّل شيء يقع عليه بصرك لدى دخولك، صورة ملصقة لامعة للبابا. في أحد الأيام كنت أنا وهي في مكتبها، وبدأنا نناقش موضوعًا حسّاسًا. وقفت الراهبة ليندا وأغلقت الباب، وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها ما كان على الباب من الداخل: صورة ملصقة أخرى كبيرة للبابا ومئات من أكياس الواقيات الذكرية الصغيرة المعلّقة بها. عندما التفتت الراهبة ليندا ورأت وجهي المندهش ابتسمت؛ كما تفعل غالبًا عندما تكتشف قوالبي النمطيّة التي لا تُحصَى لنساءٍ مثلها. قالت ببساطة: «تحتاجها العائلات لمنع الإيدز والحمل على حدّ سواء». ومن ثمّ تابعت النقاش.

بالقادة العظماء النافذين. ومع ذلك أريد أن أثني عليهم، ولهذا دعنا نتباهى ببطلَيّ التطوّر العالمي غير المتغنّى بهما: المؤسّسات والتكنولوجيا.

المؤسّسات

في بضعة بلدان فقط، محكومة بصورة استثنائية بقيادة ونزاعات مدمّرة، أُعيقت التنمية الاجتماعية والاقتصادية. في كلّ مكانٍ آخر، حتى مع وجود رؤساء يفتقرون إلى الكفاءة، هناك تقدّم.

في بعض الأحيان، عندما أفتح صنبور المياه لأغسل وجهي في الصباح وتنساب المياه الدافئة مثل السِّحر، أُثني بصمت على أولئك الذين جعلوا هذا ممكنًا: السمكريّون. عندما أكون في ذلك المزاج، غالبًا ما أكون مُربَكًا بعدد المناسبات التي يجب أن أشعر فيها بالامتنان للمجتمع المدني من موظّفين حكوميين، وممرّضات، ومدرّسين، ومحامين، وضبّاط شرطة، وإطفائيين، وكهربائيين، ومحاسبين، وموظّفي استقبال. هؤلاء هم الناس الذين يبنون المجتمعات. هؤلاء هم الناس غير المنظورين العاملين في شبكة من الخدمات المرتبطة التي تؤلّف مؤسّسات المجتمع. هؤلاء هم الناس الذين يجب أن نحتفي بهم عندما تجري الأمور بشكلٍ

جيد.

في العام 2014، ذهبت إلى ليبيريا للمساعدة في مكافحة الإيبولا لأني خشيت أنه إذا لم يتمّ إيقافه، يمكن أن ينتشر بسهولة إلى بقية العالم ويقتل مليار شخص، مُسبِّبًا أذىً أكثر من أي وباء معروف في تاريخ العالم. نجح هذا الكفاح ضدّ فيروس الإيبولا المميت ليس بفضل قائد بطولي فردي، أو حتى منظّمة بطولية واحدة مثل أطباء بلا حدود أو اليونيسيف. نجح بشكلٍ أقلّ إثارة وتشويقًا بفضل الموظّفين الحكوميين والعاملين الصحيين، الذين أنشأوا حملات صحة عامة غيّرت الممارسات الجنائزية القديمة في غضون أيام. خاطروا بحياتهم لمعالجة مرضى محتضرين، وقاموا بالعمل المرهق، والخطِر، والدقيق المتمثّل في إيجاد وعزل كلّ الناس الذين كانوا على اتصال بهؤلاء المرضى. عاملون شجعان وصبورون لمجتمع عامل، نادرًا ما يُؤتَى على ذكرهم؛ ولكنهم حقًّا منقذون للعالم.

التكنولوجيا

أنقذت الثورة الصناعية مليارات الأرواح ليس لأنها أنتجت قادة أفضل، بل لأنها أنتجت أشياء مثل المنظّفات الكيميائية التي يمكن استخدامها في الغسّالات الأوتوماتيكية.

كان عمري أربع سنوات عندما رأيت أمي تضع الغسيل لأوّل مرّة في غسّالة. كان يومًا هامًا لأمي. وفّرت هي وأبي المال لسنوات ليتمكّنا من شراء تلك الآلة. أمّا جدّتي، التي تمّت دعوتها إلى حفل تدشين الغسّالة الجديدة، فقد كانت حتى أكثر إثارة. كانت تسخّن الماء بحرق الحطب وتغسل بيديها طوال حياتها. والآن، كانت ستشاهد الكهرباء تقوم بذلك العمل. كانت متحمّسة جدًّا إلى حدّ أنها جلست على كرسي أمام الغسّالة إلى حين انتهاء دورة الغسل. بالنسبة إليها، كانت الآلة معجزة.

كانت معجزة بالنسبة إلى أمي وإليّ أيضًا. كانت آلةً سحرية، لأنّ أمي قالت لي في ذلك اليوم نفسه، «والآن، هانس، لقد وضعنا الغسيل في الغسّالة. ستقوم الآلة بالعمل. يمكننا الآن أن نذهب إلى المكتبة العامة». دخل الغسيل إلى الغسّالة، وخرجنا لقراءة الكتب. شكرًا للتصنيع، شكرًا لمصنع الفولاذ، شكرًا لمحطّة الطاقة، شكرًا لصناعة المعالجة الكيميائية، لمنحنا الوقت لقراءة الكتب.

يملك مليارا شخص اليوم ما يكفي من المال لاستعمال غسّالة وما يكفي من

الوقت للأمهات لقراءة الكتب؛ لأنّ الأمهات دائمًا تقريبًا هنّ اللواتي يقمن بالغسيل.

سؤال الحقيقة الثاني عشر

ما نسبة الناس في العالم اليوم الذين لديهم وصول ما إلى الكهرباء؟

أ: 20 بالمائة

ب: 50 بالمائة

ج: 80 بالمائة

الكهرباء حاجة أساسية، ما يعني أنّ أغلب الناس – تقريبًا كلّ شخص في المستويات 2، و3، و4 – لديهم حاليًّا وصولٌ إليها. ومع ذلك، فإنّ شخصًا واحدًا فقط من كلّ أربعة يختار الإجابة الصحيحة (التصنيف الكامل لكلّ بلد موجود في الملحق). الإجابة الصحيحة، كالعادة، هي تلك الأكثر إيجابية: 80 بالمائة من الناس لديهم وصولٌ ما إلى الكهرباء. إنها غير ثابتة وغالبًا ما يكون هناك انقطاعات في التيار الكهربائي، ولكنّ العالم يصل إلى هناك. تدشين بعد آخر، ومنزل بعد منزل.

إذن دعنا نكون واقعيين بشأن ما يرجوه الخمسة مليارات شخص في العالم الذين لا يزالون يغسلون ملابسهم يدويًّا وما الذي سيفعلونه لتحقيق آمالهم. ليس من الواقعي أبدًا أن نتوقّع منهم أن يُبطئوا باختيارهم نموّهم الاقتصادي. هم يريدون غسّالات، ومصابيح كهربائية، وأنظمة صرف صحي ملائمة، وبرّادًا لحفظ الطعام، ونظارات إذا كانوا يعانون من ضعف في البصر، وإنسولينًا إذا كانوا يعانون من السكّري، ووسائل نقل للذهاب في إجازة مع عائلاتهم تمامًا بقدر ما نريد أنا وأنت.

ما لم تكن مستعدًّا لأن تستغني عن كلّ هذه الأشياء وتبدأ في غسل ملابسك وملاءات سريرك يدويًّا، فلماذا ستتوقّع منهم هذا؟ من أجل إنقاذ الأرض من مخاطر تغيّر المناخ الضخمة، علينا أن نجد خطّة واقعية بدلًا من إيجاد شخص نوجّه إليه اللوم ونتوقّع منه تحمّل المسؤولية. يجب أن نبذل جهودنا لاختراع تكنولوجيّات جديدة ستمكّن 11 مليار شخص أن يعيشوا الحياة التي يجب أن نتوقّع توق الجميع إليها. الحياة التي نعيشها الآن في المستوى 4، ولكن مع حلول أكثر ذكاءً.

من ينبغي أن تلوم؟

ليس رئيس العمل أو مجلس الإدارة أو المساهمين هم من يجب أن نلومهم للنقص المأساوي في الأبحاث المتعلقة بأمراض الفقراء. ما الذي سنجنيه من توجيه أصابع الاتهام إليهم؟

على نحوٍ مماثل، قاوِم رغبتك في لوم وسائل الإعلام لكذبها عليك (في أكثر الأحيان هم لا يفعلون) أو لإعطائك نظرة محرّفة عن العالم (وهو ما يفعلونه في أكثر الأحيان، ولكن غالبًا ليس عمدًا). قاوِم لوم الخبراء لتركيزهم الشديد على اهتماماتهم وتخصّصاتهم أو لفهمهم الأمور بشكلٍ خاطئ (وهو ما يفعلونه أحيانًا، ولكن بنوايا طيبة غالبًا). في الواقع، قاوِم لوم أي فرد أو مجموعة من الأفراد لأي شيء، لأنّ المشكلة هي أننا نتوقّف عن التفكير بمجرّد أن نميّز الشخص السيء. والأمر دائمًا تقريبًا أكثر تعقيدًا من ذلك، ويتعلّق غالبًا بأسباب متعدّدة متفاعلة؛ نظام. إذا كنت حقًّا تريد تغيير العالم، عليك أن تفهم كيف يعمل فعليًّا وتنسى مسألة لكْم أحدهم في الوجه.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن تميّز متى ما كان أحدهم يستخدم كبش فداء، وتتذكّر أنّ إلقاء اللوم على فرد يحرف التركيز غالبًا عن التفسيرات الممكنة الأخرى ويعيق قدرتنا على منع مشاكل مماثلة في المستقبل.

من أجل التحكّم بغريزة اللوم، قاوِم إيجاد كبش فداء.

* **ابحث عن الأسباب، وليس الأوغاد**. عندما يجري أمرٌ بشكلٍ خاطئ، لا تبحث عن فرد أو مجموعة للومها. تقبّل أنّ الأمور السيئة يمكن أن تحدث بدون نيّة سيئة من أحدهم. بدلًا من ذلك، اصرف طاقتك على فهم الأسباب المتعدّدة المتفاعلة، أو النظام، التي أحدثت الوضع.

* **إبحث عن الأنظمة، وليس الأبطال**. عندما يدّعي أحدهم أنه كان سببًا في أمرٍ جيد، إسأل ما إذا كانت النتيجة ستحدث على أي حال، حتى لو لم يقم ذلك الفرد بشيء. أعط النظام بعض الفضل.

الفصل العاشر
غريزة الإلحاح



كيف يمكن لـ «الآن أو أبدًا» أن تسدّ طُرُقنا وعقولنا

عقبات الطريق والعقبات العقلية

«إذا لم يكن مُعدِيًا، لماذا أبعدت أطفالك وزوجتك؟». هذا ما سألني إياه محافظ ناكالا وهو يُلقي عليّ نظرةً فاحصة من مسافة آمنة خلف مكتبه. خارج النافذة، كانت الشمس الساحرة تغرب على منطقة ناكالا وسكّانها من الفقراء المدقعين الذين يعدّون بمئات الآلاف، ويخدمهم طبيب واحد فقط؛ أنا.

في وقتٍ مبكر من ذلك اليوم كنت قد عدت ثانيةً إلى المدينة من منطقة ساحلية فقيرة في الشمال تُدعَى ممبا. قضيت هناك يومَين مُستخدِمًا يدَيّ لتشخيص مئات المرضى المعانين من مرض رهيب غير مفسَّر شلّ أرجلهم بالكامل في غضون دقائق من ظهوره وأصابهم، في الحالات الشديدة منه، بالعمى. وقد كان المحافظ محقًّا. لم أكن متأكّدًا 100 بالمائة أنني لم أكن مُعدِيًا. لم أنم الليلة الماضية وبقيت مستيقظًا، منكبًّا على كتابي الطبي، إلى أن خلصت أخيرًا إلى أنّ الأعراض التي كنت أراها لم يتمّ وصفها قبلًا. خمّنت أنّ هذا كان نوعًا ما من السمّ وليس شيئًا مُعدِيًا، ولكني لم أستطع التأكّد، وطلبت من زوجتي أن تأخذ أطفالنا الصغار وتغادر المنطقة.

قبل أن أجد ما أقوله، قال المحافظ، «إذا كنت تظنّ أنه مُعدٍ، يجب أن أفعل شيئًا. كي أتجنّب حدوث كارثة، عليّ أن أمنع المرض من الانتشار إلى المدينة».

لقد تكشّف بالفعل أسوأ سيناريو في ذهن المحافظ، وانتقل بسرعة إليّ.

كان المحافظ رجلًا مغوارًا. وقف وقال، «هل ينبغي أن أخبر الجيش بإقامة حاجز على الطريق وإيقاف الحافلات من الشمال؟»

قلت، «نعم. أعتقد أنها فكرة جيدة. عليك أن تفعل شيئًا».

اختفى المحافظ لإجراء بعض الاتصالات الهاتفية.

عندما أشرقت الشمس فوق ممبا في صباح اليوم التالي، كان نحو 20 امرأة مع أطفالهن الصغار قد نهضوا بالفعل، منتظرين حافلة الصباح لتقلّهم إلى السوق في ناكالا لشراء حاجيّاتهم. عندما علموا أنّ الحافلة لن تأت، مشوا إلى الشاطئ وطلبوا من الصيّادين أن يأخذوهم عن طريق البحر. أفسح الصيادون مكانًا للجميع في قواربهم الصغيرة، وأبحروا جنوبًا على طول الساحل، سعداء على الأرجح لجنيهم أسهل مال في حياتهم.

لم يكن أحدٌ منهم يستطيع السباحة، وعندما انقلبت القوارب في الأمواج، غرق الجميع: الأمهات والأطفال والصيادون.

في عصر ذلك اليوم توجّهت شمالًا مرّة أخرى، قطعت الحاجز، كي أواصل تقصّي المرض الغريب. عندما قدت عبر ممبا، صادفت مجموعة من الناس تصفّ على جانب الطريق جثثًا ميّتة سحبوها من البحر. ركضت إلى الشاطئ ولكن بعد فوات الأوان. سألت رجلًا يحمل جثّة لصبي صغير، «لماذا كان كلّ هؤلاء الأطفال والأمهات في هذه القوارب التعيسة؟»

قال، «لم تكن هناك حافلة هذا الصباح». مرّت عدّة دقائق قبل أن أتمكّن بالكاد من فهم ما فعلت. وحتى اليوم، لا أستطيع أن أغفر لنفسي. لماذا كان عليّ أن أقول للمحافظ، «ليك أن تفعل شيئًا؟».

لم أستطع أن ألقي بتبعة هذه الوفيّات المأساوية على الصيادين. عندما يكون الناس بحاجة ماسّة إلى الذهاب إلى السوق، وتسدّ سُلطات المدينة طريقهم لسببٍ ما، يضطرون طبعًا إلى الذهاب بحرًا في القارب.

لا أجد طريقة أخبرك بها كيف تابعت عملي في ذلك اليوم وما تلاه من أيام. ولم أتحدّث مع أحدٍ آخر بهذا الشأن على مدى 35 سنة.

ولكني تابعت عملي واكتشفت أخيرًا سبب المرض الشلليّ: كما ظننت، كانوا جميعًا قد تسمّموا. المفاجأة هي أنهم لم يأكلوا أي شيء جديد. شكّل المنيهوت أساس نظامهم الغذائي المحلّي، وكان لا بدّ من معالجته لثلاثة أيام لجعله صالحًا للأكل. هذه المعلومة كانت معروفة دومًا للجميع، ولهذا فإنّ أحدًا لم يسمع أبدًا عن أي شخص تسمّم أو رأى هذه الأعراض. ولكن في تلك السنة، كان الحصاد سيئًا جدًّا عبر كامل البلد وكانت الحكومة تشتري المنيهوت المعالَج بسعرٍ عال غير مسبوق. أصبح المزارعون الفقراء قادرين فجأة على كسب ذلك المال الإضافي الذي احتاجوه للخروج من الفقر المدقع وكانوا يبيعون كلّ ما لديهم. ولكن، بعد يوم بيع ناجح، كانوا يعودون إلى البيت جائعين. جائعين إلى حدّ عدم قدرتهم على مقاومة أكل جذور المنيهوت غير المعالَجة، مباشرةً من الحقول. في الساعة 8 صباحاً، في 21 أغسطس، 1981، حوّلني هذا الاكتشاف من طبيب منطقة إلى باحث، وقضيت السنوات العشر التالية من حياتي متقصِّيًا التفاعل بين الاقتصاد، والمجتمعات، والسموم، والطعام.

وبعد ذلك بأربع عشرة سنة، في العام 1995، سمع الوزراء في كينشاسا، عاصمة جمهورية الكونغو الديمقراطية، عن تفشّي الإيبولا في مدينة كيتويك. أصابهم الفزع. شعروا أنهم يجب أن يفعلوا شيئًا. أقاموا حاجزًا على الطريق.

مرّةً أخرى، كانت هناك عواقب غير مقصودة. أصبح إطعام الناس في العاصمة مشكلة رئيسية لأنّ المنطقة الريفية التي أمدّت العاصمة على الدوام بمعظم منتوجها من المنيهوت المعالَج كانت على الجانب الآخر من المنطقة التي ضربها المرض. كانت المدينة جائعة وبدأت تشتري كلّ ما تستطيعه من ثاني أكبر منطقة منتجة للطعام. حلّقت الأسعار، وخمِّن ماذا؟ تلا ذلك تفشٍّ غامض لأرجل مشلولة وعمىً.

بعد ذلك بتسع عشرة سنة، في العام 2014، حدث تفشٍّ للإيبولا في الشمال الريفي لليبيريا. فزع الناس القليلي الخبرة في البلدان الغنية وجاءوا جميعًا بنفس الفكرة: حاجز على الطريق!

في وزارة الصحة، صادفت سياسيين رفيعي المستوى. كانوا أكثر خبرة، وجعلتهم خبرتهم حذرين. كان شاغلهم الرئيسي هو أنّ حواجز الطريق ستدمّر ثقة الناس المتروكين خلفها. سيكون هذا كارثيًّا بكلّ تأكيد. يتمّ التغلّب على تفشّيات الإيبولا بواسطة متتبّعي الاتصال، الذين يعتمدون على إفشاء الناس بأمانة لكلّ شخص لامسوه. كان هؤلاء الأبطال يجلسون في مساكن الأحياء الفقيرة يجرون مقابلات بأناة مع الناس الذين فقدوا فردًا من العائلة بشأن كلّ شخص يمكن أن يكون فقيدهم قد نقل إليه العدوى قبل موته. طبعًا، في أغلب الأحيان، يكون الشخص الذي تُجرَى معه المقابلة ضمن تلك القائمة ويُحتمَل أنه مصاب. بالرغم من الخوف المستمرّ وأمواج الشائعات المتتالية، لم يكن هناك مجال لفعلٍ متطرّف ناتج عن ذعر. لا يمكن تتبّع مسار العدوى بالقوة العمياء، بل بالعمل المتأنّي، الهادىء، الدقيق. إذا أغفل فردٌ واحد معلومة بشأن من كانت له علاقة بأخيه المتوفّى، فقد يكلّف هذا آلاف الأرواح.

عندما نكون خائفين وتحت ضغط زمني ونفكّر بأسوأ السيناريوهات، يكون من شأننا أن نتّخذ قرارات غبية فعلًا. يمكن لقدرتنا على التفكير بشكلٍ تحليلي أن تُربَك برغبة ملِحّة لاتّخاذ قرارات سريعة والقيام بإجراء فوري.

في ذلك الحين في ناكالا في العام 1981، قضيت عدّة أيام متقصّيًا المرض بتأنّ ولكن أقلّ من دقيقة مفكّرًا بعواقب إغلاق الطريق. أدّى الإلحاح، والخوف، والتركيز الأحادي التفكير على مخاطر الوباء إلى إيقاف قدرتي على التمعّن في الأمور. مندفعًا للقيام بشيء، قمت بفعلٍ رهيب.

غريزة الإلحاح

الآن أو أبدًا! تعلّم الإلمام بالحقيقة الآن! غدًا سيكون الأوان قد فات!

لقد وصلت إلى الغريزة الأخيرة. حان الوقت الآن لتقرّر. هذه اللحظة لن تعود أبدًا. لن تكون كلّ هذه الغرائز حيّة في ذهنك مرّةً أخرى أبدًا. لديك فرصة وحيدة، اليوم، الآن، لفهم معارف هذا الكتاب وتغيير الطريقة التي تفكّر بها بشكلٍ كامل إلى الأبد. أو يمكنك فقط أن تُنهي الكتاب، وتغلقه، وتقول لنفسك، «لقد كان هذا غريبًا»، وتستمرّ كما كنت بالضبط قبل قراءته.

ولكن عليك أن تقرّر الآن. عليك أن تتصرّف الآن. هل ستغيّر الطريقة التي

تفكّر بها اليوم؟ أو تعيش في جهل إلى الأبد؟ الأمر راجعٌ إليك.

ربما سمعت شيئًا كهذا من قبل، من بائع أو ناشط. كلاهما يستخدم الكثير من التقنيّات نفسها: «تصرّف الآن، أو اخسر الفرصة إلى الأبد». هم يستحثّون عمدًا غريزة الإلحاح لديك. هذه الدعوة إلى التصرّف تجعلك تفكّر بشكلٍ انتقادي أقلّ، وتقرّر بسرعة أكبر، وتتصرّف فورًا.

استرخ. في معظم الأحيان، ما يقولونه غير صحيح. وفي معظم الأحيان، ليس الأمر مُلِحًّا إلى هذا الحدّ، وفي معظم الأحيان لست مُلزَمًا بانتقاء أحد خيارَين. يمكنك أن تضع الكتاب جانبًا إذا شئت وتفعل شيئًا آخر. بعد ذلك بأسبوع، أو شهر، أو سنة، يمكنك أن تفتحه ثانيةً وتذكّر نفسك بنقاطه الرئيسية، ولن يكون الأوان قد فات. الواقع أنها طريقة أفضل للتعلّم بدلًا من حشوه كلّه في دماغك مرّة واحدة.

تجعلنا غريزة الإلحاح نرغب في اتّخاذ إجراء مباشر في مواجهة خطر وشيك مدرَك. لا بدّ أنها قد خدمتنا جيدًا نحن البشر في الماضي البعيد. إذا احتملنا وجود أسد بين الحشائش، لم نكن نقوم بالكثير من التحليل. أولئك الذين توقّفوا وحلّلوا الاحتمالات بأناة لم تُكتَب لهم النجاة. نحن ذريّة أولئك الذين قرّروا وتصرّفوا بسرعة استنادًا إلى معلومات غير كافية. اليوم، لا نزال بحاجة إلى غريزة الإلحاح؛ على سبيل المثال، عندما تبرز سيارة أمامنا فجأة ونحتاج إلى فعلٍ تملّصي. ولكن الآن حيث أزلنا معظم الأخطار الفورية وبقيت لدينا مشاكل أكثر تعقيدًا وغالبًا أكثر تجريدًا، يمكن لغريزة الإلحاح أن تضلّلنا عندما يتعلّق الأمر بفهم العالم حولنا. فهي تجعلنا مُجهَدين، وتضخّم غرائزنا الأخرى وتزيد من صعوبة السيطرة عليها، وتمنعنا من التفكير بشكلٍ تحليلي، وتغرينا لأن نتّخذ قرارنا بسرعة، وتشجّعنا على القيام بأفعال متطرّفة لم نمعن التفكير فيها.

لا يبدو أننا نملك غريزة مماثلة للتصرّف عندما تواجهنا أخطار مستقبلية بعيدة. الواقع أننا يمكن أن نكون متثاقلين جدًّا في مواجهة الأخطار المستقبلية. هذا هو السبب في أنّ القليل جدًّا من الناس يدّخرون ما يكفي لتقاعدهم.

هذا الموقف تجاه الخطر المستقبلي هو مشكلة كبيرة للناشطين الذين يعملون على مقاييس زمنية طويلة. كيف يمكنهم أن يوقظونا؟ كيف يمكنهم أن يحمّسونا للقيام بفعل؟ غالبًا جدًّا، من خلال إقناعنا بأنّ الخطر المستقبلي غير

المؤكّد هو فعليًّا خطرٌ وشيك، وبأنّ لدينا فرصة تاريخية لحلّ مشكلة هامّة ويجب معالجتها الآن أو لن تُعالَج أبدًا: يعني، باستحثاث غريزة الإلحاح.

يمكن لهذه الطريقة بالطبع أن تجعلنا نتصرّف، ولكنها أيضًا يمكن أن تسبّب إجهادًا لا ضرورة له وقرارات ضعيفة. يمكنها أيضًا أن تسحب المصداقية والثقة من قضيتهم. الإنذارات المستمرّة تجعلنا مخدّرين تجاه القضايا الملِحّة فعلًا. إنّ الناشطين الذين يقدّمون قضاياهم بشكلٍ ملِحّ أكثر ممّا هي عليه حقيقة، يريدون أن يدعونا إلى التصرّف، هم مثل الصبيان الذين يصرخون «ذئب.. ذئب». ونحن نتذكّر كيف تنتهي هذه القصة: حقل مليء بالخراف الميّتة.

تعلّم السيطرة على غريزة الإلحاح. عرض خاص! اليوم فقط!

عندما يخبرني الناس أننا يجب أن نتصرّف الآن، يجعلني هذا أتردّد. في معظم الحالات، هم يحاولون فقط أن يمنعوني من التفكير بوضوح.

إلحاحٌ ملائم

سؤال الحقيقة الثالث عشر

يعتقد خبراء المناخ العالمي أنّ متوسّط درجة الحرارة، على مدى الـ100 سنة القادمة، سوف...

أ: يرتفع

ب: يبقى كما هو

ج: ينخفض

«نحن بحاجة لأن نخلق الخوف!» هذا ما قاله آل غور لي في بداية محادثتنا الأولى حول كيفية تدريس تغيّر المناخ. كان ذلك في العام 2009 وكنا وراء الكواليس في واحدٍ من مؤتمرات تيد في لوس أنجلوس. طلب مني آل غور أن أساعده وأستخدم الرسوم البيانية الفقّاعية لغاب مايندر لتبيان التأثير المستقبلي الأسوأ للزيادة المستمرّة في انبعاثات ثاني أكسيد الكربون.

في ذلك الوقت، كنت أكنّ احترامًا عميقًا لإنجازات آل غور في شرح ومعالجة تغيّر المناخ، ولا زلت كذلك. أنا أكيدٌ بأنك أجبت على سؤال الحقيقة في أعلى هذا

القسم بشكلٍ صحيح: إنه السؤال الوحيد الذي تتفوق فيه جماهيرنا دومًا على قرود الشمبانزي، حيث الغالبية العظمى من الناس (من 94 بالمائة في فنلندا، وهنغاريا، والنرويج، إلى 81 بالمائة في كندا والولايات المتحدة، إلى 76 بالمائة في اليابان) يعرفون جيدًا التغيّر الهائل الذي يتنبّأ به خبراء المناخ. هذا المستوى العالي من الوعي يرجع الفضل في جزء غير صغير منه إلى آل غور. وكذلك إلى الإنجاز الهائل لاتّفاقية باريس 2015 حول تخفيض تغيّر المناخ. كان آل غور – ولا زال – بالنسبة لي بطلًا. وافقت معه بالكامل على ضرورة اتّخاذ إجراء سريع بشأن تغيّر المناخ، وكنت متحمّسًا لفكرة التعاون معه.

ولكني لم أستطع أن أوافق على ما طلبه مني.

أنا لا أحب الخوف. الخوف من الحرب مع الذعر الناجم عن إلحاحية الوضع جعلاني أرى ربّانًا روسيًّا ودمًا على الأرض. الخوف من الوباء مع الذعر الناجم عن إلحاحية الوضع جعلاني أُغلق الطريق وأتسبّب في غرق كلّ هؤلاء الأمهات، والأطفال، والصيادين. الخوف والإلحاح يؤدّيان إلى قرارات غبية متشدّدة ذات تأثيرات جانبية غير متوقّعة. تغيّر المناخ أمرٌ هامّ جدًّا، يحتاج إلى تحليل منهجي، وقرارات متأنّية، وإجراءات متصاعدة تدريجيًّا، وتقييم دقيق.

ولا أحب المبالغة أيضًا. تقلّل المبالغة من مصداقية البيانات المبنية على أساس صحيح: في هذه الحالة، تُظهر البيانات أنّ تغيّر المناخ أمرٌ واقع، وأنه ناتج إلى حدّ كبير عن غازات الدفيئة الناجمة عن النشاطات البشرية مثل حرق الوقود الأحفوري، وأنّ اتّخاذ إجراء سريع وشامل الآن سيكون أقلّ تكلفة من الانتظار إلى حين بلوغ تغيّر المناخ مرحلة غير مقبولة تتطلّب إجراءً مُكلِفًا.

أصررت على أني لن أعرض أبدًا اتجاه الحالة الأسوأ بدون أن أعرض اتجاهات الحالة الأفضل أيضًا. إنّ انتقاء سيناريو الحالة الأسوأ فقط - والأسوأ من ذلك - الاستمرار بهذا الاتجاه إلى ما وراء التوقّعات العلمية الأساس سيكون بعيدًا جدًّا عن حدود مهمّة غاب مايندر المتمثّلة في مساعدة الناس على فهم الحقائق الأساسية. سيكون بمثابة استخدام مصداقيتنا للدعوة إلى القيام بفعل. واصل آل غور، في محادثات عدّة لاحقة، تأكيده على قضيته لعرض فقاعات متحرّكة باعثة على الخوف تتجاوز تنبّؤات الخبراء، إلى أن أغلقتُ المناقشة أخيرًا، «السيد نائب الرئيس. لا أرقام. لا فقّاعات».

بعض أوجه المستقبل يسهل توقّعها أكثر من أوجه أخرى. نادرًا ما تكون تنبّؤات الطقس دقيقة لأكثر من أسبوع في مستقبل الأيام. كما أنّ التنبّؤ بالنموّ الاقتصادي لأي بلد ومعدّلات البطالة فيه صعب للغاية. وهذا بسبب التعقيد في الأنظمة المعنية. كم من الأمور عليك توقّعها، وما مدى سرعة تغيّرها؟ في الأسبوع التالي، سيكون هناك مليارات التغيّرات في درجات الحرارة، وسرعة الرياح، والرطوبة. في الشهر التالي، سيكون قد تمّ تداول مليارات الدولارات مليارات المرّات.

على نحوٍ متباين، فإن تنبّؤات الدراسة الإحصائية للسكّان تكون دقيقة بدرجة مذهلة لعقودٍ في مستقبل الأيام لأنّ الأنظمة المعنية – أساسًا، الولادات والوفيّات – بسيطة نوعًا ما. الأطفال يولدون، ويكبرون، وينجبون مزيدًا من الأطفال، ثمّ يموتون. تستغرق دورة حياة كلّ فرد 70 سنة تقريبًا.

ولكنّ المستقبل دائمًا غير مؤكّد إلى حدٍّ كبير. ومتى ما تحدّثنا عن المستقبل يجب أن نكون صريحين وواضحين بشأن مستوى الشكّ المشمول. لا ينبغي أن نختار التقديرات الأكثر دراماتيكية ونعرض سيناريو الحالة الأسوأ كما لو كان مؤكّدًا. سيعرف الناس! يجب أن نعرض نموذجيًّا تنبّؤًا وسطًا، وأيضًا نطاقًا من الاحتمالات البديلة، من الأفضل إلى الأسوأ. إذا اضطررنا إلى تدوير الأرقام، فينبغي أن نفعل ذلك لما فيه ضررنا نحن. هذه الطريقة تحمي سمعتنا وتعني أننا لا نعطي الناس أبدًا أي سبب يجعلهم يتوقّفون عن الاستماع إلينا.

أَصِرّ على البيانات

تردّد صدى كلمات آل غور في رأسي لفترة طويلة بعد تلك المحادثة الأولى.

كي أكون واضحًا تمامًا، أنا مهتمّ بشدّة بشأن تغيّر المناخ لأني مقتنع أنه حقيقي؛ بقدر ما كان الإيبولا حقيقيًّا في العام 2014. أنا أفهم الإغراء لحشد التأييد بانتقاء أسوأ التقديرات وإنكار الشكوك الهائلة في الأرقام. ولكنّ هؤلاء الذين يهتمّون بتغيّر المناخ يجب أن يتوقّفوا عن تخويف الناس بسيناريوهات مُستبعَدة. معظم الناس يعرفون المشكلة بالفعل ويعترفون بوجودها. إنّ الإصرار عليها شبيه بركل باب مفتوح. حان الوقت للانتقال من الحديث المكرّر المتواصل. دعنا بدلًا من ذلك نستخدم تلك الطاقة لحلّ المشكلة باتّخاذ إجراء: إجراء لا يقوده الخوف

والإلحاح وإنما البيانات والتحليل المتأنّي.

إذن ما الحلّ؟ حسنًا، إنه سهل. كلّ من يطلق الكثير من غاز الدفيئة يجب أن يتوقّف عن فعل ذلك بأسرع ما يمكن. نحن نعرف من هم: الناس الذين يعيشون في المستوى 4 الذين لديهم المستويات الأعلى من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، ولهذا دعنا نتابع المشكلة معهم. ودعنا نتأكّد أنّ لدينا مجموعة بيانات جدّية لهذه المشكلة الجدّية كي نتمكّن من تتبّع مسار تقدّمنا.

باحثًا عن البيانات بعد محادثتي مع آل غور، فوجئت بمدى صعوبة إيجادها. بفضل صور القمر الصناعي الرائعة، يمكننا أن نتتبّع الغطاء الجليدي للقطب الشمالي على أساس يومي. يزيل هذا أي شكّ بأنه يتقلّص سنة بعد سنة بسرعة مقلقة. وهكذا لدينا مؤشّرات جيدة لأعراض الاحتباس الحراري العالمي. ولكن عندما بحثت عن البيانات لتتبّع سبب المشكلة – انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بشكلٍ رئيسي – وجدت القليل منها فقط!

تمّ تتبّع النموّ لإجمالي الناتج المحلّي لكلّ فرد في البلدان ذات المستوى 4 بشكلٍ دقيق، مع نشر الأرقام الرسمية الجديدة على أساس فصلي. ولكنّ البيانات الخاصة بانبعاثات ثاني أكسيد الكربون كانت تُنشَر مرّة واحدة فقط كلّ سنتَين. ولهذا بدأتُ أستحثّ الحكومة السويدية لأداءٍ أفضل. في العام 2009، بدأتُ أضغط من أجل نشرٍ فصليّ لبيانات غاز الدفيئة: إذا كنا نهتمّ بشأنه، لماذا لا نقيسه؟ كيف يمكننا أن ندّعي أننا نأخذ هذه المشكلة بجدّية إذا لم نكن حتى نتتبّع تقدّمنا؟

أنا فخورٌ جدًّا بأنّ السويد، منذ العام 2014، لا تزال تتتبّع انبعاثات غاز الدفيئة على أساس فصلي (الدولة الأولى والوحيدة حتى الآن التي تقوم بذلك). هذا إلمامٌ عملي بالحقيقة. زار خبراء إحصائيون من كوريا الجنوبية ستوكهولم مؤخّرًا ليتعلّموا كيف يمكنهم القيام بالمثل.

تغيّر المناخ هو خطرٌ عالمي هامّ جدًّا لأن يتمّ تجاهله أو إنكاره، والغالبية العظمى من العالم تعرف ذلك. ولكنه أيضًا هامٌّ جدًّا لأن يُترَك للسيناريوهات السطحية الأسوأ والمتنبّئين المتشائمين.

عندما تتمّ دعوتك للعمل، فإنّ تحسين البيانات هو أحيانًا أنفع عمل يمكنك القيام به.

خوفٌ ملائم

ومع ذلك، لا تزال الأصوات حول تغيّر المناخ تتعالى. فالعديد من الناشطين، مقتنعين بأنها القضية العالمية الهامّة الوحيدة، اعتادوا على إلقاء اللوم على المناخ في كلّ شيء، وجعلوه السبب الوحيد لكلّ المشاكل العالمية الأخرى.

هم يركّزون على هموم اليوم المروّعة لزيادة الشعور بالإلحاح بشأن المشكلة الطويلة الأمد. تستند الإدّعاءات أحيانًا إلى دليل علمي قوي، ولكن في كثير من الأحيان تكون عبارة عن فرضيات غير مثبتة وبعيدة الاحتمال. أنا أفهم إحباطات أولئك المكافحين لجعل المخاطر المستقبلية ملموسة في الحاضر. ولكني لا أستطيع الموافقة على طرقهم.

أكثر ما يقلق هو محاولة جذب الناس إلى القضية باختراع مصطلح «اللاجئون المناخيّون». أفضل فهمي هو أنّ الصلة بين تغيّر المناخ والهجرة ضعيفة للغاية. إنّ مفهوم اللاجئ المناخي هو في الدرجة الأولى مبالغة متعمّدة، صُمِّمت لتحويل خوف اللجوء إلى خوف تغيّر المناخ، وبالتالي بناء قاعدة أوسع بكثير للتأييد العام لخفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون.

عندما أقول هذا لناشطي المناخ يخبرونني غالبًا أنّ إثارة الخوف والشعور بالإلحاح بادّعاءات مبالَغ فيها أو غير مدعومة له ما يبرّره لأنها الطريقة الوحيدة لجعل الناس يتحرّكون لمعالجة المخاطر المستقبلية. لقد أقنعوا أنفسهم أنّ الغاية تبرّر الوسيلة. وأنا أوافق أنّ الأمر قد ينجح على المدى القصير. ولكن.

إنّ إطلاق استغاثة كاذبة لمرّات عديدة هو مخاطرة بمصداقية وسمعة علماء المناخ الجدّيين وكامل الحركة. مع مشكلة كبيرة بقدر تغيّر المناخ، لا يمكننا أن نسمح بحدوث هذا. إنّ تضخيم دور تغيّر المناخ في الحروب والنزاعات، أو الفقر، أو الهجرة، يعني تجاهل الأسباب الرئيسية الأخرى لهذه المشاكل العالمية، ما يعيق قدرتنا على اتّخاذ إجراء لمكافحتها. لا يمكننا أن ندخل في وضع لا نجد فيه من يستمع إلينا. بدون الثقة، نحن تائهون.

غالبًا ما تحاصر الادّعاءات المتهوّرة الناشطين أنفسهم الذين يطلقونها. يعرّف الناشطون هذه الادّعاءات كاستراتيجية ذكية لجعل الناس معنيّين بالأمر، ثمّ ينسون أنهم يبالغون ويصبحون مُجهَدين وعاجزين عن التركيز على حلول واقعية. يجب

على الناس الجدّيين بشأن تغيّر المناخ أن يحتفظوا بفكرتَين في رأسهم في آن واحد: يجب أن يستمرّوا في الاهتمام بالمشكلة دون أن يصبحوا ضحايا لنفس رسائلهم المحبطة والمثيرة للفزع. يجب أن ينظروا إلى سيناريوهات الحالة الأسوأ ويتذكّروا في الوقت نفسه الشكوك في البيانات. عند تحميس الآخرين، عليهم أن يحافظوا على رزانة تفكيرهم كي يتمكّنوا من اتّخاذ قرارات جيدة وإجراءات معقولة، وعدم المخاطرة بمصداقيتهم.

الإيبولا

وصفت في الفصل الثالث كيف كنت، في العام 2014، بطيئًا جدًّا في فهم أخطار تفشّي الإيبولا في أفريقيا الغربية، ولم أفهم إلّا عندما رأيت أنّ الخطّ البياني الممثّل لاتجاه المرض كان يتضاعف. حتى في هذه الحالة الأكثر إلحاحًا وتخويفًا، كنت عازمًا على محاولة التعلّم من أخطائي الماضية، والتصرّف وِفقًا للبيانات وليس للغريزة والخوف.

كانت الأرقام خلف منحنى «الحالات المشبوهة» الرسمي لمنظمة الصحة العالمية ومراكز الولايات المتحدة لمكافحة الأمراض والوقاية منها غير مؤكّدة إلى حدّ بعيد. الحالات المشبوهة تعني حالات غير مؤكّدة. تعدّدت القضايا: على سبيل المثال، الناس الذين اشتُبِه عند نقطة معيّنة أنهم مصابون بالمرض ولكن تبيّن أنهم ماتوا لسبب آخر كانوا لا يزالون معدودين ضمن الحالات المشبوهة. مع ازدياد الخوف من الإيبولا، كذلك ازداد الشكّ، وازداد عدد الناس «المشبوهين» أكثر فأكثر. ومع ترنّح الخدمات الصحية الطبيعية تحت ضغط التعامل مع الإيبولا وضرورة انتقال الموارد من معالجة الحالات الأخرى المهدّدة للحياة، كانت أعدادٌ متزايدة من الناس تموت من أسباب لا علاقة لها بالإيبولا. عومِل الكثير من حالات الوفيّات هذه على أنها «مشبوهة». وهكذا بولِغ في المنحنى المتصاعد للحالات المشبوهة أكثر فأكثر وأخبرنا معلومات أقلّ عن الاتجاه في الحالات الفعلية المؤكّدة.

إذا كنت لا تستطيع أن تتتبّع التقدّم، فلن تعرف إن كانت إجراءاتك ناجحة. ولهذا عندما وصلت إلى وزارة الصحة العامة في ليبيريا، سألت كيف يمكننا أن نحصل على صورة لعدد الحالات المؤكّدة. علمت خلال اليوم أنّ عيّنات الدم كانت تُرسَل إلى أربعة مختبرات مختلفة، وكانت سجلّاتها، المدوّنة في جداول بيانات إكسل طويلة وغير مرتّبة، لا تُجمَع. كان المئات من عاملي الرعاية الصحية من

جميع أنحاء العالم يأتون للمساعدة، وكان مطوّرو البرامج يبتكرون باستمرار تطبيقات جديدة للإيبولا لا فائدة منها (كانت التطبيقات بمثابة مطارقهم وكانوا متلهّفين لأن تكون الإيبولا مسمارًا). ولكن لا أحد كان يتتبّع إن كان الإجراء المتّخَذ ناجحًا أم لا.

بعد أخذ الموافقة، أرسلتُ جداول بيانات اكسل الأربعة إلى أُولا في ستوكهولم، الذي أمضى 24 ساعة في ترتيبها وجمعها، ومن ثمّ إجراء العملية مرة أخرى للتأكّد من أنّ الشيء الغريب الذي رآه لم يكن خطئًا. لم يكن كذلك. عندما تبدو مشكلةٌ ما مُلِحّة، فإنّ أوّل شيء ينبغي القيام به هو أن لا تطلق نداء استغاثة كاذبة، بل أن تنظّم البيانات. دُهِش الجميع عندما عادت البيانات لتُظهِر أنّ عدد الحالات المؤكّدة قد بلغ الذروة قبل أسبوعَين وكان الآن ينخفض. استمرّ عدد الحالات المشبوهة بالازدياد. في غضون ذلك، نجح الليبيريّون، واقعًا، في تغيير سلوكهم بنجاح، مبتعدين عن كلّ الاتصال الجسدي غير الضروري. لم يكن هناك أي مصافحة أو احتضان. هذا، مع الامتثال الحرفي للتدابير الصحية الصارمة المفروضة في المتاجر، والمباني العامة، وسيارات الإسعاف، والعيادات، والمدافن، وفي كلّ مكان آخر أحدث بالفعل التأثير المرغوب. كانت الاستراتيجية تنجح ولكن، إلى حين اللحظة التي وصلني فيها المنحنى من أُولا، لم يعرف أحدٌ بذلك. احتفلنا ومن ثمّ تابع الجميع عملهم، متحمّسين للعمل بجدّ أكثر بعد أن عرفوا الآن أنّ ما يقومون به كان ناجحًا بالفعل.

أرسلت المنحنى الهابط إلى منظّمة الصحة العالمية وقاموا بنشره في تقريرهم التالي. ولكنّ مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها أصرّت على الالتزام بالمنحنى الصاعد لـ «الحالات المشبوهة». شعروا أنهم يجب أن يحافظوا على شعور بالإلحاح بين أولئك المسؤولين عن إرسال الموارد. أنا أفهم أنهم كانوا يتصرّفون بناءً على أحسن النوايا، ولكن عنى هذا أنّ المال والموارد الأخرى كانت توجَّه إلى الأماكن الخاطئة. على نحوٍ أكثر جدّية، هدّد هذا المصداقية الطويلة الأمد للبيانات الوبائية. لا ينبغي أن نلومهم. لا يُسمح للاعب القفز الطويل أن يقيس قفزاته الخاصة. كذلك لا ينبغي السماح لمنظّمة معنيّة بحلّ المشاكل أن تقرّر أي بيانات ستنتشر. الناس الذين يحاولون أن يحلّوا مشكلة على الأرض، الذين سيريدون دومًا المزيد من الأموال، لا ينبغي أن يكونوا هم أيضًا الناس الذين يقيسون التقدّم. يمكن أن يقود هذا إلى أرقام مضلِّلة فعلًا.

كانت البيانات – البيانات التي تُظهِر أنّ الحالات المشبوهة كانت تتضاعف كلّ ثلاثة أسابيع – هي ما جعلني أدرك حجم أزمة الإيبولا. كانت البيانات أيضًا – البيانات التي تُظهِر أنّ عدد الحالات المشبوهة يتناقص – هي ما أراني أنّ الإجراءات المتّخذة لمكافحة المرض كانت ناجحة. كانت البيانات أساسية حتمًا. وبما أنها ستكون أساسية في المستقبل أيضًا، عندما يكون هناك تفشٍّ لوباء آخر في مكان ما، فلا بدّ من حماية مصداقيتها ومصداقية أولئك الذين ينتجونها. يجب أن تُستخدَم البيانات لكشف الحقيقة، وليس للدعوة إلى القيام بعمل، بغضّ النظر عن مدى نبل النوايا.

عاجل! اقرأ هذا الآن!

الإلحاح هو واحدٌ من أسوأ العوامل المشوِّهة لنظرتنا العالمية. أعرف أني على الأرجح قد قلت ذلك بشأن كلّ الغرائز الدراماتيكية الأخرى أيضًا، ولكني أظنّ أنّ هذه ربما إستثنائية حقًّا. أو ربما هي كلّها مجتمعة في هذه الغريزة. تخلق النظرة العالمية الدراماتيكية بإفراط في رؤوس الناس إحساسًا مستمرًّا بالأزمة والإجهاد. تؤدّي مشاعر «الآن أو أبدًا» الملِحّة الناشئة عن تلك النظرة إلى إجهاد أو لامبالاة: «لا بدّ أن نقوم بشيء حازم. دعنا لا نحلّل. دعنا نفعل شيئًا». أو «الأمر كلّه ميؤوس منه. ليس هناك ما يمكننا القيام به. حان الوقت لننسحب». بكلتا الطريقتَين، نحن نتوقّف عن التفكير، ونستسلم لغرائزنا، ونتّخذ قرارات سيئة.

المخاطر العالمية الخمس التي ينبغي أن نقلق بشأنها

أنا لا أنكر أنّ هناك مخاطر عالمية ضاغطة علينا أن نهتمّ بمعالجتها. أنا لست شخصًا تفاؤليًّا يرسم العالم بلون قرنفلي. تجاهُل المشاكل لا يُشعرني بالسكينة. المشاكل الخمس التي أكثر ما تقلقني هي الوباء العالمي، والانهيار المالي، والحرب العالمية، وتغيّر المناخ، والفقر المدقع. لماذا تجعلني هذه المشاكل قلقًا للغاية؟ لأنها مرجّحة الحدوث: الثلاث الأولى حدثت كلّها قبلًا والاثنتان الأخريان تحدثان الآن، وأيضًا لأنّ كلّ واحدة منها تنطوي على إمكانية التسبّب بمعاناة جماعية إمّا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من خلال إيقاف التقدّم البشري لسنوات أو عقود عديدة. إذا فشلنا هنا، لا شيء آخر سينجح. هذه مشاكل مُهلِكة ضخمة يجب تجنّبها، إذا كان ممكنًا، من خلال العمل التعاوني والتدريجي.

(هناك مشكلة سادسة مرشّحة لهذه القائمة. إنها الخطر المجهول. إنها الاحتمال بأنّ شيئًا لم نفكّر فيه بعد سيسبّب معاناة ودمارًا رهيبَين. هذه فكرة منبِّهة. وفي حين أنه من غير المجدي حقًّا أن نقلق بشأن شيء مجهول لا يمكننا أن نفعل شيئًا حياله، يجب أيضًا أن نبقى حذرين ومتيقّظين للمخاطر الجديدة، كي نتمكّن من الاستجابة لها).

الوباء العالمي

قتلت الإنفلونزا الأسبانية التي انتشرت عبر العالم في أعقاب الحرب العالمية الأولى 50 مليون شخص؛ أكثر ممّا فعلت الحرب، بالرغم من أنّ هذا يرجع جزئيًّا إلى ضعف الصحة العامة للسكّان بعد أربع سنوات من الحرب. نتيجةً لهذا، انخفض متوسط العمر المتوقّع العالمي بمقدار 10 سنوات، من 33 إلى 23، كما يمكنك أن ترى من الهبوط في المنحنى على الصفحة 55. يتّفق الخبراء الجدّيون المعنيّون بالأمراض المعدية بأنّ نوعًا جديدًا مؤذيًا من الإنفلونزا لا يزال يمثّل التهديد الأكثر خطورة على الصحة العالمية. السبب: طريق انتقال الإنفلونزا. إنها تنتقل عبر الهواء على قطيرات صغيرة جدًّا. يمكن لشخص أن يدخل مقطورة قطار نفقي وينقل العدوى لكلّ من فيها دون ملامسة أحدهم للآخر، أو حتى ملامسة البقعة نفسها. إنّ مرضًا محمولًا في الهواء مثل الإنفلونزا، مع قدرته على الانتشار بسرعة كبيرة، يشكّل تهديدًا أكبر للبشرية ممّا تفعل أمراض أخرى مثل الإيبولا أو فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز. إنّ حماية أنفسنا بكلّ طريقة ممكنة من فيروس قابل للانتقال بسرعة ومتجاهل لكلّ أنواع الدفاع هو أمرٌ يستحق الجهد.

العالم اليوم أكثر استعدادًا للتعامل مع الإنفلونزا ممّا كان في الماضي، ولكنّ الناس في المستوى 1 لا يزالون يعيشون في مجتمعات يمكن أن يكون من الصعب فيها التدخل بسرعة لمكافحة مرض منتشر بعدوانية. نحن بحاجة لأن نتأكّد أنّ الرعاية الصحية الأساسية تصل إلى الجميع، في كلّ مكان، كي يُصار إلى اكتشاف حالات تفشّي الأمراض بسرعة أكبر. ونحن بحاجة لأن تبقى منظمة الصحة العالمية مزدهرة وقوية كي تنسّق استجابةً عالمية.

الانهيار المالي

في عالم مُعَولَم، يمكن لعواقب الفقّاعات المالية أن تكون مدمّرة. يمكنها أن تحطّم اقتصادات بلدان بأكملها وتجعل أعدادًا ضخمة من الناس بدون عمل، مُنتجةً

مواطنين ساخطين يبحثون عن حلول جذرية. يمكن لانهيار مصرف كبير فعلًا أن يكون أسوأ بدرجات من الانفجار العالمي الذي بدأ بانهيار قروض الإسكان في الولايات المتحدة في العام 2009. يمكنه أن يحطّم الاقتصاد العالمي بأكمله.

بما أنّ أفضل علماء الاقتصاد في العالم فشلوا في توقُّع الانهيار الأخير وفشلوا سنة بعد سنة في توقّع التعافي منه – لأنّ النظام معقّد جدًّا إلى حدّ لا يسمح بتوقّعات دقيقة – فليس هناك سببٌ يدعونا إلى الافتراض بأنّ انهيارًا آخر لن يحدث لمجرّد أنّ أحدًا لا يتوقّعه. لو كان لدينا نظام أبسط، فلربما كانت هناك فرصة ما لفهمه واكتشاف طريقة لتجنّب الانهيارات المستقبلية.

الحرب العالمية الثالثة

فعلت كلّ ما بوسعي طوال حياتي لإقامة علاقات مع الناس في بلدان وثقافات أخرى. ليس الأمر ممتعًا فقط، وإنما ضروري أيضًا لتقوية شبكة الأمان العالمية في مواجهة الغريزة البشرية الرهيبة للانتقام العنيف والحرب.

نحن بحاجة إلى ألعاب أولمبية، وتجارة دولية، وبرامج تبادل تعليمي، وإنترنت مجاني؛ أي شيء يجعلنا نلتقي خارج حدود المجموعات العرقية والحدود المرسومة بين الدول. يجب أن نعتني بشبكات الأمان العالمي ونقوّيها من أجل السلام العالمي. بدون السلام العالمي، لا يمكن تحقيق أي من أهدافنا المتعلّقة بالاستدامة. إنه تحدّ دبلوماسي هائل لمنع الشعوب المفتخرة والتوّاقة إلى الماضي التي لها سجّل أداء عنيف من الاعتداء على الآخرين بعد أن بدأت تفقد سيطرتها على السوق العالمي. يجب أن نساعد الغرب القديم على إيجاد طريقة جديدة لدمج نفسه بسلام في العالم الجديد.

تغيُّر المناخ

ليس من الضروري أن ننظر فقط إلى سيناريو الحالة الأسوأ لنرى أنّ تغيّر المناخ يشكّل تهديدًا هائلًا. لا يمكن التحكّم بالموارد المشتركة للأرض، مثل الجوّ، إلّا من قِبَل سُلطة مُحترَمة عالميًّا، في عالم سلميّ ملتزم بالمقاييس العالمية.

هذا أمرٌ يمكن القيام به: قمنا به بالفعل في مُستنفِدات الأوزون وفي الرصاص في البنزين، حيث استطاع المجتمع العالمي تخفيض كليهما إلى الصفر تقريبًا في غضون عقدَين. يتطلّب هذا مجتمعًا دوليًّا قويًّا جيّد الأداء (لأكون واضحًا، أنا

أتحدّث عن الأمم المتحدة). ويتطلّب أيضًا إحساسًا بالتكافل العالمي تجاه حاجات الناس المختلفين في مستويات الدخل المختلفة. لا يستطيع المجتمع العالمي أن يدّعي هكذا تكافل إذا كان يتحدّث عن حرمان المليار شخص في المستوى 1 من الوصول إلى الكهرباء، الذي لن يضيف شيئًا يُذكَر إلى إجمالي الانبعاثات. تطلق البلدان الأغنى معظم ثاني أكسيد الكربون ويجب أن تبدأ في التحسُّن أوّلًا قبل أن تضيع الوقت بالضغط على الآخرين.

الفقر المدقع

المخاطر الأخرى التي ذكرتها هي سيناريوهات مرجّحة جدًّا ستُحدِث مستويات مجهولة من المعاناة المستقبلية. أمّا الفقر المدقع فهو ليس خطرًا فعلًا. فالمعاناة الناجمة عنه ليست مجهولة، وليست في المستقبل. إنه واقع. إنه بؤس يومي حاضر. إنه أيضًا مصدر تفشّيات الإيبولا، بسبب عدم وجود خدمات صحية لمواجهتها عند أي مرحلة مبكرة. وهو أيضًا حيث تبدأ الحروب الأهلية، لأنّ الشباب المستميتين للعمل ولقمة العيش، والذين ليس لديهم ما يخسرونه، من شأنهم أن يكونوا أكثر استعدادًا للانضمام إلى حركات حرب العصابات الوحشية. إنها دائرة مفرغة: الفقر يقود إلى حرب أهلية، والحرب الأهلية تقود إلى الفقر. تعني النزاعات الأهلية في أفغانستان وأفريقيا الوسطى أنّ جميع مشاريع الاستدامة الأخرى في تلك الأماكن متوقّفة. يختبئ الإرهابيون في المناطق القليلة التي لا تزال في فقر مدقع.

اليوم، أتاحت فترةٌ من السلام العالمي النسبي ازدهارًا عالميًّا متناميًا. نسبة الناس العالقين في فقرٍ مدقع هي أقلّ من أي وقتٍ مضى. ولكنّ هؤلاء يشكّلون 800 مليون شخص من تعداد العالم. خلافًا لتغيّر المناخ، لسنا بحاجة لتوقّعات وسيناريوهات. نحن نعلم أنّ 800 مليون شخص يعانون الآن. ونحن نعرف الحلول أيضًا: السلام، والتعليم، والرعاية الصحية الأساسية الشاملة، والكهرباء، والماء النظيف، ودورات المياه، وموانع الحمل، والقروض الصغيرة لتحريك قِوى السوق. لسنا بحاجة لأي ابتكار لإنهاء الفقر. الأمر كلّه يتعلّق بقطع الميل الأخير بالشيء الذي نجح في كلّ مكان آخر. ونحن نعرف أنه كلّما تصرفنا بسرعة أكبر، أصبحت المشكلة أصغر، لأنه طالما بقي الناس في فقر مدقع سيستمرّون في بناء عائلات كبيرة وستستمرّ أعدادهم بالتزايد. إنّ توفير ضرورات الحياة الكريمة، بسرعة،

للمليار الأخير من الناس هو أولويّة واضحة تستند إلى الحقيقة.

أكثر من تصعب مساعدتهم هم أولئك العالقون خلف عصابات مسلّحة عنيفة ومضطربة في دول ضعيفة الحكم. من أجل الهروب من الفقر، هم بحاجة إلى حضور عسكري تثبيتي من نوعٍ ما. سيحتاجون إلى ضباط شرطة مسلّحين وسُلطة حكومية لحماية المواطنين الأبرياء من العنف ولتمكين المدرّسين من تعليم الجيل التالي بسلام.

ومع ذلك، أنا «إمكاني». يشبه الجيل التالي العدّاء الأخير في سباق تتابع طويل جدًّا. كان السباق لإنهاء الفقر المدقع مثل ماراثون، حيث أُعطِيت إشارة الانطلاق في العام 1800. يملك الجيل التالي الفرصة الفريدة لإكمال العمل: التقاط العصا، وعبور الخطّ، ورفع اليدَين منتصرًا. يجب إكمال المشروع. ويجب أن نقيم احتفالًا كبيرًا عند إتمامه.

بالنسبة لي، فإنّ معرفة أنّ بعض الأشياء تتّسم بأهمية قصوى هو أمرٌ باعث على الاسترخاء. هذه المخاطر الخمس الكبيرة هي حيث يجب أن نوجّه طاقاتنا. يجب أن تتمّ مقاربة هذه المخاطر باتّزان استنادًا إلى بيانات قوية مستقلّة. تتطلّب هذه المخاطر تعاونًا عالميًّا وتوفيرًا عالميًّا للموارد. يجب أن تتمّ مقاربة هذه المخاطر من خلال خطوات تدريجية وتقييم مستمرّ، وليس من خلال إجراءات متطرّفة. يجب احترام هذه المخاطر من قِبَل كلّ الناشطين، في جميع القضايا. هذه المخاطر كبيرة جدًّا لا تحتمل إطلاق نداء استغاثة كاذبة.

أنا لا أقول لك ألا تقلق. أنا أقول لك أن تقلق بشأن الأمور التي تستحقّ القلق. أنا لا أقول لك أن تتجاهل الأخبار أو تتجاهل نداءات الناشطين للعمل. أنا أقول لك أن تتجاهل الضجيج، ولكن أن تُبقي عينَيك مفتوحتَين للمخاطر العالمية الكبيرة. أنا لا أقول لك ألا تخاف. أنا أقول لك أن تبقى متّزنًا وتدعم التعاونات العالمية التي نحتاجها لتقليل هذه المخاطر. سيطِر على غريزة الإلحاح لديك. سيطِر على كلّ غرائزك الدراماتيكية. كن أقلّ إجهادًا بسبب المشاكل الوهمية لعالم دراماتيكي بإفراط وأكثر تنبُّهًا للمشاكل الحقيقية وكيفية حلّها.

الإلمام بالحقيقة



الإلمام بالحقيقة هو... أن تميّز متى يكون اتّخاذُ قرارٍ أمرًا مُلِحًّا، وتتذكّر أنه نادرًا ما يكون كذلك.

من أجل التحكّم بغريزة الإلحاح، **قم بخطوات صغيرة.**

* **خذ نَفَسًا**. عندما تُستحَثّ غريزة الإلحاح لديك، تشتغل غرائزك الأخرى ويتوقّف تحليلك. أطلب مزيدًا من الوقت ومزيدًا من المعلومات. نادرًا ما يكون الوضع «الآن أو أبدًا» ونادرًا ما يكون «إمّا هذا أو ذاك».

* **أصِرّ على البيانات**. إذا كان أمرٌ ما مُلِحًّا وهامًّا، فلا بدّ من قياسه. احذر البيانات ذات الصلة بالموضوع ولكن غير الدقيقة، أو الدقيقة ولكن غير ذات الصلة بالموضوع. البيانات الدقيقة وذات الصلة بالموضوع هي المفيدة فقط.

* **احذر قرّاء البخت.** أي توقُّع للمستقبل غير مؤكّد. احذر التوقّعات التي تفشل في تمييز ذلك. أصِرّ على نطاق كامل من السيناريوهات، وليس فقط على الحالة الأفضل أو الأسوأ. اسأل كم من المرّات من قبل صحّت فيها مثل هذه التوقّعات.

* **احذر الإجراء المتطرّف**. اسأل عن التأثيرات الجانبية المحتملة. اسأل كيف تمّ اختبار الفكرة. عادةً ما تكون التحسينات التدريجية العملية، وتقييم تأثيرها،

أقلّ دراماتيكيةً ولكن أكثر فعّاليةً.

الفصل الحادي عشر
الإلمام بالحقيقة عمليًّا

كيف أنقذ الإلمام بالحقيقة حياتي

همس المعلّم الشاب الواقف إلى جانبي، «أظنّ أننا يجب أن نهرب».

تسارعت فكرتان في ذهني. إحداهما أنه إذا هرب المعلّم، لن تكون لدي طريقة للتواصل مع الحشد الغاضب أمامي. أمسكت بذراعه وأحكمت قبضتي عليها.

الفكرة الأخرى كانت شيئًا أخبرني إياه حاكمٌ حكيم لتانزانيا: «ندما يهدّدك أحدهم بمنجل، إياك أن تدير ظهرك. قف ثابتًا. أنظر إليه مباشرة في العين واسأله ما المشكلة».

كان ذلك في العام 1989، وكنت في قرية نائية وفقيرة للغاية تُدعَى ماكانغا في منطقة باندوندو في ما كان يُعرَف حينها بزائير واليوم بجمهورية الكونغو الديمقراطية. كنت جزءًا من فريق يبحث في تفشّي المرض الشللي العضال المعروف بكونزو، الذي اكتشفته لأوّل مرّة في موزمبيق قبل ذلك سنوات.

استغرق التخطيط لمشروع البحث سنتَين وكان كلّ شيء – الموافقات، والسائقون، والمترجمون، والمعدّات المخبرية – قد تمّ الإعداد له بمنتهى الدقّة. ولكني ارتكبت خطأً واحدًا كبيرًا. لم أشرح إلى القرويين كما ينبغي ما أردت القيام به والغرض منه. أردت أن أجري مقابلات مع كلّ القرويين وآخذ عيّنات من طعامهم، ودمهم، وبولهم، وكان يجب أن أكون مع رئيس القرية عندما شرح ذلك لهم.

في ذلك الصباح، عندما كنت أجهّز الآلات في الكوخ بهدوء ومنهجية للعمل، سمعت القرويين يحتشدون في الخارج. بدوا نوعًا ما منزعجين، ولكني كنت منهمكًا بتشغيل آلة عيّنات الدم. تدبّرت أخيرًا تشغيل مولّد الديزل والقيام باختبار تجريبي بآلة الطرد المركزي. كانت الآلات تصدر ضجيجًا مرتفعًا ولم يكن إلّا عندما أوقفتها أن سمعت الأصوات المتعالية في الخارج. تغيّرت الأمور في لحظات. انحنيت للأمام وخطوت خارج الباب المنخفض. كان الكوخ مُعتِمًا وعندما استقمت في وقفتي لم أستطع أن أرى شيئًا في البداية. ثمّ رأيت: كان هناك حشد من نحو 50 شخصًا، بدوا جميعًا مستائين وغاضبين. كان البعض منهم يشيرون بأصابعهم إليّ. رفع رجلان أذرعًا مفتولة العضلات ولوّحا بسكاكين منجلية كبيرة.

هنا حين اقترح المعلّم، مترجمي، أن نهرب. نظرت إلى اليمين واليسار ورأيت أن لا مكان للفرار. لو كان القرويّون يريدون أذيّتي حقًّا، فهناك ما يكفي منهم للإمساك بي وتسليمي لرجال المناجل لتقطيعي.

سألت المعلّم، «ما المشكلة؟»

«يقولون أنك تبيع الدم. أنت تغشّنا. أنت تعطي المال فقط إلى الرئيس، ثمّ ستفعل شيئًا بالدم سيؤذينا. يقولون أنك لا يجب أن تسرق دمهم».

كان هذا سيئًا جدًّا. طلبت منه أن يترجم كلامي ومن ثم التفتّ إلى الحشد. سألت القرويين، «هل يمكنني أن أشرح؟ بإمكاني أن أغادر قريتكم الآن، إذا أردتم، أو بإمكاني أن أشرح سبب مجيئنا».

قال الناس، «أخبرنا أوّلًا». (الحياة مملّة في هذه القرى النائية، ولهذا ربما فكّروا، «يمكننا أن ندعه يتكلّم أوّلًا، ومن ثمّ نقتله»). أوقف الحشد رجال المناجل: «دعوه يتكلّم».

هذا هو الحديث الذي كان يُفترَض أن يجري بيننا قبلًا. إذا أردت أن تذهب إلى قرية للقيام ببحث، عليك أن تخطو خطوات صغيرة، وتأخذ وقتك، وتُبدي الاحترام. عليك أن تدع الناس يسألونك كلّ أسئلتهم، وعليك أن تجيبهم.

بدأت أشرح أننا كنّا نعمل على مرض يُعرَف باسم كونزو. كانت لدي صور فوتوغرافية من موزمبيق وتانزانيا، حيث درست الكونزو قبلًا، وقد أريتها لهم. أثارت الصور اهتمامهم إلى حدّ كبير. قلت، «أظنّ أنها ترتبط بالطريقة التي تُعدّون بها

المنيهوت».

قالوا، «لا، لا، لا».

«حسنًا، نريد أن نقوم بهذا البحث لنختبر ما إذا كنّا مُحقّين. إذا استطعنا معرفة ذلك، فربما لن تصابوا بالمرض بعد الآن».

كان العديد من الأطفال في القرية مصابين بالكونزو. لقد لاحظناهم لدى وصولنا، متخلّفين عن بقية الأطفال الذين ركضوا في محاذاة سيارتنا الجيب بفضول بهيج. وقع نظري أيضًا على بعض الأطفال في هذا الحشد وهم يمشون بالطريقة التشنّجية النموذجية المميِّزة للمرض.

بدأ الناس يغمغمون. تحرّك أحد رجال المناجل، ذاك الأخطر شكلًا منهم، بعينَين محتقنتَين بالدم وندبة كبيرة أسفل ساعده، وبدأ بالصراخ مرّة أخرى.

ومن ثمّ خرجت من الحشد امرأة حافية القدمَين في نحو الخمسين من العمر. خطت خطوات كبيرة باتجاهي ثمّ استدارت، ونشرت ذراعيها، وقالت بصوتٍ عال، «ألا يمكنكم أن تسمعوا أنّ ما يقوله منطقي؟ اسكتوا! إنه منطقي. اختبار الدم هذا ضروري. ألا تتذكرون كلّ الذين ماتوا بالحصبة؟ العديد جدًّا من أطفالنا ماتوا. ثمّ جاءوا وأعطوا الأطفال اللقاح، هل تذكرون، والآن، لا يموت طفلٌ أبدًا من ذلك المرض. ألا توافقون؟»

صاح الحشد، وهو لا يزال غاضبًا، «نعم، لقاح الحصبة كان جيّدًا. ولكنهم الآن يريدون أن يأتوا ويأخذوا دمنا، هراء، هراء، هراء».

توقّفت المرأة، ثمّ خطت خطوة باتجاه الحشد. «كيف تظنّون أنهم اكتشفوا لقاح الحصبة؟ هل تظنّون أنه ينمو على الأشجار في بلادهم؟ هل تظنّون أنهم سحبوه من الأرض؟ لا، إنهم يفعلون ما يسمّيه هذا الطبيب» – ونظرت إليّ – «ب-ح-ث». عندما كرّرت الكلمة التي استخدمها المترجم لكلمة بحث، التفتت وأشارت إليّ. «تلك الطريقة التي يكتشفون بها كيفية علاج الأمراض. ألا ترون؟»

كنا في أقصى بقعة من باندوندو، حيث تقدّمت هذه المرأة مثل سكرتير أكاديمية العلوم ودافعت عن البحث العلمي.

«لدي حفيد شُلّ مدى الحياة بسبب مرض الكونزو هذا. يقول الطبيب أنه لا

يستطيع علاجه. ولكن إذا سمحنا له أن يدرسنا، ربما وجد طريقة لإيقافه، كما أوقفوا الحصبة، كي لا نضطر إلى رؤية أولادنا وأحفادنا مشلولين بعد الآن. يبدو هذا منطقيًّا بالنسبة لي. نحن أهالي ماكانغا بحاجة لهذا ’البحث‘«. كانت موهبتها الدراماتيكية مذهلة. ولكنها لم تستخدمها لتشويه الحقائق. استخدمتها لشرح الحقائق. بقوة، بالطريقة التي رأيت بها النساء الأفريقيات الواثقات يتصرّفن في القرى لمرّات عديدة قبل ذلك، طوت كمّها الأيسر. أدارت ظهرها للحشد، وأشارت بيدها الأخرى إلى حنية ذراعها، ونظرت في عينيّ مباشرة. «هيا يا دكتور. خذ دمي».

خفض رجال المناجل أسلحتهم وتحرّكوا بعيدًا. وتفرّق خمسة أو ستّة رجال آخرين، متبرّمين. واصطفّ كلّ من تبقّى خلف المرأة لإعطاء دمه، واستُبدِل الصياح بأصوات ليّنة وتحوّلت الوجوه من غاضبة إلى مبتسمة بفضول.

كنت دومًا شاكرًا للغاية لبصيرة هذه المرأة الشجاعة. والآن بعد أن عرّفنا الإلمام بالحقيقة بعد سنوات من محاربة الجهل، أنا منذهل لمدى انطباق سلوك هذه المرأة على تعريفنا. بدا أنها تميّز كلّ الغرائز الدراماتيكية التي استُحِثّت في ذلك الحشد الغاضب، وساعدتهم في السيطرة عليها، وأقنعت أبناء قريتها بحجج عقلانية. استُحِثّت غريزة الخوف بالإبر الحادّة، والدم، والمرض. وضعتني غريزة التعميم في صندوق كأوروبي سارق. جعلت غريزة اللوم القرويين يأخذون موقفًا ضدّ الطبيب الشرير الذي جاء ليسرق دمهم. جعلت غريزة الإلحاح الناس يأخذون قرارهم بسرعة جدًّا.

ومع ذلك، تحت هذا الضغط، وقفت وتكلّمت من غير تردّد أو خوف. ليس لهذا أي علاقة بالتعليم الرسمي. من شبه المؤكّد أنها لم تغادر باندوندو أبدًا وأنا أكيد أنها كانت لا تعرف القراءة والكتابة. وبدون شكّ لم تتعلّم أبدًا الإحصاء أو تنفق وقتًا في حفظ حقائق تتعلّق بالعالم. ولكنها امتلكت الشجاعة. وكانت قادرة على التفكير بشكلٍ انتقادي والتعبير عن نفسها بمنطق حاد وبيان بديع في لحظة مشحونة بالتوتّر إلى الحدّ الأقصى. أنقذ إلمامها بالحقيقة حياتي. وإذا استطاعت تلك المرأة أن تكون مُلِمّةً بالحقيقة تحت تلك الظروف، فيمكنك أنت أيضًا، كقارئ ذي مستوىً عالٍ من التعليم ويحسن القراءة والكتابة، فرغ لتوّه من قراءة هذا الكتاب، أن تكون كذلك.

الإلمام بالحقيقة عمليًّا

كيف يمكنك أن تستخدم الإلمام بالحقيقة في حياتك اليومية: في التعليم، وفي العمل، وفي الصحافة، وفي منظّمتك أو مجتمعك الخاص، وكمواطن فردي؟

التعليم

ليس لدينا براكين في السويد، ولكن لدينا جيولوجيّون يُدفَع إليهم من الأموال العامة لدراسة البراكين. حتى أطفال المدارس النظامية يتعلّمون عن البراكين. هنا في النصف الشمالي للكرة الأرضية، يتعلّم الفلكيّون عن النجوم التي يمكن أن تُرَى فقط في النصف الجنوبي للكرة الأرضية. وفي المدرسة، يتعلّم الأطفال عن هذه النجوم. لماذا؟ لأنها جزءٌ من العالم.

لماذا إذن لا يتعلّم أطباؤنا وممرّضاتنا عن أنماط المرض في كلّ مستوى دخل؟ لماذا لا ندرِّس الفهم الأساسي الحديث لعالمنا المتغيِّر في مدارسنا وتعليمنا المشترك؟

يجب أن نعلّم أطفالنا الهيكل الأساسي الحديث المستند إلى الحقيقة – الحياة في المستويات الأربعة وفي المناطق الأربع – وندرّبهم على استخدام قواعد الإلمام بالحقيقة؛ النقاط الأساسية في نهاية كلّ فصل. سيمكّنهم هذا من وضع الأخبار من جميع أنحاء العالم في سياقها واكتشاف متى تعمد وسائل الإعلام، أو الناشطون، أو البائعون إلى استحثاث غرائزهم الدراماتيكية بقصص دراماتيكية بإفراط. هذه المهارات هي جزء من التفكير الانتقادي الذي يُدرَّس بالفعل في العديد من المدارس. ستحمي هذه المهارات الجيل التالي من الكثير من الجهل.

* ينبغي أن نعلّم أطفالنا أنّ هناك بلدانًا في مختلف مستويات الصحة والدخل وأنّ معظمها يقع في المنتصف.

* ينبغي أن نعلّمهم عن موقع بلدهم الاجتماعي والاقتصادي بالنسبة إلى بقية العالم، وكيف أنه يتغيّر.

* ينبغي أن نعلّمهم كيف تقدَّم بلدهم عبر مستويات الدخل ليصل إلى حيث هو الآن، وكيفية استخدام تلك المعرفة لفهم كيف هي الحياة في بلدان أخرى اليوم.

* ينبغي أن نعلّمهم أن الناس يتحرّكون صعودًا عبر مستويات الدخل وأنّ معظم الأمور تتحسّن في حياتهم.

* ينبغي أن نعلّمهم كيف كانت الحياة فعليًّا في الماضي كي لا يظنّوا مخطئين أنه لم يتمّ إحراز أي تقدّم.

* ينبغي أن نعلّمهم كيف يحتفظون بفكرتَين في نفس الوقت: أنّ الأمور السيئة تحدث في العالم، ولكنّ العديد من الأمور يتحسّن.

* ينبغي أن نعلّمهم كيف يستوعبون الأخبار لاكتشاف الدراما بدون أن يصابوا بالإجهاد أو اليأس.

* ينبغي أن نعلّمهم الطرق الشائعة التي سيجرّبها الناس لخداعهم بالأرقام.

* يجب أن نعلّمهم أنّ العالم سيستمرّ بالتغيّر ويجب عليهم أن يُحدِّثوا معرفتهم ونظرتهم العالمية طوال حياتهم.

والأهمّ من كلّ شيء، يجب أن نعلّم أطفالنا التواضع والفضول.

أن تكون متواضعًا، هنا، يعني أن تكون مدركًا كم يمكن لغرائزك أن تجعل حصولك على الحقائق صعبًا. يعني أن تكون واقعيًّا بشأن حجم معرفتك. يعني أن لا تُحرَج من قول «لا أعرف». يعني أيضًا، عندما يكون لديك رأيٌ بالفعل، أن تكون مستعدًّا لأن تغيّره عندما تكتشف حقائق جديدة. إنه لأمرٌ باعثٌ على الاسترخاء أن تكون متواضعًا، لأنه يعني أنك تستطيع أن تتوقّف عن الشعور بالضغط لأن يكون لك وجهة نظر بشأن كلّ شيء، وأن تتوقّف عن الشعور بأنك يجب أن تكون مستعدًّا للدفاع عن وجهات نظرك طوال الوقت.

أن تكون فضوليًّا يعني أن تكون منفتحًا للمعلومات الجديدة وتبحث عنها بنشاط. يعني أن تتقبّل حقائق لا تتلاءم مع نظرتك العالمية وأن تحاول فهم الآثار المترتّبة عليها. يعني أن تسمح لأخطائك أن تستحثّ فضولك لا أن تشعرك بالإحراج. «كيف أمكن أن أكون مخطئًا إلى هذا الحدّ بشأن تلك الحقيقة؟ ماذا يمكنني أن أتعلّم من ذلك الخطأ؟ أولئك الناس غير أغبياء. لماذا إذن يستخدمون ذلك الحلّ؟» إنه لأمرٌ ممتع حقًّا أن تكون فضوليًّا، لأنه يعني أنك دائمًا تكتشف شيئًا مثيرًا للاهتمام.

ولكنّ العالم سيستمرّ بالتغيّر، ومشكلة الراشدين الجاهلين لن تُحلّ بتعليم

الجيل التالي. إنّ ما تتعلّمه عن العالم في المدرسة سيصبح قديمًا في غضون 10 إلى 20 سنة بعد التخرّج. لهذا يجب أن نجد طرقًا لتحديث معرفة الراشدين أيضًا. في صناعة السيارات، تُستَرَدّ السيارات عندما يُكتشَف خطأ. تصلك رسالة من المنتِج تقول، «نريد أن نستردّ السيارة ونستبدل المكابح». عندما تصبح حقائق العالم التي تعلّمتها في المدارس والجامعات قديمة، يجب أن تصلك رسالة أيضًا: «فوًا، ما علّمناك إياه لم يعد صحيحًا. أعد دماغك رجاءً من أجل تحديث مجاني». أو ربما يجب على رئيسك أن يعالج المشكلة: «راجع هذه المادة رجاءً وأجر هذا الاختبار، كي تتجنّب إحراج نفسك في المنتدى الاقتصادي العالمي أو أمثاله».

استبدِل القبّعات المكسيكية بشارع الدولارات

يبدأ الأطفال في التعلُّم عن البلدان الأخرى والأديان ما قبل المدرسة. تُستخدَم خرائط العالم الصغيرة الجميلة التي يظهر فيها الناس بملابس فولكلورية من جميع أنحاء العالم لخلق الوعي والاحترام في نفوس الأطفال تجاه الثقافات الأخرى. النيّة حسنة ولكن يمكن لهذا النوع من الرسوم التوضيحية أن يخلق وهمًا بوجود اختلاف كبير. يمكن أن يبدو الناس في البلدان الأخرى عالقين في طرق حياتية تاريخية وغريبة. بالطبع يرتدي بعض المكسيكيين أحيانًا قبّعات مكسيكية كبيرة، ولكن هذه القبّعات الكبيرة اليوم هي على الأرجح أكثر شيوعًا على رؤوس السيّاح.

دعنا نُري الأطفال شارع الدولارات بدلًا من ذلك، ونريهم كيف يعيش الناس العاديون. إذا كنت معلّمًا، أرسل صفّك «للسفر” على dollarstreet.org واطلب منهم أن يجدوا الاختلافات ضمن البلدان والتشابهات عبر البلدان.

العمل

خطأٌ مطبعي صغير في سيرتك الذاتية ويُرجّح أنك لن تحصل على الوظيفة. ولكن إذا وضعت مليار شخص في القارة الخطأ، فلا يزال بالإمكان أن يتمّ توظيفك. يمكنك حتى أن تحصل على ترقية.

لا يزال معظم الموظّفين الغربيين في المؤسّسات المالية الكبيرة والمتعدّدة الجنسيات يحاولون أن يعملوا وِفقًا لنظرة عالمية مشوّهة وقديمة ومتجذّرة بعمق. ومع ذلك يصبح الفهم العالمي حاسمًا أكثر فأكثر، وممكنًا أكثر فأكثر. يعمل معظمنا الآن مع مستهلكين، أو منتجين، أو مزوّدي خدمات، أو زملاء، أو عملاء من جميع أنحاء الأرض. قبل بضعة عقود، عندما كنا ربما أقلّ اهتمامًا بالمعرفة عن العالم، لم تكن هناك تقريبًا إحصاءات موثوقة يسهل الوصول إليها. ولكن، عندما تغيّر العالم، كذلك تغيّرت الحاجة إلى المعرفة عن العالم. اليوم، تتوفّر البيانات الموثوقة حول أي موضوع تقريبًا بسهولة. هذا جديد إلى حدّ ما: كان شريكي الأوّل في معركتي ضدّ المفاهيم الخاطئة الكبيرة هو آلة لتصوير المستندات، ولكن كلّ هذه البيانات متوفّرة اليوم مجّانًا على الإنترنت. في التوظيف، والإنتاج، والتسويق، والاستثمار، لم يكن الأمر أبدًا أسهل أو أهمّ لقادة الأعمال والموظّفين ليتصرّفوا وِفقًا لنظرة عالمية مستندة إلى الحقيقة.

إنّ استخدام البيانات لفهم الأسواق المعولَمة قد أصبح بالفعل جزءًا من الثقافة. ولكن عندما تكون النظرات العالمية للناس مقلوبة، يمكن لنُتَف البيانات أن تكون مضلِّلة بقدر البيانات الخاطئة أو انعدام البيانات. إلى أن يأتي اليوم الذي يختبر فيه المرء فعليًّا معرفته العالمية، فإنّ الجميع يفترض أنّ معرفته صحيحة نوعًا ما عن العالم.

في التسويق والمبيعات، إذا كنت تدير تجارةً كبيرة في أوروبا أو الولايات المتحدة، عليك أن تفهم أنت وموظّفوك أنّ السوق العالمي المستقبلي سينمو بشكلٍ رئيسي في آسيا وأفريقيا، وليس في موطنك.

في مجال التوظيف، أنت بحاجة لأن تفهم أنّ كون شركتك أوروبية أو أمريكية لا تمنحك حقوق مفاخرة لجلب موظّفين دوليين. على سبيل المثال، أصبحت غوغل ومايكروسوفت شركتَين عالميّتَين وجعلا «أمريكيّتهما» تقريبًا غير منظورة. يريد موظّفوهما في آسيا وأفريقيا أن يكونوا جزءًا من شركات عالمية فعلًا وهم كذلك. نشأ وتعلّم المدير التنفيذي لغوغل، ساندر بيتشاي، والمدير التنفيذي لمايكروسوفت، ساتيا ناديلا، في الهند.

عندما أقوم بعرض تقديمي لشركات أوروبية، أخبرهم دومًا أن يقلّلوا من تركيزهم على العلامة التجارية الأوروبية («أزيلوا الألب من شعاركم») وأن ينقلوا

مراكزهم الإدارية الرئيسية – ولكن ليس موظّفيهم الأوروبيين – إلى مكان آخر.

في الإنتاج، أنت بحاجة لأن تفهم أنّ العولمة لم تنته. قبل عقود، أدركت الشركات الغربية أنّ الإنتاج الصناعي يجب أن يستعين بمصادر خارجية هي الأسواق الناشئة في المستوى 2، حيث يمكن تصنيع المنتجات بنفس الجودة وبسعر أقلّ من النصف. ومع ذلك، فإنّ العولمة عملية مستمرّة، وليست حدثًا يحدث لمرّة واحدة فقط. صناعة الأنسجة التي انتقلت من أوروبا إلى بنغلادش وكمبوديا لدى وصولهما إلى المستوى 2 قبل بضعة عقود ستنتقل ثانيةً على الأرجح عندما تصبح بنغلادش وكمبوديا أكثر غنىً ويقتربان من المستوى 3. سيضطر هذان البلدان إلى التنويع أو سيعانيان من العواقب عندما تنتقل وظائف صناعة الأنسجة فيهما إلى بلدان أفريقية.

عند اتّخاذ قرارات استثمارية، عليك أن تطرد أي وجهات نظر ساذجة متعلّقة بأفريقيا تشكّلت لديك من ماضيها المستعمري (وحوفِظ عليها من قِبَل وسائل الإعلام اليوم) وأن تفهم أنّ غانا، ونيجيريا، وكينيا هي حيث يمكن إيجاد أفضل فرص الاستثمار اليوم.

أظنّ أنه لن يمرّ وقتٌ طويل قبل أن تهتمّ الأعمال أكثر بالأخطاء المتعلّقة بالحقائق ممّا هي بالأخطاء المتعلّقة بالتهجئة، وسترغب في التأكّد من أنّ موظّفيها وعملاءها يحدّثون نظرتهم العالمية على أساس منتظم.

الصحفيّون، الناشطون، السياسيّون

الصحفيون، والناشطون، والسياسيون بشرٌ أيضًا. هم أنفسهم يعانون من نظرة عالمية دراماتيكية. مثل أي أحد آخر، يجب أن يتحقّقوا بانتظام من نظرتهم العالمية ويعملوا على تحديثها ويطوّروا طرقًا للتفكير مُلِمّةً بالحقائق.

هناك إجراءات إضافية يمكن للصحفيين أن يتّخذوها لمساعدتهم على تقديم نظرة عالمية أقلّ تشويهًا إلى البقيّة منا. يمكن لوضع الأحداث في سياقها التاريخي أن يساعد في الإبقاء عليها في نطاقها الصحيح. يعمد بعض الصحفيين، المدركين للتأثير المشوِّه للأخبار السلبية، إلى تلخيص مقاييس جديدة لأخبارٍ بنّاءة أكثر، بهدف تغيير عادات الأخبار السيئة وجعل الصحافة أكثر معنى. من الصعب أن نعرف عند هذه النقطة مدى التأثير المترتّب على ذلك.

في النهاية، ليست وظيفة الصحفيين، ولا هدف الناشطين أو السياسيين، أن يقدّموا العالم كما هو فعليًّا. سيكون عليهم دومًا أن يتنافسوا لجذب انتباهنا بقصص مثيرة وروايات دراماتيكية. سيركّزون دومًا على ما هو غريب وليس على ما هو شائع، وعلى الأنماط الجديدة أو المؤقّتة وليس على تلك المتغيّرة ببطء.

لا أستطيع حتى أن أرى منافذ الأخبار الأعلى مستوى تنقل صورة تمثيلية محايدة غير دراماتيكية للعالم، كما تفعل الوكالات الإحصائية. ستكون صحيحة ولكن مملّة جدًّا. لا ينبغي أن نتوقّع من وسائل الإعلام أن تتحرّك بعيدًا جدًّا في ذلك الاتجاه. بدلًا من ذلك الأمر راجعٌ إلينا كمستهلكين أن نتعلّم كيف نستوعب الأخبار بشكلٍ أكثر استنادًا إلى الحقيقة وأن ندرك أنّ الأخبار ليست مفيدة جدًّا لفهم العالم.

منظّمتُك

لمرّة واحدة في السنة، يجتمع وزراء الصحة من كلّ بلد في جمعية الصحة العالمية. يقومون بتخطيط الأنظمة الصحية ويقارنون النتائج الصحية لبلدان مختلفة ومن ثمّ يتناولون القهوة. في إحدى المرّات، همس وزير الصحة المكسيكي في أذني خلال استراحة القهوة، «أهتمّ كثيرًا بشأن الرقم المتوسط للمكسيك، ليوم واحد كلّ سنة. هو هذا اليوم. في جميع الأيام الـ364 الباقية، أهتمّ فقط بالاختلافات ضمن المكسيك».

في هذا الكتاب، ناقشت الجهل بالحقائق على مستوىً عالمي. أظنّ أنّ هناك حقائق مُتجاهَلة منهجيًّا على مستوى البلد أيضًا، وفي كلّ مجتمع، وفي كلّ منظّمة.

حتى الآن جرّبنا فقط بضعة أسئلة حقائق محلّية، ولكن يبدو أنها تتبع نمطًا مشابهًا جدًّا للحقائق العالمية التي اختبرناها على نطاق أوسع. على سبيل المثال، طرحنا السؤال التالي في السويد:

اليوم، 20 بالمائة من السويديين يتجاوز عمرهم 65 سنة. كم ستبلغ النسبة بعد 10 سنوات من الآن:

أ: 20 بالمائة

ب: 30 بالمائة

ج: 40 بالمائة

الإجابة الصحيحة هي 20 بالمائة – لا تغيير – ولكن 10 بالمائة فقط من السويديين اختاروا هذه الإجابة. هذا جهل مدمِّر بشأن حقيقة أساسية تُعتبَر حاسمةً في نقاشاتنا السويدية حول التخطيط للسنوات العشر القادمة. أظنّ أنّ هذا بسبب سماع الناس كثيرًا عن شيخوخة السكّان على مدى الـ20 سنة الماضية، عندما ازداد الرقم بالفعل، ومن ثمّ افترضوا خطًّا مستقيمًا.

هناك الكثير جدًّا من أسئلة الحقائق المحلّية والمناطقية التي نحبّ أن نجرّبها. هل يعرف الناس في مدينتك النسب والاتجاهات الأساسية التي تشكّل مستقبل المكان الذي يعيشون فيه؟ نحن لا نعرف، لأننا لم نطرح السؤال للاختبار. ولكن الأرجح: لا.

ماذا عن حقل خبرتك؟ إذا كنت تعمل في الحياة البحرية حول إسكندنافيا، هل يعرف زملاؤك الحقائق الأساسية عن بحر البلطيق؟ إذا كنت تعمل في الحِراجة، هل يعرف زملاؤك إن كانت حرائق الغابات تزداد أو تقلّ شيوعًا؟ هل يعرفون ما إذا كانت الحرائق الأخيرة قد تسبّبت في أضرار أكثر أو أقلّ من تلك في الماضي؟

نحن نظنّ أنّ هناك عددًا لا ينتهي من مثل هذه الجهالات التي يمكن اكتشافها إذا طُرِحت أسئلة الحقائق. وهذا هو السبب بالضبط الذي جعلنا نقترح ذلك كخطوة أولى. يمكنك أن تتقصّى الجهل في منظّمتك الخاصة باستعمال نفس الطرق التي استخدمناها. ابدأ ببساطة بالسؤال عن أهمّ الحقائق في منظّمتك وكم من الناس يعرفونها.

في بعض الأحيان يضطرب الناس من هذا الأمر. هم يظنّون أنّ زملاءهم وأصدقاءهم سيشعرون بالإهانة إن هم بدأوا في التحقّق من معرفتهم، ولن يقدّروا إثبات كونهم مخطئين. أخبرتني تجربتي العكس. الناس يحبون هذا كثيرًا. يجد معظم الناس إلهامًا في إدراك الصورة الحقيقية للعالم. ويتوق معظم الناس للبدء في التعلُّم. إنّ اختبار معرفتهم، إذا أُنجِز بطريقة متواضعة، يمكن أن يطلق سيلًا من الفضول والبصائر الجديدة.

كلمات أخيرة

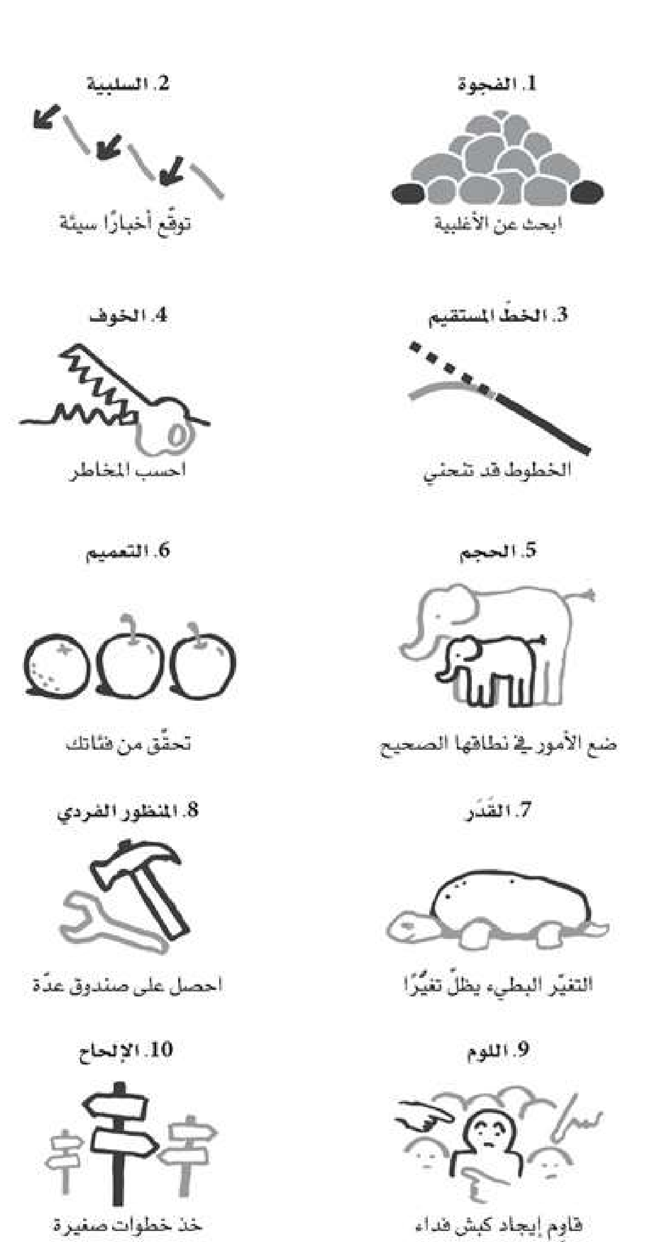
لقد وجدت أنّ محاربة الجهل ونشر نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة أمرًا

مُحبِطًا أحيانًا ولكنه في النهاية طريقة مُلهِمة ومُبهِجة لقضاء حياتي. وجدته أمرًا مفيدًا وذا معنى أن أتعلّم عن العالم كما هو واقعًا. وجدته أمرًا مُجزِيًا بعمق أن أحاول نشر تلك المعرفة إلى الآخرين. ووجدته أمرًا مشوِّقًا جدًّا أن أبدأ أخيرًا في فهم السبب وراء الصعوبة البالغة لنشر تلك المعرفة وتغيير وجهات النظر العالمية للناس.

هل يمكن أن يكون لكلّ شخص في يوم من الأيام نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة؟ من الصعب دومًا تخيُّل التغيّر الكبير. ولكنه ممكن بكلّ تأكيد، وأظنّ أنه سيحدث، لسببَين بسيطَين. أوّلًا: النظرة العالمية المستندة إلى الحقيقة مفيدة أكثر لعبور الحياة، تمامًا كما أنّ نظام تحديد المواقع العالمي مفيد أكثر لإيجاد طريقك في المدينة. ثانيًا، وربما الأهمّ: النظرة العالمية المستندة إلى الحقيقة مريحة أكثر. فهي تخلق إجهادًا ويأسًا أقلّ ممّا تفعله النظرة العالمية الدراماتيكية، ببساطة لأنّ النظرة الدراماتيكية سلبية جدًّا ومرعبة.

عندما نمتلك نظرة عالمية تستند إلى الحقيقة، يمكننا أن نرى أنّ العالم ليس سيئًا كما يبدو؛ ويمكننا أن نرى ما يجب علينا أن نفعله للاستمرار في تحسينه.

القواعد الأساسية للإلمام بالحقيقة



خاتمة

في سبتمبر 2015، قرّرنا، هانس ونحن الاثنان، أن نؤلّف كتابًا. في 5 فبراير 2016، تلقّى هانس تشخيصًا بإصابته بسرطان البنكرياس غير القابل للشفاء. كانت توقّعات سير المرض سيئة. قدّر الأطباء لهانس أن يعيش لشهرين أو ثلاثة أو، في حال كانت العلاجات المسكّنة ناجحة جدًّا، ربما لسنة واحدة.

بعد الصدمة الابتدائية الرهيبة، فكّر هانس بالأمور بتروّ. ستستمرّ الحياة لفترة. سيظلّ قادرًا على قضاء وقت ممتع مع زوجته، آغنتا، وأسرته، وأصدقائه. ولكن، يومًا بعد يوم، ستسوء صحته. ولهذا فقد ألغى في غضون أسبوع واحد كلّ محاضراته الـ67 المقرّرة للسنة القادمة، بالإضافة إلى كلّ ظهور مقرّر له في الإذاعة والتلفزيون، وكذلك كلّ إنتاجاته المقرّرة من الأفلام. كان هانس حزينًا جدًّا لفعل ذلك، ولكنه أدرك أنه لم يكن لديه خيارٌ آخر. ولكنه احتمل هذا التغيّر الدراماتيكي في حياته المهنية لسببٍ واحد: الكتاب. بعد التشخيص، كان الحزن مشوبًا بالسرور عندما تحوّل الكتاب من كونه عبئًا فوق كلّ المهامّ الأخرى إلى كونه إلهامًا فكريًّا وابتهاجًا لهانس.

كان هناك الكثير جدًّا ممّا يريد قوله. على مدى الشهور التالية، وفي غمرة حماستنا، استخرج ثلاثتنا معًا ما يكفي من المواد لهذا الكتاب السميك: حول حياة هانس، والعمل الذي قمنا به معًا، وأفكارنا الأحدث. حتى النهاية، ظلّ هانس فضوليًّا وشغوفًا بشأن العالم.

اتّفقنا على المخطط التمهيدي للكتاب وبدأنا بكتابته. كنا قد عملنا معًا على مشاريع صعبة لسنوات عديدة، وكنا معتادين على الجدال باستمرار حول الطريقة الفضلى لشرح حقيقة معيّنة أو مفهوم. سرعان ما اكتشفنا كم كان التعاون سهلًا

خلال تلك السنوات التي كنا فيها جميعًا بخير، وكم كان من الصعب جدًّا الآن أن نحافظ على طريقتنا الحادة والجدالية في العمل نظرًا لمرض هانس. فشلنا تقريبًا.

في مساء يوم الخميس، 2 فبراير 2017، تدهورت صحة هانس فجأة. تمّ استدعاء سيارة إسعاف، وفي السيارة أخذ هانس معه نُسَخًا مطبوعة لعدّة فصول من آخر مسوّدة، وكانت ملاحظاته المكتوبة على عجل منتشرة في كلّ أجزائها. بعد ذلك بأربعة أيام، في الساعات الأولى من يوم الثلاثاء، 7 فبراير، مات هانس. خلال هذه الأيام الأخيرة سلّى هانس نفسه بهذه المسوّدات، مناقِشًا إياها مع أُولا من سريره في المستشفى، ومُرسِلًا بريدًا إلكترونيًّا إلى الناشرين، قال فيه أنه يظنّ أنه قد أنجز أخيرًا «نوع الكتاب بالضبط الذي كنا نطمح إليه». كتب هانس، «يُحوَّل عملنا المشترَك أخيرًا إلى نصّ ممتع سيساعد جمهورًا عالميًّا على فهم العالم».

عندما أعلنّا موت هانس، تدفّق سيلٌ من التعازي فورًا من الأصدقاء، والزملاء، والمعجبين من كلّ أنحاء العالم. كانت التقديرات لهانس منتشرة على الإنترنت. نظّمت عائلتنا وأصدقاؤنا احتفالًا في معهد كارولنسكا وجنازة في قلعة أوبسالا، عكسا معًا على نحوٍ جميل هانس الذي نعرفه: الشجاع، والمبتكر، والجدّي التفكير، ولكن الباحث عن السيرك حول المنعطف. والصديق والزميل الرائع، وعضو الأسرة المحبوب. كان السيرك هناك. وكان على خشبة المسرح مُبتلِعٌ للسيف (صديق هانس، الذي رأيت صورته بالأشعة السينية في بداية هذا الكتاب)، وقام ابننا تيد بحيلته الخاصة بعصا باندي وخوذة (الباندي رياضة شبيهة بالهوكي على الجليد ولكنها أكثر ودّية).

لقد عملنا مع هانس على مدى 18 عامًا. كتبنا مخطوطاته ووجّهنا أحاديثه في مؤتمرات تيد، وتجادلنا معه لساعات (وأحيانًا لأشهر) بشأن كلّ تفصيلٍ منها. سمعنا كلّ قصصه لمرّات عديدة وسجّلناها بأشكالٍ متعدّدة.

كان العمل على الكتاب مؤلماً في الأشهر الأخيرة من حياة هانس، ولكنه كان مُسلِّيًا على نحوٍ غريب في الأشهر التالية لموته مباشرةً. عندما أكملنا هذه المهمّة الثمينة، كان صوت هانس دائمًا في رأسَينا، وغالبًا ما شعرنا أنه لم يرحل بل لا يزال في الغرفة بجانبنا. بدا أنّ إنهاء الكتاب كان الطريقة الأفضل لإبقائه معنا ولتمجيد ذكراه.

لا شكّ أنّ هانس كان سيحبّ الترويج لهذا الكتاب، وكان سيفعل ذلك على نحوٍ رائع، ولكنه عرف منذ لحظة تشخيص مرضه أنّ هذا لن يكون ممكنًا. بدلًا من ذلك، علينا نحن أن نكمل مهمّته ومهمّتنا. إنّ حلم هانس بنظرة عالمية تستند إلى الحقيقة تعيش فينا، ونحن نأمل الآن أنها تعيش فيك أنت أيضًا.

آنا روسلينغ رونلوند وأُولا روسلينغ

ستوكهولم، 2018

مُلحَق

كيف كان أداء البلدان المختارة؟

في العام 2017، تمّ إطلاق اختبار غاب مايندر. تألّف الاختبار من 13 سؤالًا، لكلٍّ منها 3 خيارات، أ، ب، ج. في العام 2017، عملت غاب مايندر مع Ipsos MORI وNovus لاختبار 12,000 شخص في 14 بلدًا. أُجرِيت الاستطلاعات على مجموعات من المشاركين عبر الإنترنت يمثّلون فئة السكّان الراشدين. أُجري الاختبار في أستراليا، وبلجيكا، وكندا، وفنلندا، وفرنسا، وألمانيا، وهنغاريا، واليابان، والنرويج، وكوريا الجنوبية، وأسبانيا، والسويد، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة. أسئلة الحقائق الـ13 متوفّرة مجّانًا في لغات متعدّدة في www.gapminder.org/test/2017.
اقرأ المزيد عن النتائج هنا: www.gapminder.org/test/2017/results

تعليم الفتيات في البلدان ذات الدخل المنخفض

نتائج سؤال الحقيقة الأوّل: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

في جميع البلدان ذات الدخل المنخفض في أنحاء العالم اليوم، ما نسبة الفتيات اللاتي يُنهين الدراسة الإبتدائية؟

(الإجابة الصحيحة: 60 بالمائة)

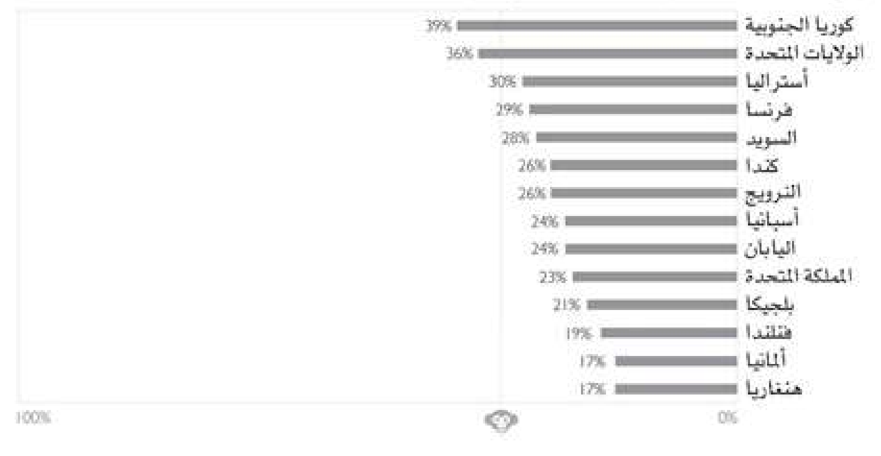


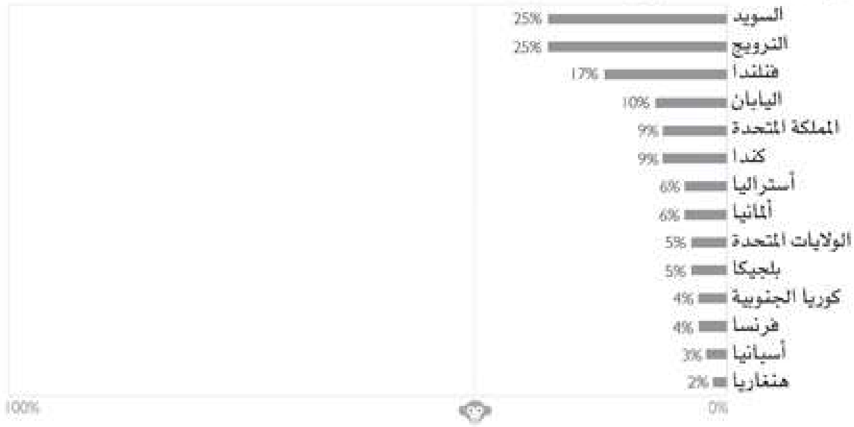
مستوى الدخل للأغلبية

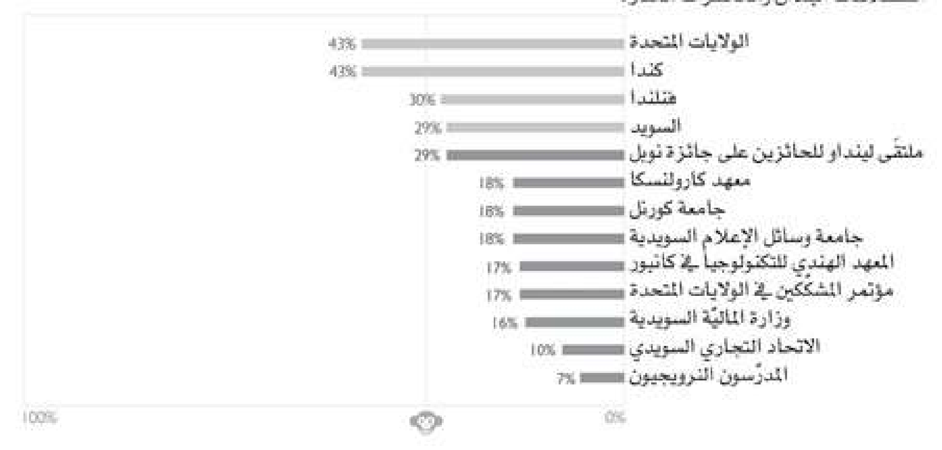
نتائج سؤال الحقيقة الثاني: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

أين تعيش غالبية سكان العالم؟

(الإجابة الصحيحة: في البلدان ذات الدخل المتوسط)

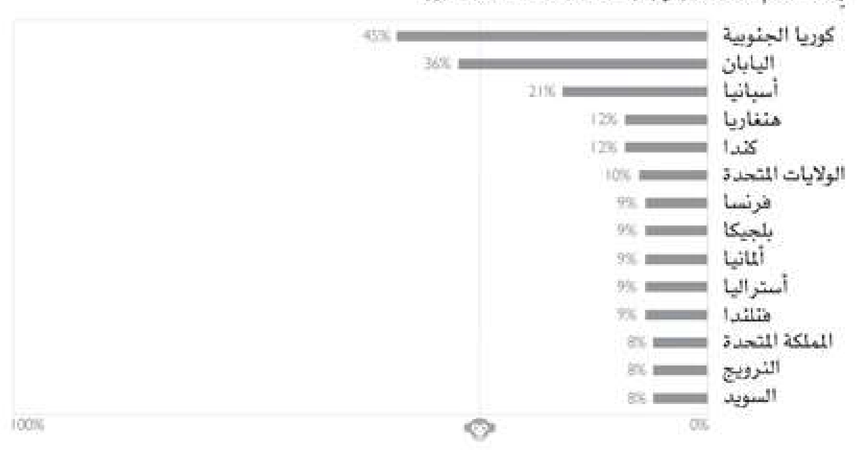






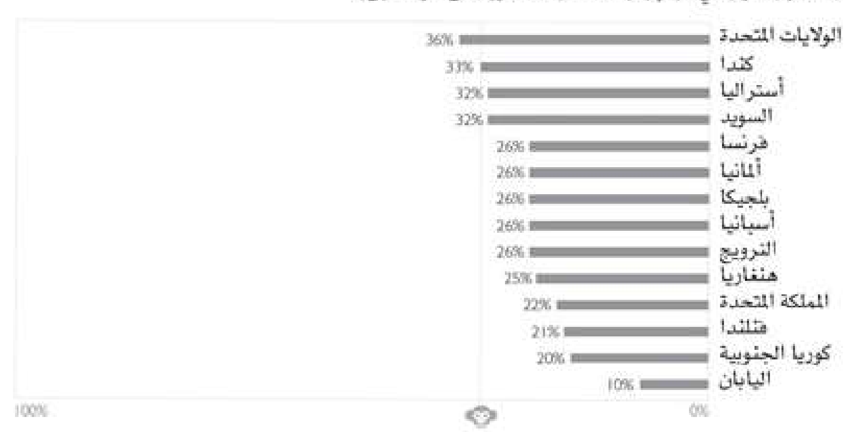
عدد الأطفال المستقبلي[4]

نتائج سؤال الحقيقة الخامس: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.
هناك 2 مليار طفل في العالم اليوم، تتراوح أعمارهم بين 0 و15 سنة. كم سيكون عدد الأطفال في العام 2100، وفقًا للأمم المتحدة؟ (الإجابة الصحيحة: 2 مليار طفل)



المزيد من الناس

نتائج سؤال الحقيقة السادس: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.
تتوقع الأمم المتحدة أنه في العام 2100 سيزداد عدد سكان العالم بمقدار 4 مليارات شخص.
ما السبب الرئيسي؟ (الإجابة الصحيحة: المزيد من الراشدين)



الكوارث الطبيعية

نتائج سؤال الحقيقة السابع: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

كيف تغيّر العدد السنوي للوفيّات الناجمة عن الكوارث الطبيعية على مدى الـ100 سنة الأخيرة ؟

(الإجابة الصحيحة: تضاعف أكثر من مرّتين)

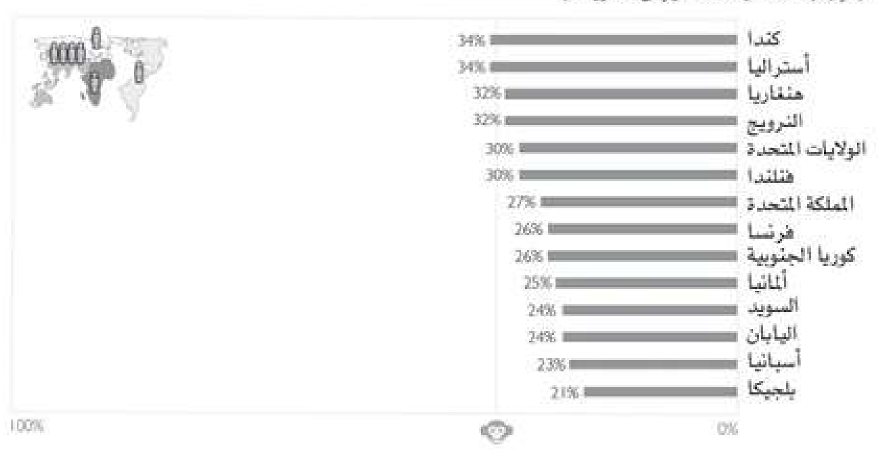


أين يعيش الناس

نتائج سؤال الحقيقة الثامن: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

هناك 7 مليارات نسمة تقريبًا في العالم اليوم. أي خريطة تُظهِر بشكلٍ أدقّ أين يعيشون ؟

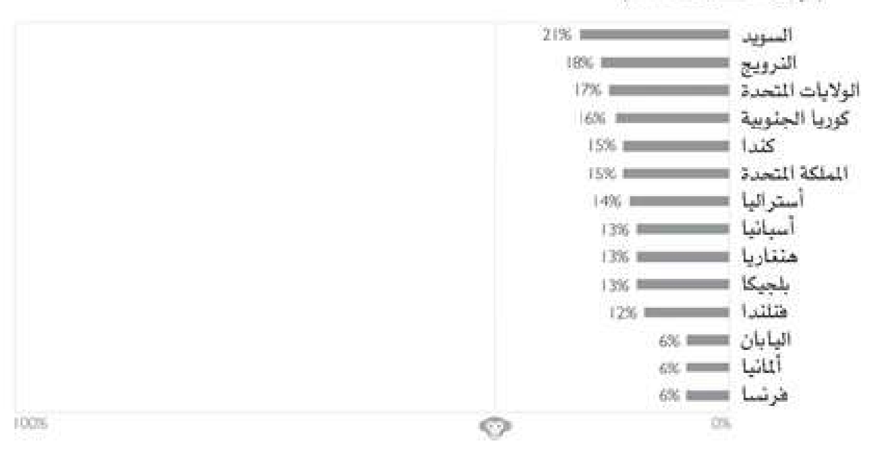
(الإجابة الصحيحة: أنظر إلى الخريطة)



تلقيح الأطفال

نتائج سؤال الحقيقة التاسع: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

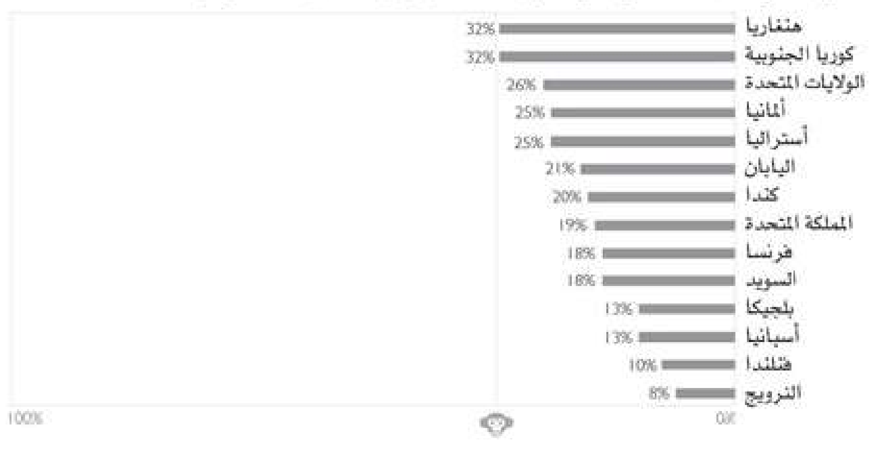
ما نسبة الأطفال البالغ عمرهم سنة واحدة الذين تمّ تلقيحهم ضدّ أمراض معيّنة في العالم اليوم؟
(الإجابة الصحيحة: 80%)



تعليم النساء

نتائج سؤال الحقيقة العاشر: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

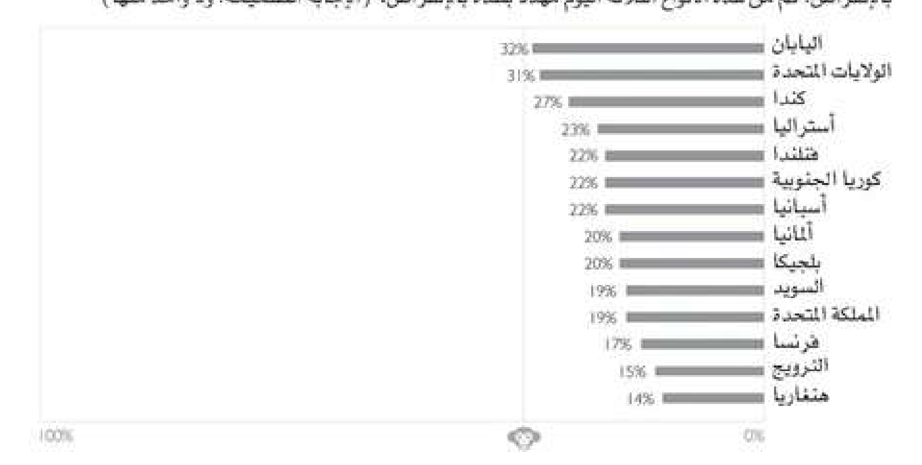
على مستوى العالم، أمضى الرجال البالغ عمرهم 30 سنة ما معدّله 10 سنوات في المدرسة. ما عدد السنوات التي أمضتها النساء من نفس العمر في المدرسة؟ (الإجابة الصحيحة: 9 سنوات)



الحيوانات المهدّدة بالإنقراض

نتائج سؤال الحقيقة الحادي عشر: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

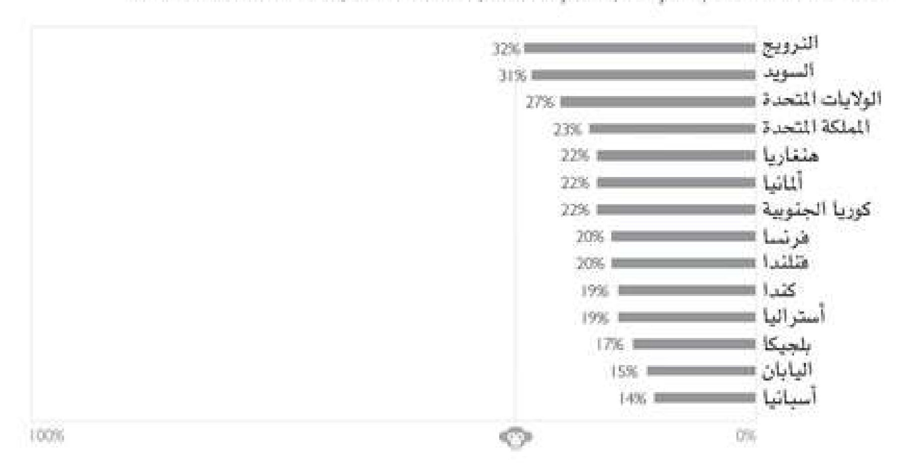
في العام 1996، أدرجت النمور، والباندات العملاقة، والخراتيت السوداء في قائمة الحيوانات المهدّدة بالإنقراض. كم من هذه الأنواع الثلاثة اليوم مهدّد بشدّة بالإنقراض؟ (الإجابة الصحيحة: ولا واحد منها)



الكهرباء

نتائج سؤال الحقيقة الثاني عشر: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

ما نسبة الناس في العالم اليوم الذين لديهم وصول ما إلى الكهرباء ؟ (الإجابة الصحيحة: 80 بالمائة)

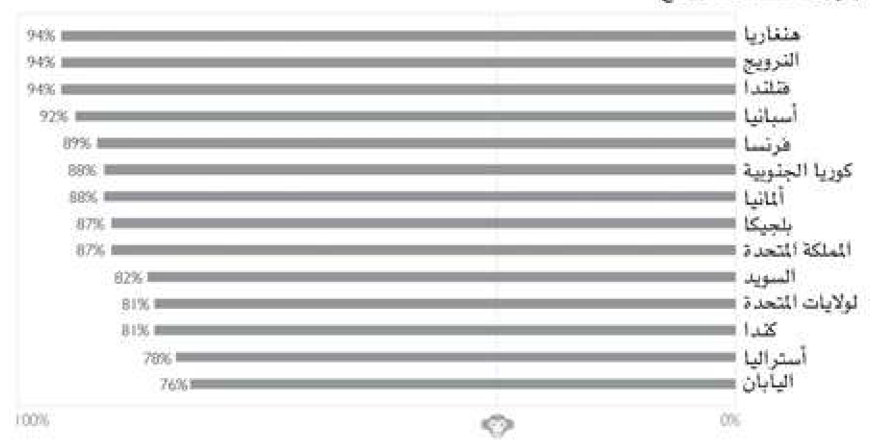


المناخ

نتائج سؤال الحقيقة الثالث عشر: نسبة الذين أجابوا إجابةً صحيحة.

يعتقد خبراء المناخ العالمي أنّ متوسّط درجة الحرارة، على مدى الـ100 سنة القادمة، سوف ...

(الإجابة الصحيحة: يرتفع)

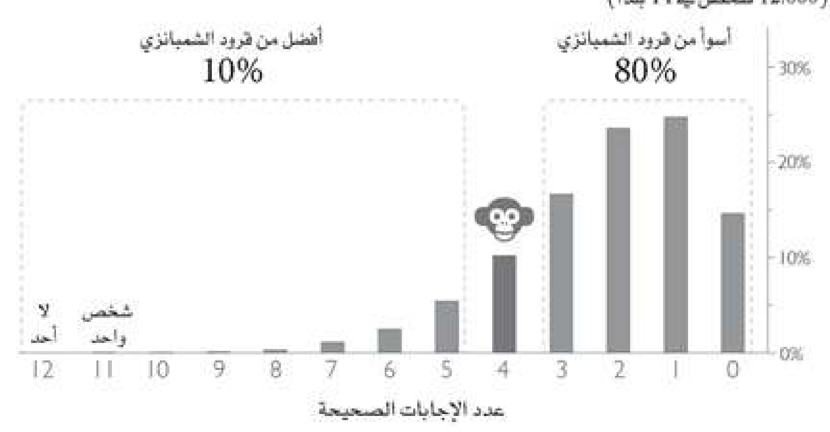


عدد الإجابات الصحيحة من الأسئلة الاثنَي عشر الأولى

10 بالمائة فقط أجابوا أفضل من قرود الشمبانزي

نسبة الناس وفقًا لعدد الإجابات الصحيحة في الاثنَي عشر سؤالًا

(12.000 شخص في 14 بلدًا)



Notes

[1←]

بالطبع، إذا كنت تعيش في المستوى 4 ولديك أقرباء يعيشون في المستوى 2 أو 3، فمن المرجّح أنك تعرف طبيعة حياتهم. إذا كان الأمر كذلك، يمكنك أن تتخطّى هذا القسم.

[2←]

يمكنك تتبّع تقدّم بلدك – أو أي بلد – باستخدام الأداة المتوفّرة مجّانًا التي استخدمناها لابتكار مخطّطاتنا الفقّاعية. تجدها في www.gapminder.org/tools.

[3←]

زُرْ شارع الدولارات هنا: www.dollarstreet.org.

[4←]

تفوّقت كوريا الجنوبية واليابان في الواقع على قرود الشمبانزي في هذا السؤال. لا نعرف السبب بعد. ربما يتعلّق بالهياكل العمرية غير المتناسقة في هذين البلدَين. ربما يُناقَش الانخفاض في معدّل الولادة هناك بشكلٍ متواتر أكثر ممّا هو في البلدان الأخرى. علينا أن نقوم بمزيد من العمل لفهم هذا.